

عيد الغدير في عهد الفاطميين

الدكتور محمد هادي الاميني

عيد الغدير

في عهد الفاطميين

عيد الغدير
في عهد الفاطميّين

تأليف

الدّكتور الشّيخ محمّد هادي الأميني النّجفي





مؤسّسة الآفاق

عيد الغدير في عهد الفاطميّين

الدكتور الشّيخ محمّد هادي الأميني النّجفي

الطبعة الأُولى: ١٤١٧ ق ـ ١٩٩٧ م ـ ١٣٧٦ ش

رصُّ الحروف: محمود الخاني

تصميم الغلاف: زُرنكار

المطبعة: بنكوئن

التجليد: فرنو

عدد المطبوع: ٥١٠٠ نسخة

دائرة التوزيع: مؤسسة الآفاق

ايران ـ طهران ـ شارع باسداران، دشتستان الرابع، بناية زمرّد، رقم ٤٣

الرمز البريدي ١٩٤٧٩، الهاتف و الفاكس ٢٣٧٠٣٥

٨٥٠ توماناً

شابك ٨ ـ ٠٧ ـ ٦٠٥٨ ـ ٩٦٤ ISBN 964 - 6058 - 07 - 8

بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم

﴿يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إلَيكَ مِنْ رَبِّكَ و إن لَمْ تَفعَلْ فما بَلَّغتَ رِسالَتَهُ وَاللّهُ يَعصِمُكَ مِنَ النّاسِ ...﴾ (المائدة : ٦٧)

﴿اَليَومَ أكمَلْتُ لَكُم دينَكُم و أتمَمتُ عَليكُم نِعمَتي وَ رَضِيتُ لَكُم الإسلامَ ديناً ...﴾

(المائدة : ٣)

﴿سألَ سائلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ * لِلكافِرينَ لَيسَ لَهُ دافِعٌ * مِنَ اللّهِ ذِي المَعارِجِ ...﴾

(المعارج : ١ ـ ٣)

المقدّمة

لسيادة العلّامة الدكتور عبد العزيز الدُّوري،
رئيس قسم التأريخ الأسلامي في «جامعة بغداد»

قامت الدولة الفاطميّةُ، بعد دعوة سرّية بذلت جهوداً واسعة لفترة تجاوزت ثلاثَةَ أرباع القرن؛ و كانت دعوةٌ شاملة تناولت الشؤون السياسيةَ و الاقتصادية، و الاجتماعية و الفكرية، في نسيج محبوك؛ و حاولت أن تجمع إلى صفوفها كافّة القُوَى المعارضة للأوضاع القائمة أو المتذمّرة منها.

و قد نشطت هذه الدعوة في المناطق الممتدّة بين إيران شرقاً، و المغرب غرباً، و بين سورية شمالاً، و اليمن جنوباً. فشملت شعوباً و جماعات مختلفة مناديةً بالمساواة بين الشعوب، و داعية إلى العدالة الاجتماعية، و متّخذةً من حقّ آل البيت صيْحتَها السياسية؛ و كان من مظاهر نشاطها أنها اتخذت في البلاد المختلفة أساليبَ مختلفةٌ. كما تباينت في وجهتها بين‌الميل للغلوّ، و الميل للاعتدال. و يكفي أن نشير إلى القرامطة في العراق و بادية الشام وإلى قرامطة البحرين، وإلى الإسماعيلية في إيران و اليمن و أجزاءَ أُخرى، وإلى الفاطميّين، لترى تباين الصورة الفعلية لإنجازات هذه الدعوة.

فــي الوقت الذي اتّبع قرامطة البحرين سياسة إشراف الدولة على النواحي الاقتصادية، واتّخذوا تدابير اشتراكيةً معتدلة، ذهب قرامطةُ العراق إلى

تدابير ممعنة في هذا الاتّجاه؛ بينا اكتفى الفاطميّون بوجهة إصلاحية معتدلة.

و مع أن الدعوة كانت واسعة و نشيطة، إلّا أنها قاست من الانقسامات؛ و أقوى مثل على ذلك الحرب الضروس التي وقعت بين قرامطة البحرين و بين الفاطميّين في فترة توسُّعهم إلى مصر.

****

و مما يسترعي الانتباه أنّ الدعوة الإسماعيلية لم تثر الّا في البلاد العربية، و ذلك باستثناء بسيط، و هو قيام إمارة حسن الصباح في أَلَموت. فكان نجاح الدعوة في البحرين و اليمن و إفريقية و مصر؛ و كان لها كيانٌ موقت في جنوب العراق و في بادية الشام؛ و هي بلاد كانت تشكو من أوضاع اقتصادية و سياسية قَلِقةٍ. كما أنَّ الدُّولَ التي أقامتها الدعوة تمثل على العموم الوجهة المعتدلة لها، و خاصة إذا قورنت بالركائز التي تكوّنت في ايران، و هذه ناحية لها دلالتها في فهم الدعوة، و في فهم بعض جوانب التاريخ العربي.

و كان قيام الدولة الفاطمية أهمَّ نتائج الدعوة الاسماعيلية و أبعدها أثراً في التاريخ العربي، و لم يكن تغلُّبها على مصر نتيجةَ التغلّب العسكري وحده، بل سبق ذلك نشاط قوي للدّعاة الفاطميين و ساعد عليه الوضع الاقتصادي المرتبك في مصر. و كان طبيعياً بعد ذلك أن تعني الدولة الفاطمية بهذه الناحية على وجه الخصوص.

و قد نقلت الدولة الفاطمية مقرّها الى مصر لأهميّة موقعها في العالم الإسلامي، ولإمكانيّاتها الضخمة. و أنشأت لها عاصمة جديدة تعبّر عن كيانها و عن اتّجاهاتها؛ و من هناك نظمت دعوة فاطمية كانت آمالها و محاولاتها التوسّعية تتّجه إلى الشرق دائماً، و كان هدفها الأول أراضي الخلافة العباسية.

و نحن نعرف أنّ العبّاسيّين جاءوا إلى الحكم، إثر دعوة سرّية محكمة استمرّت ثلاث قرون؛ و إنّ هذه الدعوة لم تنقطع بقيام الدولة العباسية. إلا أنها

لم تستطع متابعة الأُسس الفكرية والاجتماعية التي نادت بها، كما و أُصيبت بأزمـة حادّة بعد تسلّط الأتراك على الخلافة و بصورة أشدَّ بعد الغزو البويهـيّ. أمّا الدولة الفاطمية فإنها رأت في دعوتها مصدر استمرارها و توسّعها بـل و سـبب بـقائها، فبذلت كلَّ جهد في تنظيمها و توسيعها و أنشأت لها الحلقات، و أسّست لها مدرسة قوية هي «الأزهر»، لتكون محل تهيئة و إشعاع؛ كما أنها حاولت أن تطبع حياتهـا العامة و مراسيمها بطابع الدعوة، و يتمثّل هذا بصورة جليّة في مراسيمها و أعيادها خاصة.

و قد أراد الفاطميّون أن يكثروا من الأعياد، و أن يجـعلوها تـنطوي عـلى مفاهيم تتّصل بصميم الدعوة ليتخذوا منها سبيلاً للـتأثير عـلى تـفكير النـاس، و ليظهروا منها عظمة دولتهم. و يبدو أن الأعياد فسّرت تفسيراً تأويليّاً في الدعـوة لتأخذ محلّها في نطاق الفكر الإسماعيلي.

****

و قد كان لعيد الغدير المنزلةُ الأُولى بين هذه الأعـياد، و وضـعوا له مـعنىً تأويليّاً يختلف عن المعنى المعروف لدى الإمامية، و هو معنى يتّصل بأساس مفهوم الإمامة لدى الإسماعيلية.

و يظهر أنّه كان لدى الإسماعيلية دعاءٌ خاصٌ بيوم «عيد الغدير» و خـطبة خاصة تُلقى في ذلك اليوم، كما وضع بعض الشعراء قصائد توضح المـعنى التأويـليَّ؛ وصلنا منها مثلاً القصيدة الغديرية لأبي عبداللّٰه الخُصَيبي[1] و قد أسهب أبو سـعيد

---

۱. أبو عبداللّٰه الحسين بن حمدان بن الخُصيب الخُصَيبي المتوفى ۳۵۸ هـ. فقيه أديب شاعر مـؤلف، كـان يـسكـن الكوفة. له: الإخوان. المسائل. تاريخ الأئمة. الرسالة. أسماء النبي (ص). الهداية في الفضائل. أحوال أصحاب الأئمة و أخبارهم. الروضة.

في بعض المراجع: الخضيبي الجنبلاني.

←

ميمون بن القاسم الطبراني النصيري[1] في كتابه «مجموع الأعياد»[2] في توضيح معنى الغدير و أهميته، و اعتبرَه العيد الأول بين الأعياد، و واضح أن الكتاب المذكور من نتاج الفكر الإسماعيلي خارج مصر في القرن الرابع الهجري و يتسم بطابع السّرية. «باعتناء شتروطمان همبورغ ١٩٤٣ ـ ٦ / ٥١ ـ ٨٤».

و هذا يبرر تركيز الأخ الفاضل الشيخ محمد الهادي الأميني على عيد الغدير لدى الفاطميين. و لا أراني بحاجة لتحليل ما بذله من جهد، و ما توصّل اليه في دراسته، فهذا واضح في ثنايا الكتاب و نحن نُرحّب بدراسة تاريخ الفاطميين، و خاصة الجانبِ الحضاري منه، لأنه لازال ينتظر الدراسات الواسعة و الجهد الكبير.

عبد العزيز الدوري

رئيس دائرة التأريخ ـ جامعة بغداد

←

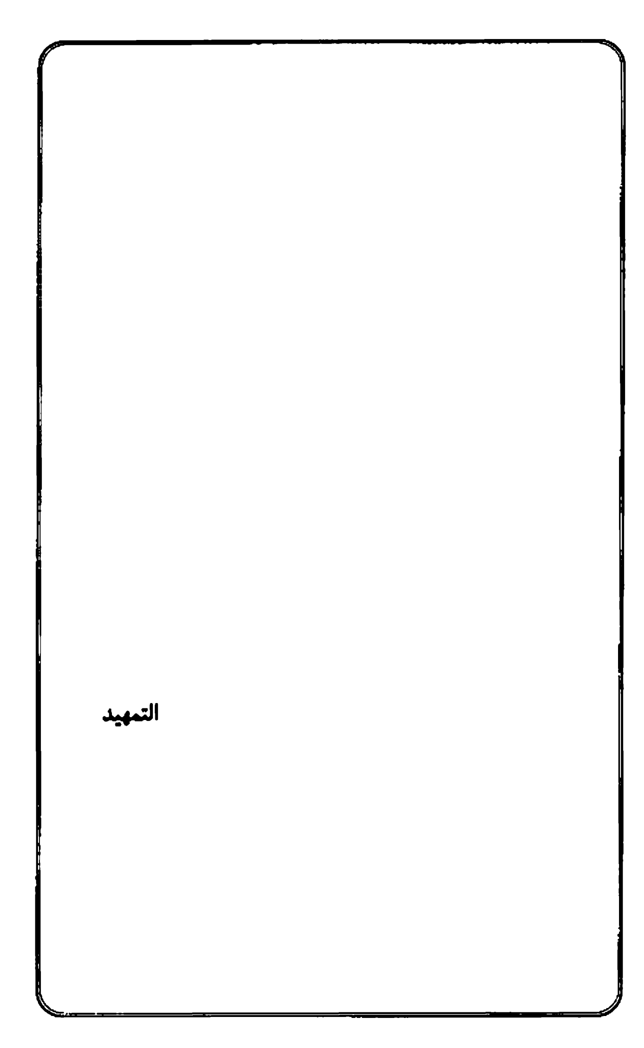
أعيان الشيعة ١٤٤/٢٥ رقم ٥١١٦. تنقيح المقال ٣٢٦/١. جامع الرواة ٢٣٧/١. خلاصة العلامة الحلي/٢١٧. رجال ابن داود /٢٤٠. رجال الشيخ الطوسي /٤٦٧. رجال النجاشي /٤٩. رياض العلماء ٥٠/٢. فهرست الشيخ الطوسي /٥٧. لسان الميزان ٢٧٩/٢. معجم رجال الحديث ٢٢٤/٥. معجم المؤلفين ٥/٤. نوابغ الرواة /١١٢.

١. أبو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني، كان حياً في ٣٩٨ هـ. من رجال الدعوة النصيرية. عالم فاضل كان يسكن طرابلس،

و النصيرية، طائفة من الباطنية لاتزال بسورية، سميت بهذا الاسم نسبة الى نصير النمري الذي يقال أنه جاء من جهات فارس. و هي تسكن في شمال سوريا بالجبال المعروفة بجبال النصيرية الواقعة شرقي لواء اللاذقية، و الممتدة من حدود صافينا إلى حدود أنطاكية.

دائرة معارف وجدي ٢٤٩/١٠. معجم المؤلفين ٦٥/١٣.

٢. اسم الكتاب: مجموع الأعياد و الدلالات و الأخبار المبهرات. حدث به سنة ٣٩٨هـ.



التمهيد

بقيت مصر زُهاءَ قرنين و نصفٍ بعد فتح جيش الأسلام لها ولاية خلافية، و مهبطاً للثورات السياسية، و النزعاتِ الدينية و الطائفية، تتوارثها الخلافة أينما حلّت و كيفما أصابت و استقرّت؛ غير أن مصر مع هذا كلّه منذ الفتح الاسلامي كانت تتبوّأ مركزاً ممتازاً و مكانة مرموقةً لموقعها الجغرافيِّ و أهميتها العمرانية و لتربتها الخصبة في حقل الحضارة من بين الولايات الخلافية الأُخرى؛ كالشّام و سوريا و العراق، و لهذا نجدها منذ التأسيس كانت مطمع الزعماء المتغلّبين. ذلك بأنّهم كانوا يرون فيها ضالَّتهم المنشودة تتحقّق على صعيدها أهدافهم و أغراضهم السياسية و الاجتماعية و غيرها، حتى أصبحت ملاذاً منيعاً لحركاتهم الاستقلالية. فمن أجل هذا كنتَ تراها دائماً مهبط احتدام و ميدان صراع ورحى خلافات بين الولايات و الطامعين، سيّما بعد أن ضعُف أمرُ العبّاسيين فيها حيث غدت منذ الساعة، طعمة سائغة لنفر من الحكام الأقوياء و الأمراء الأشدّاء، يحكمونها باسم الخلافة الإسلامية، و يتناول

بعضهم بعضاً بعنوان الغلبة و الحكم و القهر، و ينشؤون بها دولة مستقلة لاتكاد تربطها بالخلافة و الإمارة رابطة من روابط سياسيّة أو إداريّة.

و مع ذلك كلّه فقد كانوا يحرصون على أن يستظلّوا تحت لواء الخلافة و الإمامة و سلطانهاالديني، المهيمن على الشعب المصري مع وجود تلك النزعات و الخلافات الداخلية القائمة على قدم و ساق فيها. و لم تكن مصر لتمتّعها بمركزها المرموق بين ولايات الخلافة و موقها الجغرافي السبب لأن تكون قبلة مختارة و ميداناً ممهّداً لذوي الطموح و المتغلّبين من الحكومات، و لا أن القضاة كانوا يسعَون إلى إخماد بُركان الثورات دائماً و المطالبة باستقلالها، و لكن كل ذلك كان طارئا عرضياً عليها، ساقته إليها الحوادث و المؤثرات الخارجية الوقتية وحدها، فقسمت شعبها إلى قبائل يحكمها رئيسٌ مستقل. و لقد أثار هؤلاء الرؤساء حروباً مستمرّة على المصريّين، و في الواقع أن مصر في ذلك العهد رأت من المظالم و الويلات، و ذاقت مرارتها مالم ترها في أى عصر من عصورها التاريخية السالفة أبداً؛ سيما فيما يختص بالاضطهادات الملازمة لطموح هؤُلاء الولاة و قَسوتهم، و الحكومات الخارجية النازحة عليها و مطامعهم، و بسط سلطانهم على ربوعها. و هكذا كانت سنّة الأقوياء منذ القدم ليومنا هذا؛ حيث أن التغلّب أحد مقوّمات الحياة الحكومية، و حالة ملازمة لمزاج الحكومات مطلقاً، و لا يمكن لقوي أن يتخلّف عن الإنجراف في تيّارها.

لم تخفَ هاتيك المميّزات الخاصة لمصر على الفاطميّين، و لم تلتبس هذه الحقيقة عليهم منذ قيام عبيداللّه المهدي[1] مؤسس دولة العبيد و باني مجدها

---

١. ابو محمّد عبيداللّه (المهدي) بن محمّد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمّد المكتوم بن إسماعيل بن الإمام الصادق بن الإمام أبي جعفر محمد الباقر بن الإمام علي زين‌العابدين بن الإمام أبي عبداللّه الحسين بن الإمام علي بن أبي‌طالب عليهم السلام؛ الفاطمي العلوي الكوفي ٢٥٩ ـ ٣٢٢ هـ. و قيل: أبو محمّد عبيداللّه بن محمّد

←

بتنفيذ دعوته في افريقية عام ٢٩٦ هـ. بل كان هو و شيعته أمل بأن يشيّدوا بمصر دولتهم الأولى، وأن ينقضوا منها ملوك الأغالبة؛ لذالك رأوا من الضروريّ أن يوالوا جهودهم السامية و الحربية لتحقيق أُمنيّتهم الكبرى هذه، بل أُمنيّة الفاطميّين جميعاً في الاتّجاه نحو المشرق، و مِن ثَمَّ توجيه ضرباتهم القاضية للدولة العبّاسيّة، و تكوين دولة شيعيّة فاطميّة ترأس العالم الاسلاميّ.[١]
هذا هو الحُلم الجميل و الأمنية الكبرى التي كانت تستهوي قلوب قاطبة الخلفاء الفاطميين في المغرب؛ و لأجله فقد وجّهوا أنظارهم لغزوها و امتلاكها منذ قيامهم بالدعوة، و كثيراً ماحاول المهديُّ عبيدالله تحقيقها و تنفيذها و لكنه عجز و لم يستطع ذلك؛ بَيد أنهم في الغزوات المتكررة استولوا على بعض ثغورها و نواحيها، و إن كانوا غالباً يرجعون بالخيبة. فقد أرسل المهدي حملة بقيادة حباسة بن يوسف الكنامي التي نجحت في دخول الاسكندرية، و لكن

←

ابن عبدالله بن ميمون بن محمّد بن اسماعيل بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام؛ ولد بالكوفة و سكن سلمية (بسورية) و كان يناهض العباسيين. و يدعو لنفسة فاستجابت اليه قبائلُ عربية. فبلغ خبر المكتفي بالله العباسي، فطلبه ففرّ من سلمية إلى العراق، ثم لحق بمصر فالاسكندرية، و منها إلى المغرب؛ بعد أن كان أبو عبدالله الحسين بن أحمد الملقب بالقلّم قد مهّد له بيعة المغرب، و استفحل أمره حتى بويع في القيروان بيعة عامة سنة ٢٩٧ هـ. و حاول امتلاك مصر، فقصدها مرتين و لم يظفر، و قيل: دخل الإسكندرية و عاد إلى المغرب، فاختطّ مدينة «المهدية» سنة ٣٠٣هـ. و اتخذها قاعدةً لمُلكه، و مات بها بعد أن حكم أربعاً و عشرين سنة.

و ملكَ بعدَه ابنُه القائم أبوالقاسم محمّد، ثمّ ابنه المنصور أبوظاهر اسماعيل، ثم ابنه المعز أبوتميم المعز معد بن إسماعيل و هو أول من ملك مصر و انتقل إليها سنة اثنتين و ستّين و ثلاثمائة (٣٦٢).

و للدكتور حسن إبراهيم حسن، و طه شرف كتاب «عبيدالله المهدي إمام الشيعة الاسماعيلية» ط و كان يتولّ أموره بنفسه ليس له وزيرٌ ولا حاجبٌ. الأعلام ٣٥٣/٤، عمدة الطالب/٢٣٥.

١. المعز لدين الله /٦٨.

تكاثرت عليه جيوش العباسيّين، فانهزم حباسة ثم بَعثوا بأُخرى، قادها القائم بأمر اللّه عام ٣٠٧ هـ. و تتابعت غزوات الفاطميين لمصر فكانت تُرَدُّ مهزومة مدحورة، و مع ذلك لم تَثنِ عزائمهم تلك الاندحارات عن فتحها قطُّ.

كيف و قد أدرك الفاطميّون، بثاقب رأيهم، أنّ الدعوة لهم كانت تنجح في بلاد المشرق أكثر مما أخفقت في بلاد المغرب، و أنّ تحقيق آمالهم كانت مستحيلةً لو بقُوا في المغرب، و أنّ من السهل عليهم أن يسيروا من مصر إلى غزو بقية البلاد العربية، و كذلك سائر بلاد المشرق. هذا من ناحية، و من ناحية أُخرى رأوا ضرورة فتح مصر لتأديب القرامطة، و إنقاض حكم العباسيّين منها.

و إنّ مصر بذلك كانت فريسةً هيّنة للفاتح و لكن باسم الخلافة الإسلامية، و كما قلنا كان يشرف عليها جماعة من الجند و الزعماء الأقوياء، و هم ينظّمون مواردها و قواها الدفاعيّة، حين الخطر الدّاهم لتمرّدهم على الحروب.

قال أبوالمحاسن جمال‌الدين يوسف بن تغري بردي الأ تابكي (٨١٣ ـ ٨٧٤ هـ.) : و في سنة ٢٩٧ هـ. خرج على تكين بن عبداللّه (والي الخليفة العباسي المقتدر باللّه) جماعةٌ من الأعراب و الأحواش، فجهّز تكين لحربهم جيشاً إلى بَرْقة[١]، و جعل على الجيش المذكور أبا اليمني و خرج الجيشُ إلى برقة ـ و كان هؤلاء الأعراب من جملة عساكر المهديِّ عبيدِاللّه الفاطميِّ الذي استولى على بلاد المغرب ـ فلمّا قارب الجيش برقة خرج إليهم حباسة بن

---

١. بَرقَة: اسم صُقع كبير يشتمل على مدن و قرى بين الإسكندرية و إفريقية، و اسم مدينتها انطابُلُس. و قدنسب اليها جماعة من أهل العلم. معجم البلدان ١ / ٣٨٨.

يوسف[۱] بعساكر المهدي عبيدالله الفاطمي، و قاتل أبا اليمني حتى هزمه و استولى على برقة؛ ثم سار إلى الإسكندرية في زيادة على مائة ألف مقاتل، و لما عاد جيش تكين منهزماً إلى مصر، أرسل تكين إلى الخليفة يطلب منه المددَ. فأمدّه الخليفة بالعساكر، و في العسكر حسين بن أحمد الماذرائي، و أحمد بن كيغلغ في جمع من القوّاد، و سار الجميع نحو مصر.

و كان دخول عسكر المهدي إلى الإسكندرية في أول المحرم سنة اثنتين و ثلاثمائة (۳۰۲ هـ) و وصلت عساكر الخليفة من العراق إلى مصر في صفر و نزلت عبا، فتلقّاهم تكين و أكرم نزلهم ثم تهيّأ تكين بعساكره إلى القتال. و خرج هو بعساكر مصر و معه عساكر العراق، و سار الجميع نحو الإسكندرية، و نزلوا بالجيزة[۲] في جمادى الأُولى؛ ثم سار الجميع حتى وافَوا حُباسةَ بعساكره و قاتلوه، فكانت بينهم وقعةٌ عظيمة قتل فيها آلاف من الناس من الطائفتين، و ثبت كلٌّ من العسكرين حتى استظهر عسكر الخليفة على جيش حباسة العبيدي الفاطمي و كسره و أجلاه عن الإسكندرية و برقة. و عاد حباسة بمن بقي معه من عساكره إلى المغرب في أسوء حال. و هذا أول عسكر ورد إلى الإسكندريّة من جهة عبيدالله المهدي الفاطميّ[۳].

و في سنة اثنتين و ثلاثمائة (۳۰۲ هـ.) عاد المهديُّ عبيدالله الفاطمي من المغرب إلى الاسكندرية، و معه صاحبه حباسة ـ المقدم ذكره ـ فجرت بينه و بين جيش الخليفة حروب قُتل فيها حباسة، و عاد مولاه عبيدالله إلى

---

۱. و قيل: حباشة بالحاء المهملة و الشين المعجمة، و جاء: بضم الحاء. و ورد خباسة، و هو قائد من قوّاد العبيديين. القاموس المحيط ۲۰۹/۲، المشتبه في أسماء الرجال ۱ /۲۰۸.

۲. الجيزة: بليدة في غربي فُسطاط مصر قبالتها، و لها كورة كبيرة واسعة، و هي من أفضل كور مصر. معجم البلدان ۲ / ۲۰۰.

۳. النجوم الزاهرة ۱۷۲/۳. الكامل في التاريخ ۸۹/۸.

القيروان[١].

و في أول المحرم سنة أربع و ثلاثمائة (٣٠٤ هـ.) و في ولاية ذُكاء الرُّوميّ الأعور على مصر، بلغه أن جماعة من المصريين يكاتبون المهدي فتتبّع كلَّ من اتُّهِم بذلك، فقبض على جماعة منهم و سجنهم و قطع أيدي أناس و أرجلَهم فعظمت هيبته في قلوب الناس؛ ثم أجلى أهل لوبية و مَراقية[٢] من مصر إلى الإسكندرية، ثم فسد بعد ذلك مابينه و بين جند مصر و الرعية، و بينما الناس في ذلك قدمت عساكر المهدي عبيدالله الفاطمي من إفريقية إلى لوبية و مَراقية، و على العساكر أبوالقاسم؛ فدخل الإسكندرية في ثامن صفر سنة سبع و ثلاثمائة (٣٠٧ هـ.) و فرّ الناس من مصر إلى الشام في البرّ و البحر فهلك أكثرهم. فلما رأى ذكا ذلك تجهّز لقتالهم، و جمع العساكر و خرج بهم و هم مخالفون عليه، فعسكر بالجيزة و جدّد العطاء للجند و أرضاهم و تهيّأ ذكا للحرب و جدّ في ذلك و حفر خندقاً على عسكره بالجيزة. فتقاتلا قتالاً شديداً انتصر فيه، و توجّهت عساكرُ المهدي إلى نحو الصعيد.

و في سنة ثمان و ثلاثمائة (٣٠٨ هـ.) بلغ تكينَ أنَّ ابنَ المدينيِ القاضي و جماعة بمصر يدعُون إلى المهدي، فأخذهم و ضرب أعناقهم و حبس أصحابه؛ و ملك أصحابُ المهدي الفَيُّومَ و جزيرةَ الاشمونين وعدة بلاد، و ضعف أمر تكين عنهم؛ فقدم عليه نجدة ثانية من العراق، عليها جني الخادم في ذي الحجة من السنة، خرج جني الخادم بمن معه إلى الجزيرة، و توجه الجميع لقتال عساكر المهدي. فكانت بينهم حروب و خطوب بالفيوم و الإسكندرية، و طال

---

١. النجوم الزهرة ١٨٤/٣، الكامل في التاريخ ١١٣/٨.

٢. لوبية: بالضم، مدينة بين الإسكندرية و برقة و مراقية، بالفتح و القاف المكسورة. إذا قصد القاصد من الإسكندرية إلى إفريقية فأول بلد يلقاه مراقية ثم لوبية.

ذلك بينهم أياماً كثيرة إلى أن رجع أبوالقاسم القائم محمّد بن المهدي عبيدالله بعساكره إلى برقة[١].

و في سنة إحدى و ثلاثمائة (٣٠١ هـ.) جهّز المهديُّ العساكرَ من إفريقية مع ولده أبي القاسم إلى فتح مصر فساروا إلى برقة، و استولوا عليها في ذي الحجة و ساروا إلى الإسكندرية و الفيوم وضيق على أهلها؛ فبعث إليه المقتدر بالله العباسيُّ مونسا الخادم ـ و كان قائدا من كبار قادة العباسيين ـ في جيش كثيف، فحاربهم و أجلاهم عن مصر فغادروا إلى المغرب منهزمين[٢].

و لكن جاء في بعض النصوص التاريخية أن عساكر المهديُّ استولوا في هذه المرّة على برقة و الإسكندرية، و حكموها ثم شعر والي مصر أنّ بين المصريين من يكاتب الفاطميين لغزو البلاد، فتتبّعهم الوالي و سجن منهم عدداً كبيراً و عذّب آخرين بقطع أيديهم و أرجلهم. لذلك فقد اضطرّ الفاطميّون إلى اتخاذ التقيّة و إلى الدعوة السّرّيّة، و قد جاء: أنّ المهدي نفسه دخل مصر مستتراً في زيّ التجار و كوّن له هناك دعاة و أنصاراً كما كانوا يكاتبون المصريين بالنثر تارة، و بالشعر أُخرى؛ و كان مونس الخادم يصادر هذه المكاتبات و يرسلها إلى الخليفة العباسي المقتدر. و قد حفظ لنا التاريخ صورةً مقطوعة من الشعر قيل أن القائم بأمر الله[٣] أرسلها إلى شيعته من المصريين

---

١. النجوم الزاهرة ١٩٦/٣.

٢. إتّعاظ الحنفا للمقريزي /٥٨. دائرة المعارف لفريد وجدي ٣٦٦/٨. الكامل في التّاريخ ٨٤/٨.

٣. القائم بأمر الله أبوالقاسم محمّد بن عبيدالله المهدي الفاطمي العبيدي، و يسمى نزاراً (٢٧٨ـ ٣٣٤ هـ.) ولي القائم بعد موت أبيه حكومة المغرب بعهد منه إليه. و ملك إفريقية، و كان شجاعاً شهماً مقداماً أديباً شاعراً فاضلاً. ولد و نشأ في سلمية (بسورية) و دخل المغرب مع أبيه. و لما استقر أبوه في ملك المغرب جهزّه إلى مصر مرتين سنة ٣٠١ و سنة ٣٠٧ هـ. فملك في الاولى الاسكندرية و الفيوم، و في الثانية وصل إلى الجيزة و قاتله ←

يستنهض فيها هممهم، وأُرسلت من قبل مونس إلى بغداد. و المقطوعة إن دلّت على شيء فإنها تدل على اهتمام الفاطميّين و عنايتهم بانتقاض الحكم من العباسيين، و الطعن فيهم سيفاً و قلماً. و إليك المقطوعة:

أيا أهلَ شرق اللّه زالت حلومكم ... أم اختدعَت من قلّة الفهم و الأدبْ؟
صَلاتكُمْ معَ من، و حجّكمُ بمن؟ ... و غزوُكم في من؟ أجيبوا بلا كذِبْ!
صلاتكم و الحجّ و الغزو، ويلكم ... بُشرّاب خمر عاكفين على الرِّيَبْ
ألم ترني بعت الرفاهة بالسّرى ... وقمت بأمر اللّه حقاً كما وجبْ؟
صبرت و في الصبر النجاحُ و ربّما ... تعجّل ذو رأي فأخطا و لم يصبْ
إلى أن أراد اللّه إعزاز دينه ... فقمت بأمر اللّه قومة محتسبْ
و ناديت أهل الغرب دعوة واثق ... بربٍّ كريم مَن تولاّه لم يَخِبْ
فجاءوا سراعاً نحو أصيد ماجد ... يبادونه بالطّوع من جملة العربْ
و سرت بخيل اللّه تلقاء أرضكم ... و قد لاح وجه الموت من خلل الحجبْ
و أردفتها خيلاً عناقاً يقودها ... رجال كأمثال الليوث لها جنبْ
شعارهُم جدّي، و دعوتهم أبي ... و قولهم قولي على النأي و القربْ
فكان بحمد اللّه ماقد عرفتهم ... و فزت بسهم الفلح و النصر و الغلبْ
و ذلك دأبي ما بقيت و دأبُكم ... فدونَكم حرب تضرّم كاللهبْ[1]

***

←

جيش المقتدر العباسي فعاد إلى المغرب، و بويع بعد موت أبيه عام ٣٢٢ هـ. و هو ثاني ملوك الدولة الفاطمية، مات في المهدية سنة ٣٣٤ هـ. له شعر في بعض المراجع، و ملك بعده ابنُه المنصور باللّه أبوطاهر إسماعيل. الأعلام ١٤٠/٧، البداية و النهاية ٢١٣/١١، شذرات الذهب ٣٣٧/٢، العِبَر في خبر من غبر ٤٩/٢، عمدة الطالب /٢٣٦، الكامل في التاريخ ٤٥٥/٨، النجوم الزاهرة ٢٨٧/٣، تاريخ أبي الفداء ٩٥/٢.

١. في أدب مصر الفاطمية / ١٦.

و لم يطمئنَّ الفاطميون من فتح المغرب بل كانوا في اضطراب و قلق و لم يقنعوا بأن سلطانهم أصبح الحاكمَ المطلق على كافة أرجاء افريقية. و أنّ عدم تقويضهم لدعائم الأمويين في الأندلس ربما يطيح بعرشهم إلى الأبد. و لولا رجوع المعز أو القائم، لانهارت دولتهم في مهدها تحت ضربات القبائل البربرية الخصيمة لها و المعادية لمذهبها و أنْظِمتها. و الدولة الفاطمية عند ذاك كانت فتية تسير مسرعة إلى النماء و التوطيد؛ ثم لم تكن الدولة البربرية في المغرب وحدها بأول خصيمة لها، بل كانت هناك قبائل معادية كثيرة كادت تسحقها في المهد ولكنها خرجت ظافرة قوية؛ و أدركت في نفس الوقت فداحة الخطر الذي يحيق بها ويهدّدها. و الفاطميّون مع أنهم قد استطاعوا في فترة قليلة من الزمن، أن يدوخوا قبائل المغرب كلّها و أن ينفذوا بفتوحاتهم في المغرب الأقصى حتّى المحيط، فأنهم مع ذلك لم يطمئنّوا بالسلام و البقاء و الدوام في إفريقية، و لم يعتبروا أنهم وصلوا باقامة ملكهم في المغرب إلى ذروة الأماني و الغايات السامية؛ ولكنهم أيضاً لم تثنِ عزائمُهم من إرسال الدعاة و الجيوش لمصر حتّى وجدوا في تربة مصر الخصبة أثرَ دعايتهم الفعّالة في زعزعة الافكار السنيّة في المشرق، و ضعف أمر العباسيين في الداخل و الخارج. فكانت هذه و أمثالها من العوامل التي شجعت المعزّ على المضي في مصر، و أعانه على ذلك ضعف مصر نفسها من النواحي الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية، فتفألّوا في تحقيق حلمهم في الاستقراء في بلاد مصر.

و يمكننا القول أنّ الدعوة الفاطمية راجت بمصر رواجاً لم يعهده الفاطميون من قبل؛ و لم يحلموا به. و كانت دعوتهم أسبقَ إليها من جيوشهم، و أن الدعاة استطاعوا أن يبذروا في نفوس بعض المصريين ـ إن لم نقُل جلّهم ـ معتقدات الفاطميين؛ فاستجاب لهم من استجاب، و كانوا عوناً لجيش جوهر

القائد[1] في دخول مصر سنة ٣٥٨. و يحدّثنا التاريخ الذي تسالمت الأمّة على حجّيته عن كيفيّة قيام الفاطميّين في ترويج مذهبهم بمصر، فيقول: لما أخفق السّيفُ عند الفاطميّين عولوا على الدعاية لتحقيق آمالهم و أمانيهم، فكانوا يُدمجون في صفوف جندهم دعاة عهد إليهم أن يختلطوا بالناس و يعلّموهم عقايدَ المذهب الإسماعيليِّ، فلم يلبثْ أن صار في مصر قبل فتح هذه البلاد بزمن طويل عددٌ غير قليل يعتقد المذهب الشيعي ويرجو نجاحه[2].

ثم كثرت الثورات على العباسيين لهذا و ذاك، و تلقّفتهم سيوف الثُّوّار من كلّ صوب و حدب، حتّى حدثت بين حكّامها مناوآت عارمة و منافسات

---

١. أبوالحسن جوهر بن عبدالله الرومي المتوفّى ٣٨١ هـ. كان من موالي المعزّلدين الله العبيدي. شجاعاً قائداً بطلاً كثيرالإحسان. باني مدينة القاهرة. و الجامع الأزهر. سيّره الخليفة المعز من القيروان إلى مصر، بعد موت كافورالاخشيدي، فدخلها سنة ٣٥٨ هـ. و أرسل الجيوش لفتح بلاد الشام و ضمّها إليها. و مكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم مولاه المعزّلدين اللّه سنة ٣٦٢ هـ. فحلّ المعزُّ محلّه. وصار هومن عظماء القوّاد في دولته و ما بعدها إلى أن مات بالقاهرة و لم يبقَ بمصر شاعر إلّا رثاه لكثرة إحسانه إليهم.

و كان بناؤه القاهرة سنة ٣٥٨ هـ. و سمّاها «المنصورية» حتى قدم المعزُّ فسمّاها «القاهرة» و فرغ من بناء «الجامع الأزهر» في رمضان سنة ٣٦١ هـ. و أخباره كثيرة. و للاستاذ علي إبراهيم حسن كتاب باسم «تاريخ جوهر الصقلّي قائد المعزلدين الله الفاطمي» ط.

و قد أزال الشعار الأسود، و ألبس الخطباء الثياب البيض. و جعل يجلس بنفسه في كل يوم سبت للمظالم بحضره الوزير و القاضي و جماعة من أكابر الفقهاء. و في يوم الجمعة ثامن ذي القعدة أمر جوهر بالزيادة عقيب الخطبة: « اللّهم صلّ على محمدالمصطفى و عليٍّ المرتضى و فاطمة البتول و الحسن و الحسين سبطي الرسول الذين أذهب اللّه عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا» كما أمر القائد بقول: «حيّ على خيرالعمل» في الأذان و هو أول ما أُذن به بمصر ثم أُذن به في سائر المساجد.

الأعلام ١٤٦/٢. البداية و النهاية ١١/ ٣١٠. تاريخ أبي الفداء ١٢٨/٢. دائرة المعارف للبستاني ٦٠٧/٦. شذرات الذهب ٩٨/٣. العبر في خبر من غبر ١٥٨/٢. الكامل في التاريخ ٩٠/٩. معجم البلدان ٣٠١/٤. النجوم الزاهرة ٢٨/٤. وفيات الأعيان ٣٧٥/١ ـ ٣٨٠. الخطط المقريزية ١/ ٣٧٧.

٢. المعزّلدين اللّه/ ٦٩. الفاطميون في مصر/ ٨٩.

عدائية؛ و من جهةٍ أُخرى كـانت عـاملةً و حـريصة في ردّ أطـماع الزعـماء الطامعين بالدفاع عن مصر و حمايتها من غارات المعتدين عليها و المـتطلّعين إلى امتلاكها.

أجل إنّ ثورات الجند المتكرّرة و اضطراب الشؤون العامة الاجتماعية و فقدان الأمن و الطمأنينة و الراحة غلبت الفوضى، وزادت في ضعفها، فكـان هذا مما دفعها إلى التطلّع إلى مصيرٍ أفضلَ من هذا المصير المظلم. فلبثت مصر تنَعى أهلها و تنتابُها المـصائب، و أصـبحت مـسرحـاً للـفوضى و القـلق و الاضطراب؛ و عَجز الحكّام عن دفـع رواتب الجـند و المـوظّفين و لمّ شـعثها فتفاقمت الثوراتُ و تفشّي الفقر و البؤس و المرض في الشعب و مهّدت السبل.

و على إثر هذه العوامل لنجاح الفاطميين و تحقيق رغاباتهم و اعتقاد الخليفة الفاطمي (المعزّ) أنّ أهالي هذه البلاد لن يقاوموه بسبب الحالة الـسيّئة التي أصبحوا فيها؛ و أنّ العباسيين و اضطرابَهـم المـادّيَّ و إفـلاسهم الـسياسي لم يمكنهم من إنقاذ مصر، و إمدادها بالرجال و العتاد و المال. فغمر الفـاطميون البلاد المصرية بخيرات و أموال؛ و سيِّرت من بلاد المـغرب عـند ذلك حمـلة قادها جوهر الصقلي، بأمر الخليفة الفاطمي المعز سنة ٣٥٧، و كانت منتظمة تنظيماً دقيقاً؛ و زوّدها بالأموال الضخمة و الرجال و المؤون حتى لايتطرّق إليها ضعفٌ و تذهُور و لا ينتابها فتور. و كان قد أنفق الخليفة الفاطمي على إعداد هذه الجيوش أربعة ملايين ديناراً عدا ما حمله ألف جمل من الذهب الذي رصد للإنفاق على هذه الحملة.[١] و قد كانت قوّة زاخرة تستطيع أن تقطع هذا القفر الشاسع بين إفريقية و مصر، بعدّتها و عددها.

و في رواية: و كان المعزّ لماندب جـوهراً هـذا إلى التـوجه إلى الديـار

---

١. المعز لدين الله/ ٨٤. النجوم الزاهرة ٤/ ٢٨.

المصرية أصحبه من الأموال و الخزائن مالا يحصى؛ و أطلق يده في جميع ذلك، و أفرغ الذهب في صور الأرحاء و حملها على الجمال لعظم ذلك في قلوب الناس.

هذا و قد وصف الحافظ تقيُّ الدين المَقريزي المتوفّى ٨٤٥ هـ. هذه الطليعةَ العسكرية الظافرة بقوله: و عزم المعزُّ على تسيير الجيوش لأخذ مصرَ و تهيّأ أمرها فقدّم عليها القائدَ جوهراً، و برز إلى رمادة و معه ماينيف على مائة فارس و بين يديه أكثرُ من ألف صندوق من المال؛ و كان المعزّ في كل يوم يخرج إليه و يخلو به؛ و أطلق يده في بيوت أمواله فأخذ منها ما يريد زيادة على ما حمله معه. و خرج إليه يوماً، فقام جوهرٌ بين يديه و قد اجتمع الجيش فالتفت المعزُّ إلى المشايخ الذين وجّههم مع جوهر و قال: و اللّٰه لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصرا! و لتدخلنّ إلى مصر بالأردية من غير حرب، و لتنزلنّ في خرابات ابن طولون و تُبنى مدينةٌ تسمّى القاهرة تقهر الدنيا!

و أمر المعزّ بإفراغ الذهب في هيأة الأرحية، و حملها مع جوهر على الجمال ظاهرة؛ و أمرأولاده و إخوته الأمراء و وليَّ العهد و سائر أهل الدولة أن يمشوا في خدمته و هوراكب. و كتب إلى سائر عمّاله يأمرهم إذا قدم عليهم جوهرٌ أن يترجّلوا مشاةً في خدمته؛ فلما قدم برقةَ افتدى صاحبُها من ترجّله و مشيِه في ركابه بخمسين ألف دينار ذهباً، فأبى جوهر إلّا أن يمشيَ في ركابه و ردّ المال فمشى.[1]

و لقد أزكى منظر تلك القوى الجرّارة و هيأتها الهائلة وقت خروجها من القيروان إلى مصر في يوم من أيّام الربيع، خيال شاعر معاصر هو ابن هاني

---

١. الخطط المقريزية ٣٧٨/١.

الأندلسي[١] فأنشد قصيدة يمدح فيها القائد جوهراً، و يذكر توديعه عند خروجه من القيروان إلى مصر و يصف الجيش الفاطميَّ العَرمرم، و يذكر خروجه للتشييع و أولها:

رأيت بعيني فوقَ ما كنت أسمعُ ... و قد راعني يومٌ من الحشر أروعُ
غداة كأن الأُفقَ سدّ بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلعُ[٢]
فلم أدرِ إذ ودّعت كيف أودّعُ ... و لم أدر إذ شيّعت كيف أُشيّعُ
ألا إنّ هذا حشدُ من لم يذق له ... غرار الكرى جفن و لابات يهجعُ
إذا حلّ في أرض بناها مدائناً ... و إن سار عن أرضٍ غدت و هيَ بَلقعُ
تحلُّ بيوت المال حيث محلّه ... وجمّ العطايا و الرّواق المرفّعُ
و كبّرت الفرسان للّه إذ بدا ... و ظلّ السلاح المنتضى يتقعقعُ
و عبّ عباب الموكب الفخم حوله ... ورقَّ كما رقَّ الصباح الملمَّعُ
رحلْت إلى الفسطاط أوّل رحلة ... بأيمن فال في الذى أنت تجمعُ
فإن يك في مصرٍ ظماءٌ لموردٍ ... فقد جاءهم نيلٌ سوى النيل يمرعُ
و يممهم [؟] من لا يغار بنعمة ... فيسلبهم لكن يزيد فيوسعُ

و القصيدة ١٠٥ بيتاً و آخرها:

سموتَ من العليا إلى الذّروة التي ... ترى الشمس فيها تحت قدرك تضرعُ

---

١. محمد بن هاني بن محمد بن سعدون الأندُلُسي، أشعر شعراء المغرب على الاطلاق من المتقدمين و المتأخرين، و لأجل ذلك يقال له حسب ما ذكره ابن خلّكان: متنبيّ المغرب. ولد بقرية سكون من قرى مدينة اشبيلية سنة ٣٢٠ و قيل ٣٢٦، و انتقل إلى القاهرة، و اعتقد بإمامة الخلفاء الفاطميين منذ وجودهم في المغرب، و مدحهم بقصائد عدّة و شاركهم في الاحتفالات و المناسبات، و قُتل أو مات سنة ٣٦٢ و عمره ٣٦ سنة و قيل ٤٢ و له ديوان شعر كبير مطبوع.

٢. إشارة إلى كثرة الجند بحيث أظلمت الدنيا بسبب تحرُّكهم نحو الشرق.

إلى غـــاية مـــا بـــعدها لك غـــاية و هل خلف أفـلاك السّماوات مـطلعُ؟
الى أين تـبغي؟ ليس خـلفك مـذهب و لا لجـــوادٍ في لحـــاقك مـــطمعُ[١]

و لما استولى على مصر، أرسل جوهر هذا يهنّئ مولاه المعزّ بذلك. فقال ابن هاني المذكور أيضاً في ذلك:

يقول بنو العباس: هل فُـتحت مـصرُ؟ فقل لبـني العـباس: قـد قُـضي الأمـرُ
و مـــذجاوز الإسكـــندريّةَ جـــوهرٌ تُـــطالعه البـشرى و يـقدمه النـصرُ[٢]

و لم تمض أسابيع قلائل حتى سرت الأنباء في مصر بـقدم العسـاكـر الفاطمية، و لم يكن مشروع الفاطميين في فتح مصر مجهولاً، بل كـان للـمعزّ دعاة يبُثّون دعوتَهُ خُفية، و يبشرون بالفتح الفاطمي أيضاً؛ و لم يك ثمّـة مـا تخشاه الأُمة المصرية من هذا الفتح خصوصاً بعد الذي شهـدته مـن عسـف جنود العباسيين، و انهيارهم و طغيان الولاة المستعمرين؛ و مـا انـتهت إليـه شؤونها في أواخر عهد الدولة الإخْشيدية من الإضطراب و الفوْضى و ما توالى عليها من محن الغلاء و الوباء.

و قد كان من سخريّة الأقدار أن يتولّى حكم مصر أسودُ خَصيٌّ هـو كافور[٣] و كان لهذا الحادث الفذّ في تاريخ مصر الإسلامية بلاريبٍ وقعٌ عميق في

---

١. ديوان ابن هاني الاندلسي /٣٩٧ـ٤١٢.

٢. الخطط المقريزية ٣٧٨/١. النجوم الزاهرة ٣٠/٤.

٣. أبوالمسك كافور بن عبدالله الإخشيدي ٢٩٢ـ٣٥٧هـ.

الأمير المشهور، الخادم الأسود الخَصِيُّ، صاحب مصر و الشام و الثغور، اشتراه سيّده أبوبكر محمّد الإخشيد بثمانية عشر ديناراً من الزيّاتين. و ربّاه و أعتقه، ثم رقّاه حتى جعله من كبار القوّاد لما رأى منه الحزم و العقل و حسنَ التدبير، و لمامات الأخشيد سنة ٣٣٥ هـ. أقام كافور هذا أبناءه واحداً بعد واحد، و كافور كان مـدبراً للملك؛ و أخباره كثيرة ذكرها مؤلف كتاب «النجوم الزاهرة» و قال: إن مدّةَ إمارته عـلى مـصر اثـنتان و

←

جرح الشعور القومي.

و لقد كانت الدولة الفاطمية تجذب إليها الأنظار بقوّتها و غناها، و كان سواد الشعب المفكّر يؤثر الإنضواء تحت لواء دولة قوية فتية تستظل بلواء الإمامة الإسلامية كالدولة الفاطمية على الاستمرار في معاناة هذه الفوضى السياسية و الاجتماعية. و هكذا لَقِيَ الفاطميون حين مقدمهم إلى مصر جوّاً ممهَّداً يبشر بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه[١]. و فوق ذلك كلّه كانت

←

عشرون سنة، قام في أكثرها بتدبير المملكة في و لاية أبي القاسم، ثم أبي الحسين ابني الإخشيد، و تولاها مستقلاً سنتين و أربعة أشهر، و كان يُدعى له على المنابر بمكة و مصر و الشام و الثغور؛ مثل طرسوس و المصيصة و غيرها إلى أن مات سنة ٣٥٧، و حمل تابوته إلى القدس فدفن بها. و ذلك قبل دخول القائد جوهر الصقلي إلى مصر.

و كافور هذا هوالذي هجاه أبوالطيب أحمدبن‌الحسين‌بن‌الحسن‌بن عبدالصمدالجعفي‌المتنبي ٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ. بقصيدته الداليّة و فيها يقول:

من علّم الأسود المخصيّ مكرُمةً؟	أقومُه البيض أم آباؤه الصّيدُ؟
أم أذنه في يد النخّاس دامية	أم قدره و هو بالفلسَين مردودُ؟
صار الخصيُّ إمامَ الآبقين بها	فالحرُّ مستعبد و العبد معبودُ

و منها:

و ذاك أن الفحولَ البيض عاجزة	عن الجميل فكيف الخِصيةُ السُّودُ؟

و للمتنبي في كافور أهاجٍ كثيرةٌ تضمنها ديوان شعره، و بعد هذه الداليّة خرج المتنبي من مصر و توجه إلى عضدالدولة بن بويه.

الأعلام ٦٨/٦. أعيان الشيعة ٤٢/٨ـ ١٩٩. البداية و النهاية ٢٦٦/١١. الخطط المقريزية ٣٣٠/١. دول الاسلام ١٧٣/١. شذرات الذهب ٢١/٣. العِبر في خبر من غبر ٩٨/٢ (في وفيات سنة ٣٥٦). الكامل في التاريخ ٥٨١/٨. مجالس المؤمنين ٥٢٧/٢. النجوم الزاهرة ١/٤ـ ١٠. نسمة السحر ٧٩/١. (مخطوط بمكتبتي الخاصة). و فيات الأعيان ٤٣١/١.

١. الحاكم بأمرالله و أسرارالدعوة الفاطمية / ٢٧.

مصر ترحّب دائماً بالحكم الأجنبي متى ما كان معتنقاً للديانة الإسلامية. و من أجل ذلك لم تجد مصر أيّةَ غضاضة على نفسها في قبول الطولونيين و الفاطميين حتى أنَّ الشعب أَلِف كياستهم و حسنَ تدبيرِهم للشؤون السياسية، فأقام الفاطميون بها على تلو الأيام دولةً سياسية و إمامة دينية على أُسس قوية و دعائمَ وطيدةٍ، لما وجدوا مصر أصلح مركز لتحقيق غاياتهم و مناجزة الدولة العباسية خصيمتها السياسية و الدينية.

و قبل هذا كلِّه فالأساس القويُّ الذي قامت عليه الدولة الفاطمية، هو انتسابها إلى عليٍّ بن أبي‌طالب عليه‌السّلام، و لهذا كان السلاحُ القوي الذي استعمله أعداؤها و معارضوها هو الطعنَ في هذا النسب ليتوصّلوا منه إلى الطعن في شرعيّتها و شرعيّة حكمها[1].

فتح الفاطميّون مصر و لم يكن فتحها غنماً سياسياً لبني عبيدالله فقط؛ بل كان غنماً للدعوة الشيعية التي لبث بنوالعباس يطاردونها زهاء قرنين، و الّتي رفع لواءها عبيدالله المهدي (جدّ المعزّ الأكبر) و الّتي بدأت ظفرها السياسي بافتتاح المغرب، فكانت مسألةُ الإمامة ماتزال سندَ الفاطميّين و كان مِلكُهم الجديد بمصر يصطنع بنفس الصبغة الدينيّة العميقة التي حملت لواءهم إلى المغرب، و أيّدها الشعب المصريُّ و انضمّوا تحت رايتها الخفاقة و كانت فورة القرامطة التي امتدّت يومئذ نحو الشام تهدّد دعوتهم و ملكهم في مصر؛ فكان عليهم أن يؤيّدوا هذه الدعوة و أن يثبتوا قدسيّتها و نقاءها فيثبتوا بذلك في وجه المنكرين لنسبتهم و شرعية دعوتهم أنهم كما يدّعون من سلالة فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم و وُلد عليٍّ عليه‌السّلام. و لهذا نرى المعزلدين اللّه حين مقدمه الإسكندرية، يقول لوفد المصريين الذي ذهب للقائة: إنه لم يسرِ

---

١. مجموعة الوثائق الفاطمية ١ /١٨.

لازدياد في ملك و لا رجال و لاسار إلّارغبة في الجهاد و نصرة للمسلمين.[١]

هذه الجملة إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على حرص الفاطميّين على مظاهر الإمامة و اتّساع نفوذها؛ فقد كانت الصبغةُ الدينية العميقة تطبع سياسة الدولة الفاطمية منذ القدم؛ و بفضل هذا قامت حكومتهم و تركّزت.

و إن الصراع الذي قام بين الفاطميين و العباسيين، اوالمعزّ و القرامطة و الأمويين بعبارة أُخرى لامشاحة كان في الواقع صراعاً على زعامة المسلمين الروحية و السياسية؛ و لهذا أخذ المعزّ منذ دخوله مصر يحوط بنفسه هالة من التقديس حتى يتميّز بذلك عن خلفاء الأُمويّين و العباسيين كما قلنا؛ و يجذب نحوه قلوب الرعايا و الاشياع للاحتفاظ بهذه الزعامة. و كيف و الشعب المصري بمجموعه يتطلب من الحاكم و السلطان منذ القدم ذلك. و إن المعزّ لدين اللّه منذ غزوه مصر أخذ يقرر في أذهان أتباعه أنّه لسموّ مكانته الدينية و غيره من الأئمّة الإسماعيلية الخلفاء، يستطيعون أن يكونوا واسطة بين اللّه و بين أشياعهم. و كان هٰؤلاء الذين يلقّنون هذه التعاليم من خلفائهم يجهدون في طاعتهم و طاعة من يَمُتُّ إليهم بصلة و علقة. و هذا ما جعل جماعة الإسماعيلية متّحدين متساندين، يشدّ بعضهم أزرَ بعض؛ و قد بزّ المعزّ العباسيين و الأمويين، من هذه الناحية لأنَّ هؤلاء كانوا يحملون الرعاية على طاعتهم طوعاً أوكرها و بقوة السيف.

و لذلك لبست شخصية المعزّلدين اللّه ثوباً قشيباً من التقديس و الإجلال؛ و لم يكن الخليفة الفاطمي كمنافسهِ الأمويِّ و العباسيِّ، مستبداً بأُمور الدولة أو مسرفاً في العبث و اللهو و المجون، بعد أن أصبح رعاياه و

---

١. إتّعاظُ الحنفا / ٨٨. مصر الإسلامية / ٨١.

أنصارُه ينظرون إليه كشخصٍ واجب الطاعة باعتباره من سلالة الرسول صلى‌الله عليه‌وآله[1].

و في ذلك قال ابن‌إياس[2]، ضمن حديثه عن الخلفاء الفاطميين: و كان المعزّ يحبّ العدل و الإنصاف بين الرعية غير أنه كان رافضيّاً سبّاباً للصحابة في يوم الجمعه على المنابر. و كان للمعزّ أختٌ تسمّى الست سيدة الملك قيل: إنّها توفيت في خلافة أخيها المعزّ فُوجد لها من الذهب العين ثلاثمائة صندوق من الفصوص: الياقوت الملوَّنة و اللؤلؤ خمسُ وَيْباتٍ؛ و وجد لها مدهناً من الياقوت الأحمر وزنه سبعة و عشرون مثقالاً لم يحصَ له ثمن؛ و وجد لها من الشقق الحرير الأحمر، ثلاثين ألف شقة. قال بعض المؤرخين: و كانت أختُ المعزّ مع وجود هذه السعة أزهدَ الناس في الدنيا و كانت لاتأ كلُ إلّا من ثَمن غزلها دائماً حتى ماتت[3].

و لقد امتدحه شاعره محمّدبن‌هاني الأندلسي بقصيدة أوّلُها:

تقول بنوالعباسِ: هل فُتحت مصر؟ فقل لبني‌العباس: قد قُضيَ الأمرُ[4].

---

١. المعزلدين الله / ١٣٧ ـ ١٣٩.

٢. أبوالبركات محمد بن أحمد بن إياس المصري الحنفي ٨٥٢ ـ ٩٣٠ هـ. عالم أديب مؤرخ مؤلف، أحد تلامذة جلال الدين السيوطي، وُلد بالقاهرة و قرأ على شيوخها و اختصّ بالسيوطي، و مات سنة ٩٣٠ هـ.

له من التآليف: بدائع الزهور في دقائق الدهور. عقودالجمان في و قائع الزمان. جواهر السلوك في الخلفاء و الملوك. تاريخ مصر. نشق الأزهار في عجائب الأقطار. نزهة الأمم في العجائب و الحكم.

الأعلام ٢٣٢/٦. إيضاح المكنون ١١٢/٢. تاريخ آداب اللغة العربية ٢٨٣/٣. كشف الظنون /٢٢٩، ٣٠٥، ١٩٤١، ١٩٥٣. الكنى و الألقاب ٢٢٠/١. معجم المطبوعات العربية / ٤٢، ٤٣. معجم المؤلفين ٢٣٦/٨. هدية العارفين ٢٣١/٢.

٣. تاريخ مصر ٤٧/١.

٤. حسن المحاضرة للسيوطي ٢ / ١٣.

قالها عندما أرسل جوهر القائد الرومي[١] إلى المعزّ يبشّره بفتح الديار المصرية و إقامةِ الدعوة له بها و طلبه إليها؛ ففرح المعزّ بذلك.

ماأشبهَ اللَّيلةَ بالبارحة !

ويُشبه القصة هذه بمعناها، عند ما أُقيمت الخطبةُ لبنيِ العبّاس بمصر سنة ٥٥٧ هـ . و أرسل نورالدين إلى الخليفة يعلمه بذلك زيّنت بغداد و غُلّقت الأسواق و عملت القباب و فرح المسلمون فرحاً شديداً؛ و كتب العمادُ الكاتب عن السلطان صلاحالدين إلى الملكِ نورِالدين يبشره بذلك:

قد خطبنا للمستضيءِ بمصرِ	نائبِ المصطفى إمام العصرِ
و خذلنا لنصره العضدَ العا	ضد و القاصر الذي بالقصرِ
و تركنا الدعيَّ يدعو ثُبوراً	و هو بالذُّلِّ تحت حجر و حصرِ[٢]

---

١. أسلفنا الحديث عنه، راجع ص ٢٤ من هذا الكتاب.

٢. تاريخ الخلفاء للسيوطى / ٤٤٦. تاريخ الدولة الاسلامية لابن طباطبا / ٣١٩.

و في النجوم الزاهرة ٣٥٦/٥ هكذا:

قد خطبنا للمستضيء بمصرِ	نائب المصطفى إمام العصرِ
ولدينا تضاعفت نعم اللّـ	ـه وجلّت عن كل عدٍّ و حصرِ
و استنارت عزائمُ المَلِكِ العا	دل نورالدين الهمام الأغرّ
هو فتح بكر و دون البرايا	خصّنا اللّـه بافتراع البكرِ

و هو من شعر عمادالدين ابي عبدالله محمد بن صفيّ الدين محمد بن حامد المعروف بالكاتب الاصبهاني الشافعي ٥١٩ـ٥٩٧هـ.

مؤرخ اديب عالم بالأدب و الشعر، و من أكابر الكتّاب. ولد في اصبهان، و قدم بغداد حدثاً، فتأدب و تفقّه، و اتّصل بالوزير عون الدين «ابن هبيرة» فولّاه نظر البصرة و الواسط.

و بعد موت الوزير ضعف أمره فرحل إلى دمشق فاستُخدم عند السلطان نورالدين في ديوان الانشاء، و بعثه نورالدين رسولا إلى بغداد أيامَ المستنجد، ثم لحق بصلاح الدين الأيوبي بعد موت نورالدين، فكان معه في

←

و مهما يكن من أمر فقد حكم المعزّلدين‌اللّه مصر و تتابعت على يديه الانتصاراتُ الرائعة؛ و بظنّي أنَّ الفاطميين لم يحرزوا أمثال تلك الفتوحات على يد خليفة من خلفائهم مثلما أحرزوها في عهد المعزّ في المغرب و المشرق و البر و البحر. وقد أحدث منذ انتقال الخلافة إليه ـ و هو أول فاتح ـ تطوراً كبيراً في نظام الحكم، و لكنه أبقى مع ذلك نظمَ الحكم التي كانت عليه مصر قبل الفتح الفاطميّ، و أسند شؤون الدولة و البلاد الجديدة إلى المصريين أنفسهم؛ و اشترك معهم في الحكم المغاربةُ الذين مرنوا إدارة البلاد. و لقد دلت هذه الفكرة على نجاح المعزّ نجاحاً مزدوجاً فإنّه بعمله و تفكيره هذا استطاع أن يدير دولاب الأعمال الحكومية على وفق مرامه و نهجه، و أن يدرِّبَ المغاربة على الأعمال الإدارية في‌البلاد، و أن يُفهم المصريين أنّه لم يأت لمصر إلا لاستنقاذهم من ظلم العباسيين و عبث الحكّام و استبدادهم بأمور الدولة. و بهذا و أمثاله وطدت علاقة المعزّ مع رعيته و استغلّ هذا الموقف لمصلحة تقدّم دولته و دعوته، و كرس جهوده و بذل النفيس دون راحة الشعب، حتّى جعلهم يشعرون أن الدولة الفاطميّة هي التي سمت بهم إلى الرفعة، و لولاها للبثوا يَئنُّون تحت كابوس العباسيين المظلم و قيودهم التعسّفية.

←

مكانه «وكيل وزارة» إذا انقطع الفاضل بمصر لمصالح صلاح‌الدين قام عماد الدين مقامه. و لمّا توفّي صلاح الدين استوطن العماد دمشق و لزم مدرسته المعروفة بالعمادية، و مات بها.

له: خريدة القصر. الفتح القسي في الفتح القدسي. البرق الشامي. أخبار صلاح‌الدين و فتوحه. ديوان الرسائل. ديوان شعر السيل على الذيل. نصرة الفترة و عصر الفِطرة.

آداب اللغة العربية ٦١/٣. الأعلام ٢٥٣/٧. إيضاح المكنون ٩٢/٢، ٦٢٩. البداية و النهاية ٣٠/١٣. شذرات الذهب ٣٣٢/٤. طبقات السبكي ١٠٩٧/٤ الكامل في التاريخ ١٧١/١٢. الكنى و الألقاب ٤٨٤/٢. معجم المؤلفين ٢٠٤/١١. النجوم الزاهرة ١٧٨/٦. وفيات الأعيان ٧٤/٢.

و لقد اهتمَّ الفاطميون في سبيل تقدم بلادهم و شعبهم من شتّى نواحيها، و سهروا على راحة الشعب و حمايتهم من أعدائهم و مناوئيهم سهراً مستمراً. و هذا التاريخ شاهدُ عدلٍ على عنايتهم بنظام القضاء و الحكم، و لاغرو فإنّهم منذ قيامهم بالدعوة كانوا يشعرون بأنَّ بقاءهم في البلاد يتوقّف إلى حدٍّ كبير من نشر العدالة و الرحمة و السلام بين الرعايا؛ و لذا ألزموا على أنفسهم ذلك إلى أن سقطت عام ٥٦٧ هـ. على يد صلاح الدين الأيّوبيّ[١] الذي كان قد أتى مصر ليردَّ فيها الأمر إلى نصابه، فيقض على الخلافة المصرية الجديدة

---

١. ابو المظفر صلاحُ الدين يوسف بن أيوب بن شاذي الكردي التّكريتي الأيوبي ٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ.
من قوّادالعباسيين وعبيدهم وأذنابهم، كان أبوه و أهله من قرية دوين (في شرقي آذربيجان) و هم بطن من الروادية من الأكراد، نزلوا بتكريت، و ولدبها صلاح الدين، ومات فيها جده شاذي، ثم ولي أبوه «ايّوب» أعمالا في بغداد و الموصل و دمشق، و نشأهو في دمشق، فدخل مع أبيه و عمه «شيركوه» في خدمة نورالدين محمود بن عماد الدين زنكي، و اشترك مع عمه شيركوه في حملة وجّهها نورالدين للاستيلاء على مصر سنة ٥٥٩ هـ. فاستولى على زمام الأُمور بمصر، و قطع خطبة الفاطميين، و خطب للعباسيين، و انتهى بذلك أمر الفاطميين، بعد أن فتك بهم صلاح الدين التكريتي فتكا ذريعاً و قتل الرجال و النساء و الأطفال و الأُمراء، و عبث بمقدرات الشعب الاجتماعية و الدينية، و أبدل جميع كوادر الدولة، بشرذمة من أذناب العباسيين، فاضطربت البلاد الشامية و الجزيرة، و هو مقدام في فتكه و قتله و سلبه و نفيه و تشريده.
إنّ الرجل، على ما هو فيه من البطولة و الشجاعة، من الدخلاء و من أعداء العروبة و الإسلام و خصمائهم و مناوئيهم؛ و حروبه للصلبيين و الفاطميين و بقية الطوائف الاسلامية و العربية، منبعثة عن حقده و عداوته لهم، و تحت صيانة الخلافة العباسية. لأنه لم يكن في الواقع موالياً و محبّاً لهم و لكنّه اتخذهم ذريعة للحطّ من الاسلام و العرب. و يطول بنا الحديث في هذا المجال لذلك نضرب عنه صفحاً و إلى اللقاء إن شاء اللّه تعالى. مات بدمشق سنة ٥٨٩ هـ. و دفن بها، و كانت مدة حكمه بمصر ٢٤ سنة، و بسورية ١٩ سنة، و خلف من الأولاد ١٧ ذكراً و انثى واحدة. و لبعض المؤلّفين كتابات و دراسات مستقلة عن حياته [راجع صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين و الصليبيّين للمورّخ الاستاذ السيد حسن الأمين طبع دار جديد في بيروت عام ١٩٩٥ م. ـ النّاشر].

(الفاطمية) و يعيد الخطبة فيها للمستضيء العبّاسي.[1] فغزا الاسكندرية، و لمّ شعث سورها، و كثُر القول من صلاح الدين و أصحابه في ذمّ العاضد (آخر خلفاء الفاطميين) و تحدّثوا بخلعه و إقامة الدعوة العباسية بالقاهرة و مصر مرّة ثانية، بعد أن ضعفت شوكة الفاطميين؛ و أخذ الفتور و الضعف طريقه إليهم، ذلك أنَّ أكثرَ خلفائهم لم يكن لهم من الخلافة إلّا اسمُها فلم يأت النصفُ الأول من القرن السادس الهجري إلّا كان الأمر و النهي في أيدي وزرائهم، و استطاع أحدهم أن يخلع الخليفة و أن يقضي على بقية الفاطميين[2] و انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر زهاء قرنين، و خلفت ورائها ثروة فنيّة و فكريّة و علمية ضخمة.

ثم قبض على ساير من بقي من أُمراء الدولة، و أنزل أصحابه في دورهم في ليلة واحدة؛ فأصبح في البلد من العويل و البكاء ما يذهل؛ و تحكم أصحابُه في البلد بأيديهم و قبض على بلاد العاضد و منع عنه ساير موارده؛ و قبض على القصور و سلّمها إلى الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدي و جعله زمامها فضيّق على أهل القصر، و صار العاضد معتقلا تحت يده، و أبطل من الأذان «حيَّ على خير العمل» و أزال شعار الدولة، و خرج بالعزم على قطع خطبة العاضد؛ فرض العاضد و مات و عمره إحدى و عشرون سنة إلا عشرة

---

١. المستضيء بأمراللّه الحسن أبي محمد بن المستنجد باللّه العباسي ٥٣٦ ـ ٥٧٥ هـ.

الخليفة العباسي الذي بويع له بالخلافة بعد موت أبيه، و هو الخليفة الثالث و الثلاثون. قال الذهبي: في أيامه ضعُف الرفض ببغداد و وهَى؛ و أراد جماعةٌ من شيعة العبيديين و محبيهم إقامة الدعوة وردها إلى آل العاضد. و وافقهم جماعة من أُمراء صلاح الدين، فاطلع صلاح الدين على ذلك فصلبهم بين القصرين.

البداية و النهاية ٣٠٥/١٢. تاريخ الخلفاء للسيوطي/٤٤٤. تاريخ الخميس ٣٦٦/٢. حياة الحيوان ٩٧/١. شذرات الذهب ٢٥٠/٤. العبر في خبر من غبر ٦٨/٣. الكامل في التاريخ ٤٥٩/١١.

٢. تاريخ المساجد الأثرية ١٧/١. دائرة المعارف البستاني ٣١٠/٣.

أيّام[١]. و كانت مدة خلافته بمصر اثنتي عشرة سنة و ستة أشهر و أياماً[٢]. فلمّا كانت الجمعة الأُولى من المحرم عام ٥٦٧ هـ. صعد المنبرَ الأميرُ العالم الخَبُوشاني[٣] و قد قدم مصر أيضاً بقطع الخطبة للفاطميين و جعلها باسم

---

١. اتّعاظ الحنفا / ٢٩٠.

٢. تاريخ مصر لابن اياس ٨٦/١

٣. ابوالبركات نجم‌الدين محمدبن الموفق بن سعيد بن علي بن حسن بن عبدالله الخُبوشاني النيسابوري ٥١٠ـ٥٨٧ هـ.

فقيه صوفي محدث، ولد بخبوشان و تعلم بها و انتقل إلى مصر و حظي عند صلاح الدين الأيوبي، و دعاله و هو أول من خطب للعباسيين.

قال ابن‌الأثير: واتفق أن العاضد مرض هذا الوقت مرضاً شديداً فلما عزم صلاح‌الدين على قطع خطبته استشار أمراءه. فمنهم من أشار به، و لم يفكرْ في المصريين؛ و منهم من خافهم إلّا أنه ما يمكنه إلّا امتثال أمر نورالدين.

و كان قد دخل إلى مصر إنسانٌ أعجمي يعرف بالأمير العالم؛ رأيته أنا بالموصل. فلمّا رأى ما هم فيه من الإحجام، و أن أحداً لا يتجاسر أن يخطب للعباسيين. قال: أنا أبتدئ بالخطبة لهم. فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب و دعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد ذلك. فلمّا كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر و القاهرة أن يقطعوا خطبة العاضد، و يخطبوا للمستضيء، ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان؛ و كتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعل. و كان العاضد قداشتدّ مرضه فلم يُعلمه أحد من أصحابه و أهله بقطع الخطبة.

قال صاحب «مرآة الزمان»: و في سنة ٥٨٧ توفّي الشيخ نجم‌الدين الخُبوشاني. قدم إلى الديار المصرية و أظهر الناموس و تزهّد. و كان يركب الحمار فيقفُ على السلطان صلاح الدين و أهله. و أعطاه السلطان مالاً فبنى به المدرسة التي بجانب الشافعي. و كان كثيرَ الفتن. منذ دخل مصر إلى أن مات ما زالت الفتنة قائمة بينه و بين الحنابلة و ابن الصابوني و زين‌الدين بن نجية. يكفّرونه و يكفّرهم. و كان طائشاً متهوراً نبش على ابن الكيزاني، و أخرج عظامه من عند الشافعي؛ و كان يصوم و يفطُر على خبز الشعير فلمّا مات وُجدله أُلوف الدنانير. و بلغ صلاح الدين. فقال: يا خيبةَ المسعى!

الأعلام ٣٤٢/٧. البداية و النهاية ٣٤٧/١٢. حسن المحاضرة ٢٢٩/١. شذرات الذهب ٢٨٨/٤. الطبقات

←

العبّاسيين، فدعا على المنبر للخليفة المستضيء فلم ينكر عليه أحد؛ فأمر صلاح‌الدين في الجمعة الثّانية جميع الخطباء أن يخطبوا باسم الخليفة العبّاسي ففعلوا. و هنا رواية ذهبت إلى أنّ الخليفة الفاطمي (العاضد) كان مريضاً فلم يُعلِمه أحدٌ بما حصل و بقي جاهلاً عن الأمر إلى أن توفّي ٥٦٧ هـ.

و روايةٌ أُخرى تفرّد بها ابن إياس، في سبب موت آخِر خليفة فاطمي فقال: و كان سبب موت العاضد أنّ نورَالدين الشهيدَ لما أرسل إلى صلاح الدين يقول له: اِقطَع الخطبة عن اسم العاضد باللّه! أرسل صلاح‌الدين يقول لنور الدينِ الشهيد : إنّ أهل مصر لايطاوعوني على ذلك و أخشى أن يثِبُوا عليَّ بسبب ذلک. فأرسل نورالدين الشهيد، يقول لصلاح الدين ثانياً: لابدَّ من ذلک. فلمّا رأى صلاح الدين أنَّ نورالدين الشهيد مصمِّم على ذلك جمع أعيان أهل مصر، و ذكر لهم ما قاله نورالدين الشهيد؛ فقالوا له: و كيف يكون ذلک؟ فقال شخصٌ من أبناء العجم يسمى الأمين ـ و كان من أهل العلم ـ : أنا أفتح لكم باب هذا الأمر. فلما كان يوم الجمعة ثاني محرم سنة ٥٦٧ هـ. صعد ذلك الشخصُ الأعجمي إلى المنبر، قبل صلاة الجمعة و دعا إلى الخليفة المستضيء باللّه العباسي ـ خليفة بغداد ـ فلما صعد المنبر و دعا إلى المستضيء لم يتكلّمْ أحد من الناس و لا أنكروا. فلمّا كان ثاني جمعة أمر صلاح‌الدين الخطباء بمصر و القاهرة أن يقطعوا اسمَ الخليفة العاضد من الخطبة، و أن يدعوا باسم الخليفة المستضيء باللّه العباسي؛ ففعلوا ذلك فلمّا بلغ العاضدَ ذلك انقهر و عمد إلى فُصّ من الألماس فابتلعه فمات من يومه و دفن[1].

←

السبكي ٤/١٩٠. طبقات القاضي ابن شبهة ٢/٤٤. العبر في خبر من غبر ٣/٩٥. الكامل في التاريخ ١١/ ٣٦٩. مرآة الجنان ٣/٤٣٣. معجم المؤلفين ١٢/٦٨. النجوم الزاهرة ٦/١١٥.

١. تاريخ مصر ١/ ٦٩.

و بعد هذه المرحلة الخطيرة من حياة العاضد قطع صلاحالدين الأذانَ بـ«حيٌّ على خير العمل» من ديار مصر كلّها و عزل قُضاةَ مصر لأنّهم كانوا شيعةً و ولّى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعي، و استناب في سائر الأعمال شافعيّة[١]. و أرسل الخليفةُ إلى الملك صلاحالدين خلعة سنيّة و معها أعلام سود و لواء معقود؛ ففرقت على الجوامع بالشام و الديار المصرية. و كتب له تقليداً (ذكر صورته السيوطي في حسن المحاضرة ١ ص ٢٢ ـ ٢٧) و هو دستورٌ سياسي يُلزم صلاحَالدين بالسير وفق أُصوله و فروعه.

فالدولةُ الفاطميَّة في الواقع ـ كما ذكر بعضهم[٢] ـ كانت من الدُّوَل الإسلامية الَّتي نجحت كلَّ النجاح في تنفيذ خططها. و الَّتي استقرّت بمصر فكانت أوفرها بين الدول بهاءً و أبقاها أثراً؛ و مازال الجامع الأزهر[٣] غرس الدولة الفاطميةِ اليانعَ يقوم منذ ألف عام أثراً خالداً و رمزاً باهراً لهذا العصر الزاهر و هذه الدولة المستنيرة العادلة. و ربّما كان العصر الفاطمي بين عصور مصر الإسلامية الغابرة أجودَها من هذه الناحية بالدرس و التمحيص. و أحفلها بالمواقف الشائقة و أكثرها سحراً و فتنة و أبعثها إلى التأمّل و العطف؛ لأن الخلافة الفاطميّة بالرغم مما كان يحيق بأصولها و إمامها من الرَّيب فقد

---

١. حسن المحاضرة للسيوطي ٢/ ٢١.

٢. الحاكم بأمرالله و أسرار الدعوة الفاطمية /٩.

٣. أول جامع أُسّس بالقاهرة له زعامته و رسالته العلمية. بناه القائد جوهر بأمر المعتزلدين اللّه. فابتدأ به يوم السبت لستٍّ بقين من جُمادى الاولى سنة ٣٥٩. وانتهى العمل و أُقيمت أول جمعة به في ٧ رمضان سنة ٣٦١. تاريخ المساجد الأثرية / ٤٧ـ ٦٣. مساجد مصر / ١٧ـ ٢١ و في الكتابين دراسات مسهبة و تصاوير فتوغرافية جميلة عن الأزهر و العمارات الطارئة عليه في العصور التي تلت العهد الفاطمي. و كتاب مساجد و معاهد ١ / ٢٤ ـ ٩٣ و هو بحث عن الجامع الأزهر بقلم: عبدالرحيم فوده. طبع ضمن سلسلة كتاب الشعب عدد ٧٥.

كانت بنظمها الطريفة و رسومها الفخمة و خلالها الباهرة تنثر من حولها فيض من العظمة و البهاء، و تطبع العصر بطابع عميق من روحها الباذخ كما يحدِّثنا التاريخ.

و لاغروَ في ذلك فقد نجح الفاطميون منذ دخولهم مصر و استيلائهم على عرشها في تأسيس إمبراطوريةٍ شاسعةِ الأرجاء، و حضارة باهرةٍ لم يعرفها الشرق من قبل إلّا نادراً؛ تلك الحضارة التي اشتهرت بقوانينها الصحيحة و نظمها الإدارية و فنونها الجمة و تسامحها الديني و عدالة محاكمها؛ وأهمُّ من هذا كلّه تشجيعهم للحركتين الفكرية و العلمية في كلّ حاضرة و زمان.

و الخلاصة أنَّ مصر ـ و إن كانت غنماً يسيراً للدولة الفاطمية ـ و لكنَّها كانت أسطع جوهرة في تاجها، و أعظم قطر في تلك الإمبراطورية الشاسعة التي تُسيطر عليها.

و في أيَّام هذه الدولة أخذت أنوارُ الحضارة الاسلامية تنبثق من هذه المدينة الزاهية على أرجاء الأرض، و أخَذ الفنُّ المصريُّ الإسلامي يتألق في جميع نواحيه.

و في رعاية هذه الدولة، وثَبت العمارة الإسلامية وثبةً قويةً حتى قاربت الكمال؛ لأن خلفاءها تبارَوْا في إنشاء و تأسيس المساجد الكبرى و الحصون و القصور و المناظر و الحدائق و البساتين، كما تبارت نساؤهم في هذا المضمار الخيريِّ العظيم؛ و في هذا العصر الزاهي انتشر الزخرفُ في وجهات المساجد و عُني بتصميمها فأُدخلت عليها أساليبُ جديدة، كما أُدخلت إلى مصر بعضُ أساليبِ العمارة من بلاد المغرب؛ و انتعش التصوير و نبغ المصوّرون، و ترقّت و دقّت صناعة الجصّ و الأخشاب؛ و أُنشأت في عهدها مشاهد على القبور المنسوبة إلى أهل البيت، لها تصميم خاص كما امتازت دون غيرها باستعمال

المحاريب الخشبية المنتقلة؛ و انتشر البناء بالحجر بجانب الطوب، و تهذّبت المنارة وارتقت القبّة و نقش داخلها، و تطوّرت من بساطتها إلى تضليع ظاهرها، و انتقال مقرنصها من حطّة إلى حطّتين مع تعدّد طاقاته.

وكانت أيامُهم كلّها أعياداً بما ابتكروه من حفلات جمعت بين جلالة الملك و طرب الشعب و بهجته، و كثيرٌ من الحفلات و التقاليد الباقية حتى الآن مدين بظهوره إلى هذه الدّولة.

و هذه الدّولة و إن كان الزمن قد اعتدى على أكثر منشآتها العمارية كما أباد التعنّت الدينيُّ و السياسيُّ منشآتِها المدنية التي أهمّها القصران و المناظر، إلّا أنّهما أبقيا على بعض منشآتها الدينية و الكثير من طرفها الأثرية.

و جولة بين الآثار الدينية و الحصون الباقية من عصر هم في مصر و زيارة لدار الآثار العربية لمشاهدة طرف هذا العصر في شتّى الفنون تجعلنا نوقن بما كتبه المؤرّخون و شادوا به من ثراء هذه الدولة التي كانت أيام حكمها لمصر مواسم لها و أعياداً [١].

لذلك أرى من الضروريّ البحثَ و التحقيق في الأُسس التي تركّزت عليها الدولة الفاطميّةُ، و وضعَ دراسات عن الآثار الإسلامية التي شيّدت في عهدهم، شرط أن تكون على منهاج علمي مجرد عن شوائب الانحياز و المغالات و الطعن و القدح. و أنا على يقين من أنَّ نواحي هامّة كثيرة من تاريخ الفاطميين لازالت مجهولة و سيّما الجانب الحضاري؛ و قد قامت في مصر و سوريا، خلال السنين الأخيرة السالفة فئةٌ من روّاد الحركة الفكرية و التحقيق، بالبحث عن الفاطميين؛ و أصدرت عدّةَ بحوث، و تناولوا فيها بعض نواحي الفاطميين، و اتّجهوا المنهاج العلمي في البحث و الدراسة؛ غير أنهم غيّروا مجرى

---

١. تاريخ المساجد الأثرية / ١٧.

بحوثهم و انصرفوا عن مواصلة نشر موسوعاتهم الفاطمية لعوامل مجهولة.

و في ضمن الكتب الموضوعة عن الدولة الفاطمية، كتاب وضعه السيد مصطفى غالب عن تاريخ الدّعوة الإسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر [١] ضمّ بين دفّتية من الأباطيل و الأساطير الخيالية التي لايُقرِّبُها فاطميٌّ أو إسماعيلي؛ و إنّ الفاطميين براءٌ من الكتاب و عمّا جاء في طيّاته من الخرافات المنسوبة إليهم كبرائة الذئب من دم يوسف الصِّدّيقِ...و إن ادّعى مؤلفه في مقدمة كتابه: أنّه من المعتقدين بولايتهم و الممتثلين لأوامرهم و نواهيهم بعد أن نفخ سيّده الوالد فيه العقيدة الإسماعيلية ...!

هذا والذي يستلزم الدراسة و الإلمام هو تاريخ الشعب المصري في العهد الفاطمي الذي يُعدُّ بحقٍّ من أزهى العصور الإسلامية، و لازالت آثارُهم الإسلامية في مصر تدل على ما خلّفوه من الثروة الفكريَّةِ.

لهذا وذاك منذ مدّة بعيدة انصرفتُ لدراسة الفاطميين، و البحث عمّا وضع فيهم من المؤلّفات الخاصة، أوما ورد في طيّات المعاجم و السّيَر من البحوث و التعاليق، و تتبُّع الأحداث السياسية و الوقائع و القضايا الاجتماعية المتعلّقة بذلك العهد الزاهر.

و كان من منن اللّه و توفيقه بعد الدرس و الاستقصاء و التحليل أن وضعتُ عدَّةَ دراسات عامة عن بعض نواحي حياة الفاطميين، الذي لم ينلِ الدرس و التحقيق و العناية و الاهتمام، و من بين تلكم النواحي «عيد الغدير» إذ يعدُّ من أهمّ بواعث التطوّر الفكري و العلمي عندهم؛ و لم تَنلِ الناحيةَ هذه الفكريَّةَ مع صلتها بتراثنا الفكري الإسلاميّ، وأدبنا العربي أيّةُ عناية، لذلك آثرت تقديمها و نشرها كفاتحةٍ لبقية الدراسات الفاطمية التي ستتلوها

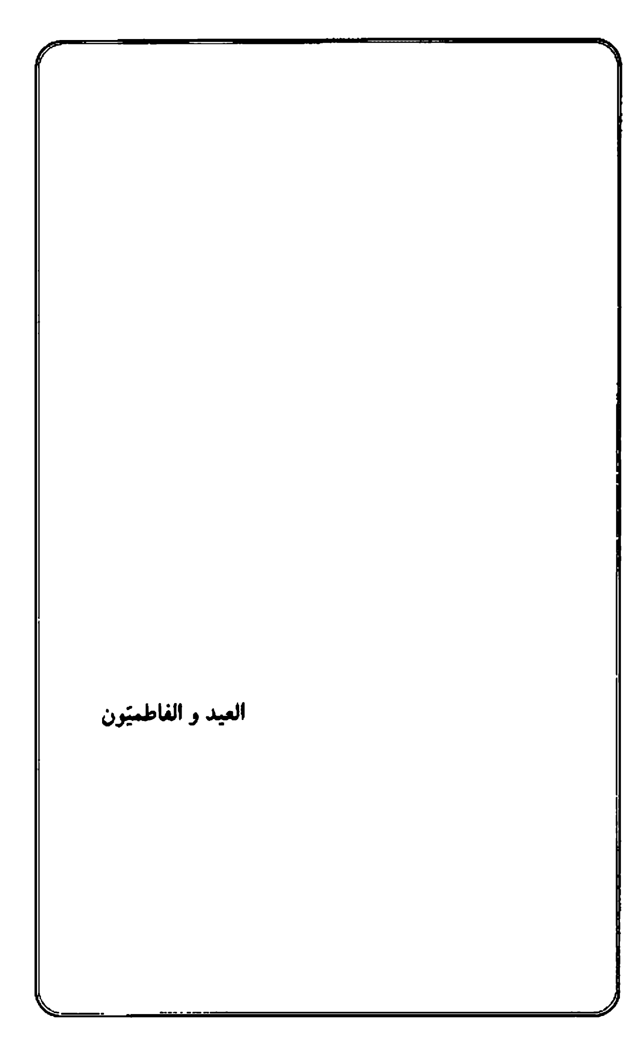
---

١. طبع في دارالیقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر بسورية، و يقع في ٣٣٦ صحيفة.

إن شاءاللّه تعالى...

و الكتاب دراسةٌ لواقعة «عيد الغدير» و بيانٌ لمختلف مظاهرها عند الفاطميّين و بحث عن القُوى و العوامل الدافعة إلى حدوثها و أحداثها و الآثار الشّعرية التي تدور حولها بإسهاب و تفصيل؛ معتمداً في دراستي لها على أهمّ المراجع و الوثائق و السّجلّات الفاطميّة التي يطمئنُّ إليها التاريخ الإسلاميُّ الصحيح؛ و أخيراً ذكرُ الشعراء الذين نظموا هذه الإشارة (عيدالغدير) في قصائدهم على عهد الفاطميين و ما جاء في شعرهم من العقائد الفاطمية؛ و من ثمَّ الخطبة الغديرية التي كانت تُلق في «عيدالغدير» من قِبل الخليفة الفاطمي بصورة رسميّة. و ما توفيقي إلّا باللّه و عليه توكّلت....

محمّد هادي الأميني



العيد و الفاطميّون

العيد اسمٌ لما يعود من الاجتماع العام، و اليوم المقرَّر على وجهٍ معتاد عائد، إمّا أن تعودَ السَّنة أويعودَ الأُسبوع أوالشهرُ أو نحو ذلك. فالعيد عنوان يجمع أُموراً كثيرة منها يوم عائد كيوم الفطر و يوم الجمعة، و منها أعمال تتبع ذلك من العبادات و العادات و التقاليد. و قد يختص العيد بمكان بعينه و قد يكون مطلقاً، و كلٌّ من هذه الأُمور تسمَّى عيداً و ربّما كان لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم و العمل فيه؛ و هو الغالب.

و حيث كان الناس شيَعاً متفرقين منذ القدم، و فِرَقاً مختلفين منذ بدء الخلقة، لم يكن البشر متفقين بالأعياد لأنَّهم لم يكونوا متّحدي المسلك و المشرب؛ كما لم يكونوا متفقين في الدين و الاعتقاد؛ لذلك كان لكل أُمّة أعيادٌ خاصة، و لكلٍّ قُطر و قبيلة عيد مخصوص، فيتجمَّلون فيه و يخرجون من بلادهم بزينتهم. و هذه عادة كانت لاتنفكُّ عنها طائفة من طوائف العرب و

العجم و لاغيرهما من الأُمم و الشُّعوب.

و لقد سنُّوا لأوقات الفرح و ساعات السرور تقاليد و مناهج لاتطاق بدونها حياة، و لا يحتمل مع عدمها عيش، و قد خلقوها خلقاً ليعيدوا لطباعهم المكدودة راحةً، و لنفوسهم المحزونة مسرة؛ كيف و إنّ الأديان و الحكومات ساعدت هذه الأعياد و المناسبات السعيدةَ ليخلص الناس فيها بعض الوقت إلى جوٍّ هادئٍ مليء من الرحمة الإلٰهيّة و الفرحة التي لايألفونها على مدار العالم كلّه.

و لقد اتَّخذت الأعياد و المناسباتُ في أنحاء العالم المعمورة، لوناً خاصاً و طُبعت بطابع يميّزها عن غيرها. و التأريخ كثيراً ما يصف أعياد المسلمين و الجوانب البهيجة من تلك الأعياد. ثم تطوّرت تلك الجوانب و المراسم بتطوّر الأزمنة و تعاقب الملوك، فاحتفل الناس بها و أتَوْا من الرسوم بقدر مايلائم أحوالهم و ظروفهم الوقتيّة و تقاليدهم القومية أو الدينية؛ و لكن هذه المراسم غالت بها بعض المجتمعات الإسلامية في بعض الظروف بتوالي الأحقاب و الأيام كالعصر الفاطمي الذي استحلَّ من الأُمور و القضايا في الأعياد مالا عهد للمسلمين الأوَّلين بها، ولم يعمل المتأخرون به؛ ذلك لأن الدولةَ الفاطميَّةَ كانت مبتكرة مجدِّدةً في كثير من قواعد الحكم و الإدارة، و في كثير من الرسوم و النُّظُم الاجتماعية، و كانت هذه الرسوم و النظم في الوقت نفسه فوق طرافتها الدستورية، تصبغها بنفس الصِّبغة الباذخة التي كانت تطبع الدولة الفاطمية ساير مظاهرها عليها؛ لأنَّ الخلافة الفاطمية في الواقع كانت بلاريب خلافة مذهبية و إمامةً دينية، و لهذه الصبغة أو الخلافة كان الأثرُ الكثير في صوْغ كثير من الرُّسوم و النظم الَّتي اختصَّت بها و لم‌تنمُ و لم‌تنشأ و تترَعرع منذ البداية إلّا بفضل ذلك الطابع الديني و ظلّه العميم؛ فإنها اكتفت بهذه الصبغة أكثر من اكتفائها بالخُطط العسكرية والدينية و المدنية المعروفة. و كان هذا كلُّه

من حرص خلفائها الشديد على أن تطبع الشعب و المجتمع بطابعها الخاص، و أن تصوغ روح الشعب و عقليّته و تفكيره و حياته العامة و الخاصة وفقاً لمناهجها و دساتيرها و قوانينها. و نحن نرى أنّ الحياةالاجتماعية في العصر الفاطمي اتخذت صوراً و مظاهر خاصة تفرّدت بذلك العصر خاصة دون مشاركة و مقارنة أيّ عصر آخرله.

و مهما يكن من شيء فقد افتتن الفاطميّون في إقامةالحفلات و المواسيم حتى يخيّل إلى من يقرأ تأريخهم أنّ حياة مصر في ذلك العصر الزاهر، كانت كلُّها أعياد و مواسم و كلُّها لهو و مرح؛ و إنّ كتُب التاريخ قد أطنبت في ذكر بذخهم و إسرافهم في اقامة هذه الأعياد و إسرافهم في العطايا و النفقات، حتى قيل: أن الفاطميين قد ورثوا مال قارون الذي لاينفد[١].

و هنا حاول المؤرخون أن يعرفوا مصدر هذه الأموال و الكنوز التي كانت تتدفّق و تسيل على الخزائن العديدة التي أنشأها الفاطميون لهذا الغرض و هو إقامة الحفلات، و مواسم الأعياد؛ و كاد يجمع المؤرّخون على أنّها أموال النجوى التي كان يأخذها الدعاة من المستجبين في كل مرتبة من مراتب الدعوة. و لكنَّ القاضيَ النعمان بن محمد المغربي[٢] مؤلف كتاب «الهمّة في آداب

---

١. الهمة في آداب أتباع الأئمة/٢٩.

٢. القاضي الأجل أبي حنيفة النعمان بن محمّد بن منصور بن احمد بن حيّون التيمي المغربي المتوفى ٣٦٣هـ.

فقيه فاطمي، و عالم و مؤلف كبير عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، و يُعرف في تاريخ أدب الدعوة الإسماعيلية المستعلية بسيدنا قاضي القضاة، و داعي الدعاة النعمان بن محمّد، و قد يختصر المؤرّخون فيقولون: القاضي النعمان، و بعضهم يسمّونه: أبا حنيفة الشيعيّ خدم عبيدالله المهدي مؤسس الدولة القاطمية، التسع سنوات الأخيرة من حكمة، ثم ولي قضاء طرابلس في عهد القائم بأمر الله الخليفة

←

أتباع الأئمة» لم يذكرلنا شيئاً عن هذه النّجوى، و إنّما ذكر لوناً آخر من أنواع جباية الأموال و هو ما عُرف بأموال الغنيمة. و الغنيمة ليست في الأصل من ابتداع الفاطميين و مستحدثاتهم فقد وردت في القرآن الكريم ﴿وَ اْعلَموا أنّما غَنِمتم مِن شيءٍ فأنَّ للّه خُمُسَه و للرّسولِ وَلذي القُربى و اليَتامَى و المساكينَ و ابنِ السَّبيلِ﴾[1] و ذهب جَمهرةٌ من المفسّرين و الفقهاء على أنَّ الغنائم هي ما يصيب المسلمين من عساكر أهل الشرك في الجهاد في سبيل اللّه. و أفردت الدولة الاسلامية «ديوان جيش» لجمع الغنائم و تقسيمها على المجاهدين و

←

الثاني للفاطميين. و في عهد المنصور باللّه عيّن قاضياً للمنصورية. و وصل إلى أعلى المراتب في عهد المعزّلدين اللّه الخليفة الفاطمي الرابع، إذ رفعه إلى مرتبة قاضي القضاة و داعي الدعاة.

كان القاضي النعمان رجلاً ذا مواهب عديدة، و غزيرَ العلم، واسع المعرفة، مجتهداً باحثاً محققاً، مكثراً مؤلفاً، عادلاً في أحكامه؛ و لمّا تمتع بثقة إمامه المعز لدين الله جعله الامامُ مستشاراً قضائياً له، و ساعد إمامه في المسائل الخاصة بالدعوة، فقد وضع أسس القانون الفاطمي، و يُنظر اليه بحق على أنّه المُشرّعُ الأكبر للفاطميين.

قال ابنُ خلّكان: إنَّ النعمان كان في غاية الفضل من أهل القرآن و العلم بمعانيه، و عالماً بوجوه الفقه، و علم اختلاف الفقهاء و اللغة و الشعراء الفحل و المعرفة بأيام الناس مع عقل و أنصاف.

و يقول عنه الدكتور محمّد كامل حسين: انه من أكبر العلماء الذين عرفتهم مصر في القرن الرابع الهجري؛ توفّي بالقاهرة ٢٩ جمادي الثانية سنة ٣٦٣هـ. و صلّى عليه الإمام المعزلدين اللّه.

و قد بلغت مؤلفاتُه نحواً من سبعة و أربعين كتاباً جمعت ألواناً شتى من العلوم: من فقه و تأويل و تفسير و أخبار. وقال ابن خلكان. نقلا عن ابن زولاق: إنه ألف لأهل البيت من الكتب آلاف اوراق بأحسن تأليف... و منها: دعائم الاسلام. الهمة في آداب أتباع الأئمة. المجالس و المسامرات. أساس التأويل. القصيدة المنتخبة. الردعلى ابن قُتيبة. اختلاف اصول المذاهب. التوحيد و الامامة.

الأعلام ٨/٩ أعيان الشيعة ١٣/٥٠. أمل الآمل ٣٣٥/٢. تنقيح المقال ٢٧٣/٣.

روضات الجنات ١٤٧/٨. الفوائدالرضوية /٦٩٣. الكنى والالقاب ٥٧/١. مستدرك الوسائل ٣١٣/٣.

نوابغ الرواة /٣٢٤. وفيات الأعيان ٢١٩/٢. و مصادر كثيرة ضربنا عن ذكرها صفحا لطولها.

١. سورة الأنفال: ٤١.

غيرهم مما ورد ذكرهم في الآية القرآنية، و إن كان الفقهاء و المؤرخون قد اختلفوا فيما بينهم فيما كان الأمر بعد وفاة الرسول في نصيبه، و اختلفوا في المقصود بذي القربى؛ فذهب بعضهم: إلى أنَّ ذي القربى هم بنو هاشم و بنو عبدالمطّلب، و قال آخرون: ذو القربى الإمام خليفة الرسول؛ أما الشيعة الاماميَّةُ فذهبوا أنّ هذه أسهُمُ أهل البيت دون غيرهم. بيدأن مؤلِّفَ «الهمّة» يذهب في الغنيمة تفسيراً لغوياً وأنّ المغنم هو المكسب، فكلّ ما يكتسبه الإنسان فهو غنيمة، و عليه ان يُخرّج خمس ما يكتسبه للإمام. و هو رأي غريب لا أكاد أجد له مثيلاً بين آراء الفقهاء والمفسرين. و مهما يكن من شيء فإن هذا الفعل يطلعنا على سرّ من أسرار الفاطميين في ناحية من النواحي المالية[١].

و لا مشاحة أنّ ثروة الفاطميين لم تكن مستمدّة منابعها من على طريق الغنيمة فحسب، و إنما أوجد الفاطميون في مصر نظاماً مالياً دقيقاً؛ فهُناك الدواوين الخاصة بالخراج، و هناك الضرائب المتنوعة قد نظمت منذ الفتح العربي تنظيماً دقيقاً و لم يُدخلوا عليه شيئاً من التحسين بل كانوا يرَون سعادة الدولة تقُوم على رضا الرعايا، و أنَّ الدولة التي تعمل على ابتزاز أموال الرعية و افقارها يكون مآلها الإفلاس. و لكنَّها في الوقت نفسه أبطلت نظام جباية الضرائب القديم، و أنشأت نظاماً جديداً في تقدير الأملاك و تعيين ما يحضر كلاً منها من الضرائب؛ و جمعت كل دوائره في مركز واحد و فحصت مصادر الضرائب على اختلافها، و تشددت الحكومة الجديدة في تحصيل ماتأخّر منها؛ كما اهتمت بالنظر في كل ما تقدم إليها من الالتماسات و الشكاوي. و سلكت الحكومة في تنفيذ نظام الضرائب الجديد سبيلَ الحزم و الشدة و حمت دافعي

---

١. الهمة في آداب أتباع الأئمة / ٣٠.

الضرائب من دفع الأموال كرهاً و عسفاً. فكانت نتيجةُ هذه السياسة الرشيدة أن زادت موارد الدولة زيادةً كبيرة ملموسة[١].

و لكن ممّا لامشاحة فيه أنَّ المعزَّ في مصر قداشتدَّ نوعاً ما في سبيل الحصول على المال لأنَّ سياسته كانت ترمي إلى مواصلة الفتح في بلاد الشام، و طرد القرامطة منها، ثم المسير إلى العراق؛ فقد وضع نظاماً مالياً جديداً يتفق و سياستهم المذهبية. فعملوا على التقليل من قيمة النقد الذي كان يتداول في مصر، و عملوا على رفع قيمة النقود التي تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين. و ليس هذا وحده هو السبب بل أنَّ الحكومة الفاطمية قد لجأت ـ خشية أن تُصاب خزانة الدولة بالإفلاس و الفقر المالي ـ إلى احتكار بعض المعادن مثل : الشَّبِّ، و النطرون و بعض موادّ الصّباغة مثل : ثمار أشجار السَّنْط. ولأهمية هذا النوع من الاستغلال أنشأ الفاطميُّون ديواناً أطلقوا عليه اسم «ديوان المستغلّات»[٢].

قال تقيُّ الدين المقريزي: وأما الشَّبُّ، فإنَّ معادنَه بالصعيد و كانت عادة الديوان الإنفاقَ في تحصيل القنطار منه بالليثي يبلغ ثلاثين درهماً، و كانت العربان تُحضره من معادنه إلى ساحل إخميم و سَيوط و البَهْنَسَا، ليُحمل إلى الإسكندرية أيام النيل في الخليج، و يشترى بالقنطار الليثي، و يباع بالقنطار الجرويّ؛ فيباع منه على تجار الروم قدر اثني عشر ألف قنطار بالجرويّ بسعر أربعة دنانير، كل قنطار إلى ستَّة دنانير. و يباع منه بمصر على اللبوديين، و الصبّاغين نحو الثمانين قنطاراً بالجرويّ، سعر ستة دنانير و نصف قنطار. و لايقدر أحد على ابتياعه من العربان و لاغيرهم، فإن عثر على أحد أنّه اشترَى منه شيئاً أوباعه سوى الديوان، نكل به و استهلك ما وجد معه منه و قد بطل

---

١. الفاطميون في مصر / ١٨.

٢. الخطط المقريزية / ١١٠.

هذا.

و أما النطرون، فيوجد في البرّ الغربي من أرض مصر بناحية الطرانةو هو أحمرُ و أخضرُ؛ يوجد منه بالفاقوسية شيءٌ دون ما يوجد في الطرانة، و هو أيضاً مما حظر عليه ابن مدبر من الأشياء التي كانت مباحة و جعله في ديوان السلطان، و كان من بعده على ذلك إلى اليوم.

و قد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه في كلِّ سنة عشرة آلاف قنطار و يعطى الضمان منه في كلِّ سنةٍ قدر ثلاثين قنطاراً يتسلمونها من الطرانة؛ فتباع في مصر بالقنطار المصري و في بحر الشرق و الصعيد بالجروي، و في دمياط بالليثي. قال القاضي الفاضل: و باب النطرون كان مضموناً إلى آخر سنة خمس و ثمانين و خمسمائة (٥٨٥ هـ) بمبلغ خمسة عشر ألفاً و خمسمائة دينار، و حصل منه في سنة ست و ثمانين مبلغ سبعة آلاف و ثمانمائة دينار، و أدركنا النطرون أقطاعاً لعدة أجناد[١].

و ثمر شجر السنط، كان لايَتصرَّف فيه إلّا الديوان. و متى وجد منه مع أحد شيء اشتراه من غير الديوان نكل به و استهلك ما وجد معه منه. فإذا اجتمع أشجار النسط، أُقيم منه مراكب تباع و يؤخذ من ثمنها الرُّبعُ عند ما تصل إلى ساحل مصر، بعد ما تُقوَّم أوينادَى عليها، و كان فيها حيف كبير و قد بطل ذلك[٢].

و كذلك اهتمَّ الفاطميون في سبك النقود الّتي عدّها جوهر الصِقِلّيُّ و المعزّ مصدرَ ثراء دائم للدولة؛ و كانت عناية المعزّ بالدينار الذي يحمل اسمَهُ و اسمَ غيره من الفاطميين فائقةً حقاً؛ حتى أنّه كما ذكرنا نقَّص من قيم الدنانير

---

١. المصدر السابق / ١٠٩ـ ١١٠.

٢. المصدر السابق / ١١١.

الأخرى التي لاتحمل اسمَه؛ و أنشأوا في مدن مصر المختلفةِ دُوراً لضرب النقود. لقد كان هذا من أهمِّ مصادر الثروة الفاطمية.

و استحدث الفاطميون في عهد الحاكم بأمرالله ديواناً للإشراف على الأموال المصادَرة، أُطلق عليه اسم «الديوان المفرد» و كذلك اهتمّوا بالأوقاف فأنشأوا «ديوان الأحباس» و هو أشبه بوزارة الأوقاف عندنا اليوم[١].

إلى غير هذا من العوامل التي هيّأت للفاطميين تلك الثروة التي ظن الكثيرون أنها ثروة قارون التي لاتنفد؛ و بذلوها في سبيل رغبات الدولة و مراسيمها كالأعياد الدينية الرسمية. و على سبيل المثال لأهم مظاهر الثروة و الترف التي امتلأت خزائن الفاطميين في عهد المعزّ بالأموال، يرجع ذلك إلى النظام الماليِّ الدقيق الذي سنّه الفاطميون لاستغلال موارد الدولة و بذل تلك الأ موال الضخمة التي أنفقهاهذا الخليفة (المعز) في عام ٣٥١ هـ. حين عزم على ختان أبنائه: عبدالله و نزار و عقيل. فقد رأى أن يشرك رعيته في أفراحه، و حتم أن يقدّم الأهلون أبناءهم الصغار ليختتنوا و يأخذوا من الدولة كفاء ذلك مالاً معلوماً. و قد سار المعزّ على هذه السياسة في سائر بلاده و تدفّقت الأموال من مدينة المنصوريّة ـ حاضرة الفاطميين ـ إلى الولايات المختلفة ليقوم الولاةُ بدفع الهبات و الهدايا لآباء الصغار المختتنين.

و إذا دققنا النظر حولَ مقدار الكِسوة التي كان يعطيها المعزّ كلّاً من هؤلاء الأطفال و كانت تتراوح بين مائة و خمسين درهماً و مائتي درهم، و قد اختتن في مدينة المنصورية وحدها نحو ربع مليون من الصبيان، و بذالك ظهرت لنا ضخامة الأ موال التي أنفقها المعزّ في حاضرة خلافته و غيرها.

و قد وصف لنا تقيّ‌الدين المَقريزي وصفاً رائعاً لهذا الاختتانِ و قال : إنّه

---

١. المعزلدين الله / ١٧٥.

كان يختتن بحضرة المعزّ يومياً ـ ولمدّة شهر ـ عددٌ لايقِلُّ عن اثني عشر ألف صبيٍّ و فوقها و دونها؛ و ختن من أهل صِقِلّية وحدها خمسة عشر ألفَ صبيٍّ. و كان وزنُ خِرق الأكياس المفرغة مما أنفق في هذا الأعذار مائةً و سبعين قنطاراً بالبغداديّ، و كان من جملة المنفق في ذلك مما حمل إلى جزيرة صِقِلِّيَّة وحدها من المال ـ سوى الخلع و الثياب ـ خمسون جِملاً من الدنانير كلُّ حمل عشرة آلاف دينار، و مثل ذلك إلى كل عامل من عُمّال مملكته ليفرقه على أهل عمله[١].

و مما يدلُّ على ضخامة هذه الأموال و الثروة الفاطمية تلك النقود التي أُنفقت دون إقامة الاحتفالات بالأعياد الرَّسميَّة و الشعبية، و قد كانت في عهد هذه الدولة كثيرةً جداً؛ حتّى أنَّ الباحث ليعجب من نظام هذه الأعياد و كثرتها. و قد ذكر المقريزي و ابنُ ميسر و القضاعي و المسبّحي، و من تبعهم من المؤرخين المعاصرين لهم و المتأخرين، ثمانية و عشرين عيداً في كل عام؛ منها: عيد رأس السَّنة، و مولد النَّبيّ الأعظم ـ صلّى الله عليه و آله و سلّم ـ و مولد الإمام علي بن أبي‌طالب، و مولد الإمام الحسن، و مولد الإمام الحسين بن علي، و مولد فاطمة الزهراء، و مولد الخليفة الفاطميّ الحاضر، و ليلة أول رجب، و ليلة النصف منه، و ليلة أول شعبان، و ليلة نصفه، و غرة رمضان، و الجمعة الأخيرة منه، و موسم عيد الفطر، و موسم عيد النحر، و عيد الغدير، و كسوة الشتاء، و كسوة الصيف، و موسم فتح الخليج، و يوم النيروز، و يوم الميلاد، و يوم خميس العهد، و موسم وفاء النيل[٢].

فهٰذه الأعياد مما أجمع المؤرّخون على أنّ الخلافة الفاطميّة كانت تحتفل

---

١. إتّعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا/ ١٣٦.

٢. الخطط المقريزية ١/ ٤٩٠.

بها احتفالاً رائعاً و في فيض من الروعة و البهاء و البذخ. و مهما تكن الأعياد و الاحتفالات بها من شيء فإنّما تدلّ هذه الفكرة على سياسة دينية دقيقة، و هي كما ذكره بعضهم من أنَّ الفاطميين عملوا بهاالأجل كسب احترام رعاياهم و توجيه أنظارهم نحو الدولة؛ كما ساروا على هذه السياسة في بلاد المغرب، و غالى خلفاؤهم في مصر في إقامة الحفلات و نظمها التي طبعوها بطابع خاص، و أقاموا المناظر و بخاصَّة في أنحاء القاهرة. فكان المعزّ و من أتى بعدَه من الخلفاء يَحتفلون بصلاة الجمعة ـ على مارأينا ـ و صلاة العِيدين، و توديع الحملات الحربية؛ و كما كانوا يحتفلون بيوم عاشورا، و مولد بعض أئمّتهم مثل: عليٍّ بن أبي‌طالب، و فاطمةَ الزهراء ابنةِ الرسول و زوجة عليٍّ، و مولد الحسن و الحسين عليه‌السّلام؛ كما كانوا يحتفلون أيضاً ببعض الأعياد الأُخرى الَّتي تُميّزهم عن السُّنّيّين مثل: عيد الغدير و مولد الخليفة القائم بالأمر. و كانوا يحتفلون كذلك بأعياد أُخرى من ليلة أوَّل رجب، و ليلة نصف رجب، و ليلة أول شعبان، و ليلة نصف شعبان، و بعيد غُرَّة رمضان. و كانوا يشاركون الأهليين في بعض الاحتفال ببعض أعيادهم «الشَّعبية» مثل: عيد فتح الخليج، و عيد النيروز. و شاركوا القِبط في الاحتفال بيوم الغطاس، و خميس العهد و غيرها[١].

---

١. و في رواية: موسم فتح الخليج، فكانت لهم فيه وجوهٌ من البِرّ، منها الركوب لتخليق المقياس، و مبيت القُرّاء بجامع المقياس، و تشريف ابن أبي الردّاد بالخِلع و غيرها، و ركوب الخليفة إلى فتح الخليج، و تفرقة الرسوم على أرباب الدولة من الكسوة والعين و المآكل والتُّحف.

و عيد النوروز. هوأول السنة الشمسية الفارسية (شهر فروردين) و فيه كانت تخرج الناس بكافَّة الوزراء و الشيوخ و الحواشي و المستخدمين و رؤساء العشاريات و بحارتها، فتتعطل فيه الأسواقُ ثلاثةَ أيام و ينصرف الجميعُ إلى المنتزهات، و تفرق فيه الكسوةُ لرجال أهل الدولة و أولادهم و نسائهم و الرسوم من المال و حوائج النوروز.

←

و نلاحظ على هذه الأعياد أُموراً منها :

أنَّ المعزّ، كان أول من مهّد لهذه الأعياد في مصر و عمل على ترويجها و الدعوة إليها بإقامة الولائم الفخمة. فكان يُقيم الأسمطةَ في قصور الخلافة و في المساجد، ثم حذا خلفاؤه حذوه فكانوا يقيمون الأسمطة في قاعة الذهب بالقصر الكبير طوالَ شهرِ رمضان و أيام العيدين؛ و كانت هذه الأسمطة آيةً في الروعة و الجلال. و كان يُدعى إليها قاضي القضاة و كبار القوّاد الموظّفين و يمثّلُ الخليفة فيها الوزير غالباً كما كانت الدولة تنفق عليها أموالاً طائلة مما يدل على وفرة ثروة مصر في عهد الفاطميين[١].

و كان الفاطميون يتّخذون هذه الأعياد وسيلةً لجذب الرعايا إليهم لذلك شارك المعزُّ حتى القبطَ في الاحتفال بعيد «خميس العهد» و عيد «يوم الغطاس»

←

و يوم الغطاس، من مواسم النَّصارى بمصر في اليوم الحادي عشر من طوبة. قال المسعودي في مروج الذهب: و لليلةِ الغطاس بمصر شأنٌ عظيم عند أهلها لاينام الناس فيها؛ و لقد حضرتُ سنة ثلاثين و ثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر. و قد أُسرج من جانب الجزيرة و جانب الفسطاط ألفُ مشعل، غيرما أُسرج أهل مصر من المشاعل و الشمع؛ و قد حضرالنيل في تلك الليلةَ مئوآلوف من الناس من المسلمين و النَّصارى منهم في الزواريق و منهم في الدور الدانية من النيل و منهم على الشطوط، لايتناكرون كل ما يمكنهم إظهارُه من المآكل و المشارب و آلات الذهب و الفضّة و الجواهرو الملاهي و العزف و القصف؛ و هي أحسن ليلة تكون بمصر و أشملها سروراً، و يحضر الرهبان و القسوس بالصلبان و النيران فيقسسوا هناك طويلا إلى أن يغطسوا.

و خميس العهد، و يسميه أهل مصر من العامة خميس العدس، و يعملُه نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام و يتهادون فيه. و كان من جملة رسوم الدولة الفاطمية في خميس العدس، ضرب خمسمائة دينار ذهباً عشرة آلاف خرُوبة و تفرقتها على جميع أرباب الرسوم.

الخطط المقريزية ١/٤٩٣ـ ٤٩٥. مروج الذهب ١/٣٤٣.

١. ذهب المؤرخون أن نفقة سماطيْ عيد الفطر و النحر كانت ٤٠٠٠ ديناراً، و بلغ ما أُنفق في عيد النحر عام ٥٤٥ هـ.. ٤٣٧٠ ديناراً غير ما ذبح في أيام العيد؛ كما كانت سماط شهر رمضان فقط تقدر ٣٠٠٠ ديناراً. و قس على هذا نفقات الحفلات و المواسم الأُخرى.

و «عيد الميلاد» و غيرها. و قد نهج أبناؤه و أحفاده نهجَه في ذلك، و لكن حقاً لم ينل عيد النيروز من تقدير المعزّ ماناله على يد الخلفاء الفاطميين الذي تولّوا الخلافة من بعده، فقد أمر هذا الخليفة في سنة ٣٦٢ هـ.، بمنع الاحتفال بعيد النوروز؛ و شهر بكلّ من حدثته نفسه بالابتهاج بلياليه. و إنما فعل المعزّ ذلك لما كان يصحب هذا العيد من عادات خلقية لم تنل رضا هذا الخليفة؛ فقد كان الفساد و الخلاعة يقترنان به كما يتبيّن ذلك مما أورده المَقريزي في خِططه نقلاً عن ابن زولاق حيث يقول عند كلامه على حوادث سنة ٣٦٣ هـ. : منع أمير المؤمنين المعزّلدين اللّه من وقود النيران ليلة النيروز في السكك و من صبّ الماء يوم النوروز.

و يقول في حوادث سنه ٣٦٤ هـ. : «و في يوم النوروز زاد اللّعب بالماء و وقودُ النّيران وطاف أهل الأسواق و عملوا فيلة و خرجوا إلى القاهرة بلعبهم، و لعبوا ثلاثة أيام و أظهروا السماجات و الحلي في الأسواق؛ ثم أمر المعزّ بالنداء بالكف و أن لاتوقد نار و لا يُصَبَّ ماءٌ؛ و أُخذ قوم فحُبسوا، و أُخذ قومٌ فطيف بهم على الجِمال».

و ليس معنى ذلك أنَّ المعزّ، كان في وجه رعاياه و إنَّما كان يعمل على حفظ الأمن و بسط الطُّمأنَةِ و انتشار السلام و المحافظة على الآداب و العلم و الفضيلة بعد أن كان عيد النوروز من أهمّ أعياد الفاطميين؛ مع العلم أنَّ عيد النوروز في أيامهم كان من جملة المواسم، فتتعطَّل فيه الأسواق و يقلُّ فيه سعي الناس في الطرقات و تفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة و أولادهم و نسائهم و الرسوم من المال و حوائج النوروز.

قال ابن ميسر في حوادث سنة ست عشرة و خمسمائة (٥١٦ هـ.): « و فيها أراد الآمر بأحكام اللّه أن يحضر إلى دار الملك في النوروز الكائن في جمادي الآخرة في المراكب على ما كان عليه الأفضل ابن أمير الجيوش، فأعاد

المأمون عليه أنه لايمكن، فإن الأفضل لايجري مجراه مجرى الخليفة. و حمل إليه من الثياب الفاخرة برسم النوروز للجهات ماله قيمةٌ جليلةٌ.

و قال ابن المأمون: و حلّ موسم النوروز في التاسع من رجب سنة سبع عشرة و خمسمائة (٥١٧ هـ.) و وصلت الكسوة المختصَّة به من الطراز و ثغر الإسكندرية، مع مايبتاع من المذابّ المذهبّة و الحريري، و السوادج؛ و أطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية و النسائية و العين و الورق و جميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها، بتفصيلها و أسماء أربابها، و أصناف النوروز: البِطِّيخ و الرمان و عراجين الموز و أفراد البسر و أقفاص التمر القوصيّ و أقفاص السَّفرجَل و بكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج و لحم الضأن و لحم البقر من كل لون بكلة مع خبز برّ مارق.

قال: و أحضر كاتب الدفتر الأنبانات بماجرت العادة به من إطلاق العين و الورق و الكسوات على اختلافها في يوم النوروز، و غير ذلك من جميع الأصناف و هو أربعة آلاف دينار و خمسة عشر ألف درهم فضة. و الكسوات عدّة كثيرة من شقق ديبقي مذهبات و حريريات و معاجر و عصائب مشاومات ملوّنات و شقق لاذ مذهّب و حريري و مشفع و فوط ديبقي حريري فأما العين و الورق و الكسوات فذلك لايخرج عمن تحوزه القصور و دار الوزارة و الشيوخ و الأصحاب و الحواشي و المستخدمون و رؤساء العشاريات و بحارتها و لم يكن لأحد من الأُمراء على اختلاف درجاتهم في ذلك نصيب.

و أما الأصناف من البطِّيخ و الرُّمَّان و البسر و التمر و السفرجل و العنّاب و الهرائس على اختلافها، فيشمل ذلك جميع من تقدم ذكرهم، و

يشركهم في ذلك جميع الأمراء أربابُ الأطواق و الأقصاب و ساير الأماثل[١].»

و مما يدلُّ على أنّ المعزّ، كان يتّخذ من الأعياد وسيلةً لجذب رعاياه إليه تلك الجهود التي كان يبذلها لإحياء بعض الأعياد القومية: مثل عيد جبر الخليج، فقد سنّ المعزّ لخلفائه من بعده سنّةَ التودّد إلى المصريين في ذلك اليوم؛ فكان الفاطميون ينفقون الأموال الجزيلة للاحتفال به فتُعطَّلُ دواوينُ الحكومة و تحتفل به الدولة احتفالاً رسمياً.

أضِف إلى ذلك أنّ المعزّ ـ و بقيّةَ الخلفاء من بعده ـ كان يشترك مع رعاياه في الاحتفال بعيد رأسِ السنة الهجرية و مولدالنبيِّ ـصلّى الله عليه وآله وسلّم ـ و ليلةِ أول رجب و نصفه و أولِ شعبان و نصفه و موسم غرة رمضان، حتّى لايُثير نفوسَ السُّنِّيّين، و يقرّبَ مسافة الخلف بين المبادئ السّنّيّة و العقائد الشيعية[٢].

و لا يخفى أنّ الفاطميين، لم يشاركوا الشّعب في أعيادهم و لم يذبوا دون إقامتها مادّياً فقط، و إنما كان البعض منهم يشارك الشّعبَ عامة و الشعراء بصورة خاصة أدبياً يُلقي عليهم ماتجود به قريحتهم الخصبة؛ و منهم الأمير تميم ابن المعزّ الفاطمي[٣] فقد كان يشارك المصريين لهوهم و يخرج إلى منتزهاتهم و يعبث مثلهم في أدتها. و قد أنشد في ذلك كلّه شعراً و مدح أخاه ـ الإمام العزيز باللّه ـ بقصائد عدّة، منها قوله يمدحه في عيدٍ من الأعياد الدينية و أولها:

للعيد في كل عامٍ　　يومٌ يعيد سناهْ
و أنت في كل يوم　　عيد يلوح علاهْ

---

١. الخطط المقريزية ٤٩٣/١.

٢. المعزلدين اللّه / ٢٨٤ـ٢٨٧.

٣. يأتي الحديث عنه في فصل « عيدالغدير و شعراء الفاطمية ».

و نـــعمةٌ و ســـعود   للـــمعتفين و جـاهْ
يا من تُصلّي المعالي   إليـــه حـــين تـراهْ
و من يـبرّ اليـتامَى   من كل خلق سـواهْ
لو كان للفضل يوماً   مــني لكـنت مـناهْ
لأنّ منك استعار الزّ   مان حسنَ حـلاهْ[1]

وهنَّى أخاه بعيد من الأعياد الدينية أيضاً بقصيدة أولها قوله:

رأيت مـــعدّاً كـــالحسين و إنمـا   تطول على المولود إن أنجب الجـدُّ
تــعرّب فـــهماً مـــثلما ذاب رقّـة   و ظرفاً فما في وصف كـنهِ له حـدُّ
بـه يشـتفي السـمع الأصمُّ بـلفظه   و تشفي برؤيا و جهه الأعيُن الرُّمدُ
كأنّ ضـــياء الشـمس ردّاهُ نـورُه   و أهدى إليـه قـلبه الأسـد الوردُ
و ليس يبالي أن يـروح و يـغتدي   من المال صفراً حين يصبوله الجدُ[2]

و الخلاصة أنّ الفاطميين كانوا من الحذق و المهارة، بحيث استطاعوا أن يلفتوا إليهم نظرَ الشعب المصري، و أن ينشروا مباديَ المذهب الإسماعيلي لغة و نشراً قويّين، و أن يُشعروا العالم بعظمة الحكم الفاطمي. و قد كانت الأعياد من العوامل القوية التي اعتمد عليها الفاطميّون للوصول إلى أغراضهم السياسيّة و المذهبية، بما أظهروه يومئذ من العناية العظمى بالمواسم العامة فزادوا في بهجة الرعية، و تودّدوا إليها و ملأوا أفواه زعمائها و شعرائها و سادتها و كموها، و منحوهم أثمنَ الفُرص و طوّقوا رقابهم بعواطفهم و إحسانهم لإظهار سرورهم و بهجتهم بها و حدبهم عليها. و إنّ شعر شعراء الفاطميين يدلّنا بوضوح على هذا المعنى، و هو أنّ كلَّ الممدوحين منهم عند الشعراء كانوا يوصَفون بالجود و

---

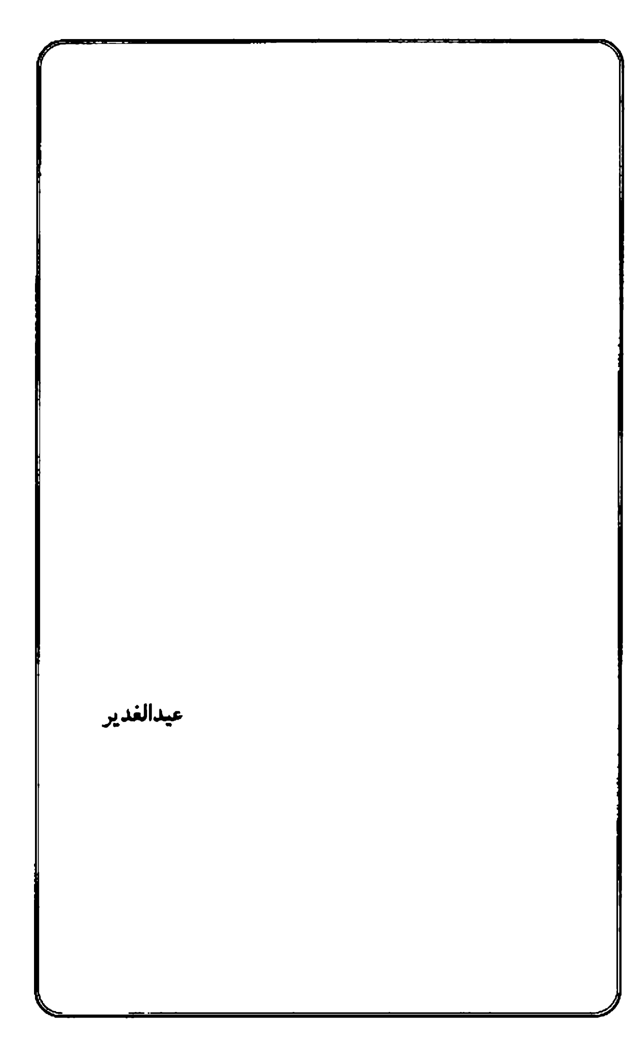
١. في أدب مصر الفاطمية /١٦٣. ديوان تميم بن المعز، ط مصر /٢٤.

٢. ديوان تميم /٤٢.

الشَّجاعة و أصالةِ الرأي إلى غير ذلك من الصـفات التي اعـتاد الشـعراء أن يذكروها. و لذلك أن القائمين على شؤون البلاد كانوا قد اتَّخـذوا مـن الشـعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ماتتخذ الأحزاب السياسية اليومَ بعضَ الصحف و أبواق الدعاية آلة لتعبِّرَ عن اتّجاه هذه الأحزاب و آرائها.

و مهما يكن من شيء فإن الفاطميين، عـرفوا قـدر الدعـاية و أثـرها فاهتمّوا بها أيّما اهتمام، و اصطفَوا كلَّ ما يفيدهم في دعوتهم من علماء و أُدباء و شعراء؛ فأسرفوا دون ذلك و أغدقوهم من مال و رقيق و متاع، حـتى كـان بعض الشعراء من الثراء و الغنى على حظّ يحسدهم عليه العـباسيون في أوج مجدهم و سعة سلطانهم.

و خاتمة القول أنَّ هذه الأعياد التي قد زخر بها عهدُ الفاطميين ـ دون نشر خصايص المذهب الإسماعيلي و عقائده نفسها ـ كانت جزءً هامّاً من برامج الدعاية السياسية التي فطنت لها الخلافة الفاطمية، و نجحت نجاحاً لامثيل له في تاريخ بقية الدول الإسلامية الحاكمة في تاريخ الإسلام.



عيد الغدير

لسنا بحاجة إلى كثير شرح عن حفلات الفاطميّة الرّسمية و الشعبية؛ فالذي ذكرناه آنفاً يدلّنا بوضوح على ذلك الفيض الفاطمي: من البذخ و الترف و البهاء الذي مرّ على التاريخ مرّ الكرام، وظلّت الأُمّة الإسلامية تتنعّم زهاء قرنين بتلكم الرسوم الفخمة و المآدب الشهيرة، و البذل المأثور في المراسيم العامة، و الأعياد الدينية في تلك الأيام؛ و التي كانت تثير من حولها إجلالا أيّما إجلال، و روعة مافوقها روعة. و قد كانت أيامها و لياليها الساطعة منار البهجة و المرحِ العام؛ و كان بعض هذه الأعياد يجنح إلى نوع من الفخامة، و يتشح بأثواب من الرونق و البهاء، ك«عيد الغدير». و كان ذلك كله يرجع في الأغلب إلى أثر الدولة الفاطمية في بثّ هذه الروحِ و البهجة الباذخة إلى كثير من نواحي العامة و الخاصة في مصر الإسلاميةِ[1].

و إنّ المؤرخين ـ على اختلاف نِحلهم و مِللهم ـ من المعاصرين للدولة الفاطمية و الذين حضروا هذه المواكب و الحفلات، نجدهم معجبين بتلك المهرجانات؛ كما أن القارئ للتاريخ يجد تلك الصُّوَر الرائعة التي يصفها

---

١. الحاكم بامرالله /٢١٩.

المؤرخون أمثال: ابن زولاق[١]، و المَسبّحي[٢]، و ابن الطوير[٣]، و ابن المأمون[٤]، و

---

١. ابو محمّد الحسن بن ابراهيم بن الحسين بن الحسن بن عليّ بن خالد بن راشد بن عبدالله بن سليمان بن زُولاق الليثي المصري ٣٠٦_٣٨٧هـ.

المؤرخ الفاضل المتتبع، كان من أعيان علماء أهل مصر و وجوه أهل العلم، محدث سمع من جمع كثير، ولي المظالم في أيام الفاطمية، و كان يُظهر التشيع للفاطميين، و كان جده الحسنُ بن علي من العلماء المشاهير، مات سنة ٣٨٧.

له من التآليف: فضائل مصر. سيرة كافور. سيرة المعزّ. خطط مصر. أخبار قضاة مصر. سيرة العزيز. التاريخ الكبير على السنين.

أعيان الشيعة ١٦٢/٢٠. البداية و النهاية ٣٢١/١١. تاريخ أبي الفداء ١٤٠/٢. حسن المحاضرة ٣١٩/١. الكنى و الألقاب ٢٩٨/١. لسان الميزان ١٩١/٢. معجم الأدباء ٢٢٥/٧. وفيات الأعيان ١٦٧/١.

٢. عزالملك المختار محمد بن عبيدالله بن أحمد بن إسماعيل بن عبدالعزيز المُسبّحي الحراني المصري ٣٦٦ ـ ٤٢٠هـ.

فقيه مؤرخ، أديب شاعر كاتب متتبع، فلكي من الأمراء، و كان على زي الأجناد، نشأ بمصر و اتّصل بخدمة الحاكم بن العزيز الفاطمي، و حظِي عنده، و كانت له مجالس و محاضرات، و قلده البهنَسا ثم ولاه ديوان الترتيب، مات بمصر في ربيع الآخر ٤٢٠هـ.

من تصانيفه: تاريخ مصر و مَن حلّ بها من الولاة و الأُمراء و الأئمة و الخلفاء، و ما بها من العجائب و الأبنية و ذكر نيلها و أحوال من حلّ بها، في اثني عشر مجلداً. التلويح و التصريح في معاني الشعر و غيره في ثلاث مجلدات. الأمثلة للدول المقبلة في الحساب و النجوم. ديوان شعر.

الأعلام ١٤٠/٧. حسن المحاضرة ٢٤٨/١. الذريعة ٣٤٧/٢. روضات الجنات ٣٤٨/٧. شذرات الذهب ٢١٦/٣. العبر في خبر من غبر ٢٤١/٢. الكامل في التاريخ ٣٤٤/٧. مرآة الجنان ٣٦/٣. معجم المؤلفين ٢٧٦/١٠. النجوم الزاهرة ٢٧١/٤. الوافي بالوفيات 7/4. وفيات الأعيان ٦٥٣/١.

٣. ابن الطوير، لم أقف على ترجمته رغم البحث والتتبع، و لعلّه جاء في معاجم التراجم بغير هذا اللقب، و له كتاب «كنزالدرر» و هو من أهمّ مراجع تقي الدين المقريزي المتوفى ٨٤٥هـ. .و ينقل عنه كثيرا في خططه، و هو في الخلفاء الفاطميين، و يضم تاريخهم بصورة عامة.

٤. الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون أبي عبد الله محمّد بن فاتك بن مختار البطائحي.

←

المقريزي[١]، باهرة مبتهجة؛ كما أن كل فرد من الفاطميين الخلفاء، لم يكن يترك تلك الأعياد و المراسيم في أيّ ظرف و زمان، بل كانوا يهتمُّون بها اهتماماً بالغاً. فعصر الحاكم بأمر اللّه الفاطمي مثلاً ـ رغم الاحتدامات العنيفة و التطورات السياسية، و المخالفات المذهبية، والاضطرابات في أوضاع الحياة الاجتماعية ـ كان يقيم بمناسبة حلول الأعياد حفلات ساهرة، و مآدب خيرية؛ فتبدو القاهرة بأسرها في جنح ظلام الليل، شعلة مضيئة تضطرم جنباتها بحياة السمر واللهو، من كل ضرب و نوع؛ و هذه المراسيم كانت قائمة على قدم و ساق عند أوانها منذ بدْء الدولة و استقرارها في مصر إلى انقراضها، و الشعب يستقبل الأعياد بقلب كلّه فرح تغمره السعةُ و المرح.

و اهتمامُ الفاطميين بعيد الغدير و عنايتهم به دون ساير الأعياد، قد كان أكثر و أكثر سيما في عهد المعزّلدين اللّه معدّ بن العزيز باللّه نزار، و الفائز بن الظافر بأمر اللّه و غيرهم من خلفاء الفاطمية؛ و لهذا عيّنوا للاحتفال بهذا العيد

←

مؤرخ له كتاب عن تاريخ الفاطميين بصورة عامة، و أحسبه كان يعيش في مابينهم، و كان واقفا على جميع حالاتهم، له كتاب «الذخائر و التحف» و هو من أهمّ مَراجع تقي الدين المقريزي، و ينقل عنه كثيرا و بصورة وافية في كتابه «المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار» المعروف بالخطط المقريزية.

١. تقيُّ الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد بن إبراهيم بن محمّد بن تميم بن عبد الصمد المقريزي البعلبكي الحنفي المصري العبيدي الحسيني ٧٦٩ ـ ٨٤٥هـ.

مؤرخ متتبع، محدّث مشارك في بعض العلوم، ولد بالقاهرة و نشأبها، و تفقه على مذهب أبي حنيفة، واشتغل بالعلوم التي كانت معروفة في عصره، و ولي حِسبةالقاهرة، و نظم و نثر، وألّف كتباً كثيرة، حتى قيل: إنّهازادت على مائتي مجلد، و أن شيوخه بلغت ستمائة نفس، مات في القاهرة ١٦ رمضان ٨٤٥هـ.

من كتبه: المواعظ و الاعتبار بذكر الخِطط و الآثار. درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة. مجمع الفوائد و منبع الفوائد. إتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا. السلوك في معرفة دول الملوك.

الأعلام ١٧٢/١. حسن المحاضرة ٣٢١/١. شذرات الذهب ٢٥٥/٧. الضوء اللامع ٢١/٢. الكنى و الألقاب ٢٠٤/٣. معجم المؤلفين ١١/٢. معجم المطبوعات العربية ١٧٧٨/.

و أمثاله إحدى قاعات البلاط الملكي؛ و سمّيت «قاعة الذهب»[١] و سنّوا له مراسيمَ و قوانين كإحيائهم ليلته بالصلاةِ، و الصلاة في صبيحته ركعتين قبل الزّوال، و لبس الجديد و عتق الرقاب، و عمل البرّ. و قد ذكر المقريزي المؤرخ المعاصر لهم، نقلاً عن المسبّحي المعاصر للفتح الفاطمي في مصر، وصفاً رائعاً ليوم الغدير بعد أن حضر بنفسه الحفلات الغديرية في القاهرة، و شاركهم فيها عندهم.

قال مانصُّه: و في يوم الغدير ـ و هو ثامن عشر ذي الحجة ـ اجتمع الناس بجامع القاهرة و القرّاء و الفقهاء و المنشدون في مراتبهم؛ فكان جمعاً عظيماً، أقاموا فيه إلى الظهر ثم خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجوائز[٢].

و نقل أيضاً في كتابه عن المؤرخ ابن الطوير، مشهداً دقيقاً آخر للمراسيم المسنَّنة عندهم في شأن «عيد الغدير» عند مختلف الطبقات؛ قال: إذا كان العشر الأوسط من ذي الحجة اهتمّ الأُمراء و الأجناد، بركوب «عيد الغدير» و هو في الثامن عشر منه و فيه خطبة، و ركوب الخليفة بغير مظلّة و لاسمة و لاخروج عن القاهرة، و لايخرج لأحد شيء؛ فإذا كان ذلك اليوم ركب الوزير بالاستدعاء الجاري به العادة فيدخل القصر و في دخوله بروز الخليفة لركوبه من الكرسي على عادته. فيخدم و يخرج و يركب من مكانه من الدهليز، و يخرج فيقف قبالة باب القصر و يكون ظهره إلىدار فخرالدين جهاركس اليوم؛ ثم يخرج الخليفة راكباً أيضاً فيقف في الباب و يقال له «القوس» و حواليه

---

١. قاعة الذهب، و يقال له: قصر الذهب، و هو أحد قاعات القصر الذي هو قصر المعزلدين اللّه معد، بناه العزيز باللّه نزار بن المعز، و كان يدخل إليه من باب الذهب الذي كان مقابلا للدار القطبية، و يدخل إليه أيضاً من باب البحر، و جدَّد هذا القصر من بعد العزيز، الخليفة المستنصر سنة ثمان و عشرين و أربعمائة (٤٢٨هـ) و بهذه القاعة كانت الخلفاء تجلس في الموكب يوم الإثنين و يوم الخميس، و بها كان يعمل سماط شهر رمضان للأُمراء، و سماط العيدين، و بها كان سرير الملك. الخطط المقريزية ٣٨٥/١.

٢. الخطط المقريزية ٣٨٩/١.

الأستاذون المحنّكون رجالة و من الأُمراء المطوّقين من يأمره الوزير بإشارة خدمة الخليفة على خدمته، ثم يجوز زيّ كلّ من له زيّ على مقدار همّته.

فأوّل مايجوز زيّ الخليفة و هو الظاهر في ركوبه فتجد الجنائب الخاص التي قدّمنا ذكرها أولاً، ثم زيّ الأمراء المطوّقين لأنهم غلمانه واحداً فواحداً بعددهم و أسلحتهم و جنائبهم إلى آخر أرباب القصب و العماريات؛ ثم طوائف العسكر أزمّتها أمامها و أولادهم مكانهم. لأنهم في خدمة الخليفة وقوف بالباب طائفة طائفة. فيكونون أكثر عدداً من خمسة آلاف فارِس؛ ثم المترجّلة الرّماة بالقسيّ بالأيدي و الأرجل و تكون عدّتهم قريباً من سبعة آلاف كل منهم بزمام و بنود ورايات و غيرها بترتيب مليح مستحسن.

ثم يأتي زيّ الوزير مع ولده أو أحد أقاربه و فيه جماعته و حاشيته في جمع عظيم و هيأةٍ هائلة؛ ثم زيّ صاحب الباب و هم أصحابه و أجناده و نوّاب الباب و ساير الحجّاب؛ ثم يأتي زيّ اسفهسلار العساكر بأصحابه و أجناده في عدّة وافرة، ثم يأتي زيّ والي القاهرة و زيّ والي مصر؛ فإذا فرغا خرج الخليفة من الباب و الوقوف بين يديه مشاة في ركابه خارجاً عن صبيان ركابه الخاص، فإذا وصل إلى باب الزهومة بالقصر انعطف على يساره داخلاً من الدرب هناك جائزاً على الخوخ؛ فإذا وصل إلى باب الديلم الذي داخله المشهد الحسيني، فيجد في دهليز ذلك الباب قاضي القضاة و الشهود. فإذا وازاهم خرجوا للخدمة والسّلام عليه. فيسلّم القاضي كما ذكرنا من تقبيل رِجله الواحدة التي تليه و الشهود أمام رأس الدابة بمقدار قصبة؛ ثم يعودون و يدخلون من ذلك الدهليز إلى الأيوان الكبير، و قد علّق عليه الستور القرقوبيه جميعه على سعته، و غير القرقوبية ستراً فستراً. ثم يعلّق بدائره على سعته ثلاثة صفوف: الأوسط طوارق فارسيّات مدهونة، و الأعلى و الأسفل درق؛ و قد نصب فيه كرسيّ الدعوة و فيه تسع درجات لخطابة الخطيب في هذا العيد.

فيجلس القاضي و الشهود تحته و العالم من الأمراء و الأجناد و المتشيّعين و من يرى هذا الرأي من الأكابر و الأصاغر، فيدخل الخليفة من باب العيد إلى الأيوان إلى باب الملك فيجلس بالشُّبَّاك و هو ينظر القوم، و يخدمه الوزير عند ما ينزل، و يأتي هو و من معه فيجلس بمفرده على يسار منبر الخطيب. و يكون قد سير لخطيبه بدلة حرير يخطب فيها و ثلاثون ديناراً و يدفع له كرّاس محرّر من ديوان الإنشاء يتضمَّن نصّ الخلافة من النبي ـ صلى الله عليه [وآله] وسلم ـ إلى أمير المؤمنين عليٍّ بن ابي‌طالب ـ كرم الله وجهه و رضي عنه ـ بزعمهم[1]. فإذا فرغ و نزل صلّى قاضي القضاة بالناس ركعتين، فإذا قُضيت الصلاة قام الوزير إلى الشبّاك فيخدم الخليفة و ينفض الناس بعد التهاني من الإسماعيلية بعضهم بعضاً و هو عندهم (عيدالغدير) أعظم من عيد النّحر، و ينحر فيه أكثرهم[2].

و يذكر المقريزي غير هذين الوصفين، وصفاً ثالثاً لعيدالغدير نقلاً عن المؤرّخ ابن البطايحي قال مانصُّه: واستهل «عيدالغدير» يعني من سنة ست عشرة و خمسمائة، و هاجر إلى باب الأجل يعني الوزير المأمون البطايحي، الضعفاء و المساكين من البلاد و من انضمّ إليهم من العوالي و الأدوان على عادتهم في طلب الحلال و تزويج الأيامَى؛ و صار موسماً يرصده كلُّ أحد و يرتقبه كلّ غنيٍّ و فقير؛ فجرى في معروفه على رسمه، و بالغ الشعراءُ في مدحه بذلك و وصلت كسوة العيد المذكور (الغدير) فحمل مايختصّ بالخليفة و الوزير، و أمر بتفرقة ما يختصّ بأزمَّةِ العساكر، فارسها و راجلها من عين و كسوة؛ و مبلغ مايختصّ بهم من العين سبعمائة و تسعون ديناراً، و من الكسوات مائة و

---

١. كأنّ المقريزي بعد هذه كلّه، لم يوافق الفاطمية بل الطائفة المسلمة جمعاً على نصّ النبيّ ـ صلّى اللّه عليه و آله و سلم ـ بالخلافة لعليّ بن أبي‌طالب ـ عليه‌السلام ـ في يوم غدير خم، بعد أن تسالمت الأُمّة و أجمعت على صحّتها و نصّها كافّةُ الفِرق الإسلامية.

٢. الخطط المقريزية ٣٨٩/١.

أربع و أربعون قطعة، و الهيأة المختصة بهذا العيد برسم كبراء الدولة و شيوخها و أمرائها و ضيوفها، و الأُستاذين المحنّكين و المميزين منهم خارجاً عن أولاد الوزير وإخوته. و يفرَّق من مال الوزير بعد الخلع عليه ألفان و خمسمائة دينار و ثمانون ديناراً. و أمر بتعليق جميع أبواب القصور و تفرقة المؤذّنين بالجوامع و المساجد عليها، و تقدّم بأن تكون الأسمطة بقاعة الذهب[١].

ثم ذكر المقريزي أيضاً في خططه، تحت عنوان: ذكر الأيام التي كان الخلفاء الفاطميين يتخذونها أعياداً و مواسمَ تتّسع بها أحوال الرعية و تكثير نعمهم، عيدالغدير من تلك المواسم و الأعياد فقال: و فيه تزويج الأيامَى و فيه الكسوة و تفرقة الهبات لكبراء الدولة و رؤسائها و شيوخها و أُمرائها وضيوفها و الأُستاذين المحنَّكين و المميزين؛ و فيه النحر أيضاً، و تفرقة النحائر على أرباب الرسوم و عتق الرقاب، و غير ذلك كما سبق بيانه فيما تقدم[٢].

فهٰذه أوصاف إن دلّت على شيء، فإنّما تدلُّ على أن «عيدالغدير» كان من الأعياد الحكومية و الشعبية، و يشترك فيه جميع الطبقات بأسرهم.

و للقَلقشندي[٣] في الموضوع هذا كلمة تنبئ أن عيدالغدير فضلاً على تلك المراسيم، و أنّه عيدٌ كساير الأعياد المذهبية، كان يوماً خاصاً لاستعراض

---

١. الخطط المقريزية ٣٩٠/١.

٢. نفس المصدر ٤٩٢/١.

٣. ابوالعباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله المصري الشافعي ٧٥٦ـ٨٢١هـ.

أديب، فقيه قوي الحافظة، كثير التأليف، كتب في الإنشاء، و ناب في الحكم، مات في جُمادَى الآخرة. من تأليفه: صبح الأعشى في قوانين الإنشاء. عناية الارب في معرفة قبائل العرب. حلية الفضل و زينة الكرم في المفاخرة بين السيف و القلم. ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر.

الأعلام ١٧٢/١. إنباء الغمر بأبناء العمر ١٧٨/٣. إيضاح المكنون ٤٢١/١. شذرات الذهب ١٤٩/٧. الضوء اللامع ٨/٢. الكنى و الألقاب ٨٠/٣. معجم المؤلفين ٣٧١/١. هدية الأحباب /٢٢١. هدية العارفين ١٢٢/١.

الجنود و تفتيش الحرس. قال عند ذكره أبوابَ قصر الذهب في القاهرة: ثم استجدّ المأمون ابن البطايحي وزير الآمر بأحكام اللّه أبوعلي المنصور، تحت القوس الذي بين باب الذهب و باب البحر ثلاث مناظر، و سمّى إحداها الزاهرة و الثانية العافرة و الثالثة الناضرة. و كان الآمر يجلس فيها لعرض العساكر في عيدالغدير، والوزير واقفٌ في قوس باب الذهب[1].

والذي يعلم بوضوح أن كثيراً ماكان الاحتفال بالأعياد الدينية من الأسباب التي استطاع الفاطميُّونَ بها محاربة العباسيين في القطر المصري مشفوعة إلى غير ذلك من العوامل التي تضعف شأن العباسيين عند الشعب عامّة.

و يمكن القول أنّ الاحتفال بعيدالغدير يُعتبر من تلك العوامل التي اتّخذها المعزّ لدين اللّه و غيره من الخلفاء نهجاً دينياً إجتماعياً لمخاصمة العباسيين؛ و مما يدلّ على كُره الفاطميين للعباسيين منذ قيام عبيداللّه المهدي للدعوة بالمغرب و قد حذا حذوه الخلفاء. و يذهب إلى دعم هذا القول و تأييده، ماجاء في كتاب «المعزّلدين اللّه»[2] و نصّه:

و مما يوضح هذه السياسة التي سار عليها الإسماعيلية خلال السنين احتفال المعزّ بعيدالغدير؛ و لأوّل مرّة في تاريخ مصر أن يشهد المصريون احتفالات رائعة، يرمي القائمون بها إلى تقديس أشخاص الأئمة و الإشادة بمذهبهم؛ و يربطون عليّاً بالرسول برباط وثيق؛ و الحقيقة أنّه كان عليٌّ أوّلَ من أسلم من الصبيان و كان ابنَ عمِّ الرسول و زوج ابنته فاطمة، و أشجعَ مَن دافع عن الإسلام في أدوار محنته؛ كما كان موضع تقدير الرسول و أحبَّ الناس إلى

---

١. صبح الأعشى ٣١٥/٣.

٢. تأليف: الأستاذ حسن إبراهيم حسن والأُستاذ طه أحمد شرف /٢٥٠ـ٢٥٢.

قلبه. لكن الشيعة رأوا أن يحـاربوا العـباسيين بـنفس سـلاحهم، لأنَّ هـؤلاء يقولون: إنّ العبّاس جدّهم عمّ الرسول، و إنَّ عليَّ بن أبي‌طالب جدّ العلويين ابن عمه، و العمُّ أقرب من ابن العم بالطبع. و يقولون أيضاً: إنّ العباس يرث الرسولَ بالعصبيّة، و إنَّ أبناء فاطمة بنت الرسول لايستطيعون ذلك كما يتبين من قول شاعر العباسيين:

أنَّى يكون ـ و ليس ذاك بكائنٍ ـ لبـني البـنات وراثـةُ الأعـمامِ؟

عمل العلويُّون على محاربة العباسيين كما تقدَّم، فأوحوا أن الرسول آخى علياً في يوم الغدير، وأنَّه أخذ بيد عليٍّ بن أبي‌طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى. قال: ألسـتم تـعلمون أني أولى بكلّ مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. فقال: مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه. عليٌّ مني بمنزلة هارون من موسى. اللّهم وال من والاه و عاد من عاداه و انصر من نصره واخذُلْ من خـذله!... و كـانوا يـرمون مـن وراء ذلك إلى أن يـصبغوا دعواهم في الخلافة و الإمامة بصبغة شرعية.

و إنّ «عيدالغدير» الذي احتفل به المعزّ ـ و لا يزال الشيعيون يحتفلون به إلى اليوم ـ يؤيّد النظرية التي يقول أصحابهـا: إن عليَّ بن أبي‌طالب وليُّ عهد رسول اللّه دون سواه؛ و أنه كان يجب أن يخلفه في زعامة المسلمين؛ و من ثم يرى الشيعيّون أنَّ أبابكر و عمر و عثمان و بني أُميَّةَ ثم بني العباس، اغتصبوا حقَّ الخلافة من عليٍّ و أبنائه. و بذلك عمل المعزّ على جذب أنصار الخـلفاء الراشدين و الأُمويين ثم العباسيين إلى الدعوة الفاطمية، و أنه استطاع التأثير فيهم؛ و قد عنى المعزُّ بالاحتفال بعيدالغدير عناية فائقة، وحذا خلفاؤه حذوه في هذا السبيل. فأصبح الاحتفال بيوم ۱۸ ذي الحجة من كلّ سَنة من أهـمّ الاحتفالات الدينية الّتي كانت تهتزُّ لها جوانب القاهرة فرحاً و سروراً؛ ويقف

منها السنّيّون المتفرّجون معجبين، لأنّها كانت من عوامل تسليتهم. و قد كان يُعدُّ «عيدُالغدير» ـ كما تقدَّم ـ من أهمّ أعياد الفاطميين فيهنّئ الإسماعيليةُ بعضهم بعضاً، و ينحرون فيه أكثر مما ينحرون في عيد الأضحى لأنّهم يفضّلون عيدالغدير عليه.

و جاء بعد هذا القول كلّه ـ مع عدم موافقتنا له في الكتاب نفسه و نظريته الهزيلة المختلَقَة ـ نقلاً عن المقريزي عن ابن زولاق: أنَّ في يوم ثمانية عشرة من ذيالحجة سنة اثنتين و ثلاثمائة، و هو عيدالغدير تجمع خلق كثير من أهل مصر و المغاربة و من تجمعهم للدعاء، لأنه يوم عيد لأنّ الرسول [صلّ‌اللهعليهوآلهوسلّم] عهد إلى أميرالمؤمنين عليٍّ بن أبيطالب [عليهالسّلام] فيه، و استخلفه. فأُعجب المعزّ من فِعلهم و كان هذا أوَّلَ من عمل بمصر. و يقول المسبحي في يوم الغدير هذا: اجتمع الناس بجامع القاهرة (الأزهر) و منهم القرّاء و الفقهاء و المنشدون؛ فكان جمعاً عظيماً أقاموا إلى الظهر ثم خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجائزة. و بذلك كان اهتمامُ المعزُّ بهذا اليوم كبيراً حتى أنّه كان يخرج إلى قنطرة المقس و يعرض الأسطول و يعوذه[١] و يباركه و يدعوله[٢].

و قال تقي الدين المقريزي قبل كلامه هذا: إعلَم أنَّ عيدالغدير لم يكن عيداً مشروعاً و لاعملَه أحدٌ من سالف الأمة المقتدَى بهم؛ و أوَّلُ ما عرف في الإسلام بالعراق أيام معزّالدولة عليّ بن بويه فإنه أحدثه في سنة اثنتين و خمسين و ثلاثمائة فاتّخذه الشيعة من حينئذ عيداً.

قال شيخنا الأكبر العلاّمة الحجّة الشيخ الأميني ـ قدسالله‌روحه ـ في الإجابة على هذا القول المختلَق السخيف و الزعم الباطل: «ما عساني أن اقول

---

١. أي يقرأ المعوذتين.

٢. الخطط المقريزية ٨٩/١.

في بحّاثة يكتب عن تأريخ الشيعة قبل أن يقف على حقيقته؛ أوأنه عرف نفس الأمر فنسيها عند الكتابة؟ أوأغضى عنها لأمر دُبّر بليل؟ أوأنه يقول و لايعلم ما يقول. أوأنّه مايبالي بما يقول؟ أوَليس المسعودي (المتوفّى ٣٤٦) يقول في «التنبيه و الأشراف» (ص ٢٢١) : و ولْدُ عليٍّ ـ رضي‌الله‌عنه ـ و شيعته يعظّمون هذا اليوم؟ أوليس الكليني ـ الراوي لحديث عيدالغدير في الكافي ـ توفّي سنة ٣٢٩ و قبله فرات بن إبراهيم الكوفي ـ المفسر الراوي لحديثه الآخر في تفسيره ـ الذي هو في طبقة مشايخ ثقة الإسلام الكليني المذكور ؟ فالكتب هذه أُلّفت قبل ما ذكره من التاريخ (٣٥٢). أوليس الفياض بن محمّد بن عمر الطوسي، قد أخبريه سنة ٢٥٩ ؟ و ذكر أنه شاهد الإمام الرضا ـ سلام‌الله‌عليه ـ (المتوفّى سنة ٢٠٣ هـ.) يتعيّد في هذا اليوم و يذكر فضله و قدمه، ويروي ذلك عن آبائه عن أميرالمؤمنين عليهم‌السّلام ؟ و الإمام الصادق (المتوفّى سنة ١٤٨ هـ.) قد علّم أصحابه بذلك كلّه و أخبرهم بماجرت عليه سنن الأنبياء، من اتّخاذ يوم نصبوا فيه خلفائهم عيداً كماجرت به العادة عند الملوك و الأُمراء من التعيّد في أيام تسنّموا فيها عرش الملك و ولاية العهد؟ و قد أمر أئمةالدين ـ عليهم‌السلام ـ في عصورهم القديمة شيعتهم بأعمال برّية و دعوات مخصوصة بهذا اليوم. و أعمال و طاعات خاصة به. و الحديث الّذي مرّ عن «مختصر بصائر الدرجات» يُعرب عن كونه من أعياد الشيعة الأربعة المشهورة في أوايل القرن الثالث الهجري.

هذه حقيقة «عيدالغدير» لكن النُّوَيري و المقريزي، أرادا طعناً بالشيعة فأنكرا ذلك السلف الصالح و صوّراه بدعة معزُوَّةٍ إلى معزّالدولة. و هما يحسبان أنّه لايقف على كلامهما من يعرف التاريخ فيناقشهما الحساب[1].»

---

١. الغدير ٢٨٨/١.

و من جراء هذا كلّه ـ و هو العناية و الاحتفال بالغدير ـ رأينا كيف كان يبتهج الشعبُ و الرؤساء و كافة طبقات الشعب بالعيد، و يتقبلونه قبل إبّان يومه السعد بمراسيم و عدّة و عدد. و كيف يصبح القطر المصري قطعة ضياء و شعلة و كيف كانت تلك الأيام تنشر حولها من روعة و جمال أوحى منظرها البهيج أسمى المعاني و البيانات للشعراء؛ فوصفوا منظر مصر في تلك الأعياد سيّما ليلة الغدير و يومه، فوقع التشبيه بأيّامه و لياليه في الحسن و الوداعة و الجمال و البهجة، في قول الأمير تميم بن المعزّ[1] في قصيدته التي أولها:

أسِرب مُهاُهُنَّ[2] أم سرب جَنَّهْ ... حاكَينهنّ و ليسنّ هِنَّهْ؟
أ أنتنّ أنجم ذا الجوّ أم ... بروج النجوم جلا بينكنَّهْ ؟
و لم أرَ عِيداً سواكن حبسن ... فأشبهن في ليلهنّ الأعنَّهْ ؟

إلى أن يقول في وصف أيام العيد على عهد الخليفة العزيز باللّه الفاطمي:

تروح علينا بأحداقها ... حسان حكتْهنّ من نشر هنَّهْ
نواعم لا يستطعن النهوض ... إذا قمن من ثقل أردافهنَّهْ
حَسُنَّ كحُسنِ ليالي العزيز ... و جئن ببهجة أيّامهنَّهْ[3]

و ما ذهب إليه السيد محمد راغب الطبّاخ في تصحيحه و تحقيقه لكتاب «دمية القصر» لأبي الحسن الباخرزي في ذكر البيت الأخير (ص ٣٨) هكذا :

حسُنَّ كحُسْن ليالي الغدير ... و جئن ببهجة أيّامهنَّهْ

فتصحيف فاحش مع العلم أن البيت الذي يليه هو:

---

١. ستأتي ترجمته في فصل «الغدير و شعراء الفاطمية».

٢. في الأصل : عن.

٣. دمية القصر / ٣٨، ديوان تميم بن المعز / ٤٤١.

إمام يـضنّ عـلى عـرضه　　و لا يعتريه على المال ضنَّهْ

بالرغم من أنّ القصيدة كانت في مدح الخليفة العزيز و وصف أيامه و عطاياه و سجاياه و بذله و إنفاقه على الشعراء و العلماء؛ كما جـاء في ديـوان الشاعر.

و لعمارة اليمني ـ الآتي ذكره ـ وصفٌ شعري إن دلّ على شيء فإنّما يدلُّ عن مدى تأثير تلك الأعياد، بأيامها و ليـاليها في نـفوس الشـعراء. قـال في قصيدته التي يرثي بها الدولة الفاطمية بعد انقراضها و يشيد بذكر الأعياد التي كانت تحتفل بها؛ قال ابن سعد: و لم يسمع فيما يكتب في دولة بعد انـقراضهـا أحسن منها؛ و هي :

رميتَ ـ يا دهرُ ـ كـفَّ المجـد بـالشللِ　　وجـيدَه بـعد حسـن الحـلي بـالعطلِ
سـعيتَ في مـنهج الرأي العـثور فـإن　　قدرت مـن عـثرات الدهـر فـاستقلِ
جـــدعتَ مـارِنَك الأقـنى فأنـفُك لا　　ينفكُّ مـا بـين قـرع السِّنّ و الخـجلِ
هدمتَ قـاعدة المـعروف عـن عـجلٍ　　سعيتَ سهلاً أمـا تمـشي عـلى مـهلِ!
لهـفي و لهـف بـني الآمـال قـاطبة　　عـــلى فـــجيعتها في أكـرم الدولِ
قـدمتُ مـصراً فأولتـني خـلائفُها　　مـن المكــارم مـا أربى عـلى الأمـلِ
قومٌ عرفت بهـم كسب الألوف و مِـن　　كـمـالها أنّهـا جـاءت و لم أسـلِ
و كـنت مـن وزراء الدست حـين سما　　رأس الحـصان يهـاديه عـلى الكـفلِ
ونـلتُ مـن عـظماء الجـيش مكـرمةً　　وخلة حـرست مـن عـارض الخـللِ
يـا عـاذلي في هـوى أبـناء فـاطمة　　لك المـلامة إن قـصَّرت في عـذلي!
بالله دُرْ ساحةَ القصريْن و أبكِ مـعي　　عـليهما لا عـلى صـفّين و الجـملِ
و قل لأهـليهما: و اللّـه مـا التحمت　　فيكم جراحـي و لا قـرحـي بمـندملِ
مـاذا عـسى كـانت الإفـرنج فـاعلة　　في نسـل آل أمـيرالمـؤمنين عـليّ؟
هل كان في الأمر شيءٌ غير قسمة مـا　　ملكتموا بين حكـم السّـبي و النـفلِ؟

و قد حصلتم عليها و اسم جدُّكُم — محـمّدٌ و أبـوكم غـير منتقلِ
مررت بالقصر و الأركان خالية — من الوفـود و كانت قبلة القبلِ
فملت عنها بوجهي خوف منتقد — من الأعادي و وجه الودّ لم يملِ
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت — رحابكم و غدت مهجورة السّبلِ
أبكي على ما تراءت من مكارمكم — حالَ الزمان عليها و هي لم تحلِ
دارالضيافة كانت أُنسَ وافدكم — و اليوم أوحشُ من رسم و من طللِ
و فطرة الصوم إذ أضحتْ مكارمكم — تشكو من الدهر حيفاً غير محتملِ
و كسوة الناس في الفصلين قد درست — ورثّ منها جديدٌ عندهم و بُلي
و موسم كان في يوم الخليج لكم — يأتي تجمُّلكم فيه على الجملِ
و أول العام و العيدَين كم لكم — فيهنّ من وبْلِ جودٍ ليس بالوشلِ
و الأرض تهتزّ في يوم «الغدير» كما — يهتزّ ما بين قصريكم من الأسلِ
و الخيل تعرض في وَشْيٍ و في شيَةٍ — مثل العرائس في حلْيٍ و في حللِ
و لاحملتم قِرى الأضياف من سعة الـ — أطباق إلّا على الأكتاف و العجلِ
و ما خَصصتم بِبِرٍّ أهلَ ملّتكم — حتى عممتم به الأقصى من المللِ
كانت رواتبكم للذّمتين و للضيـ — ـف المقيم و للطّاري من الرسلِ
ثم الطراز بتنّيس الذي عظمت — منه الصلات لأهل الأرض والدّولِ
و للجوامع من إحسانكم نعم — لمن تصدّر في علم و في عملِ
و ربّما عادت الدنيا فمعقلها — منكم و أضحت بكم محلولة العقلِ
و اللّه لافاز يوم الحشر مبغضكم — و لا نجا من عذاب اللّه غير ولي
و لا سقى الماء من حرّ و من ظمأٍ — من كفّ خير البرايا خاتم الرُّسلِ
و لا رأى جنّة اللّه التي خلقت — من خان عهد الإمام العاضد بن عليّ
أئمّتي و هداتي و الذخيرة لي — إذا ارتهنتُ بما قدّمت من عملي
تاللّه لم أوفِهم في المدح حقّهمُ — لأنّ فضلَهم كالوابل الهطلِ
و لو تضاعفَت الأقوال واتّسعت — ما كنت فيهم بحمد اللّه بالخجلِ

بــاب النــجاة هــمُ دنــياً و آخــرة　　و حبّهم فـهْو أصـلُ الديـن و العـملِ
نـور الهـدى و مـصابيح الدُّجـى و محـ　　لُّ الغـيث إن ربت الأنـواء في المحـلِ
أئمـــــة خُـــــلقوا نـــوراً فـنورُهم　　من محض خـالص نـور اللّـه لم يـفلِ
و اللّـهِ مـازلت عـن حـبّي لهـم أبـداً　　مــا أخّــراللّـه لي في مـدّة الأجـلِ[١]

****

هذا «عيدالغدير» عندهم؛ و بقي الوقوف على مدى تأثير هذا العيد في شعر شعراء الدولة الفاطمية، بعد ما أسلفنا الحديث أن موسم «عيدالغدير» عند الفاطميين كان أفضل موسم يـعبّرون فـيه عـن مشـاعرهم و عـواطـفهم و الإسراف في البذخ والترف و الجوائز و عتق الرقاب و تفرقة الذبايح و الهبات و الكسوات، لكبراء الدولة المميزين، و مشاركتهم الشعب في جميع هذه الأعياد على كثرتها و صعوبتها. و يمكننا القول أن بهـذه المـناسبات نَهـضت الحـركة الأدبية في عهدهم، و أُقيمت لهـا بمـصر سـوقٌ رائـجة؛ و السـبب يـعود إلى تشجيعهم الأدب بالمال و الجوائز و الثناء على الشعراء.

و لهذا نرى الكثيرين من شـعراء الدولة العـباسية، هـربوا مـن مـدينة المنصور إلى مدينة المعزّ، مع العلم أنَّ الشعراء يومئذ لم يفدوا إلى مصر من بغداد فحسب، و إنّما وفدوا إليها من جميع أنحاء المعمورة؛ وانضمَّ هؤلاء جمـيعاً إلى شعراء مصر، و ازدحموا على أبواب خلفاء الفاطميين و وزرائهم يترقّبون.

ولولا هذه الأعياد و المناسبات الوافرة من سفر و غاد و موت و ولادة و فتح و غزوة و نصر و عرس وختان و ... لما شهدوا منهم من العطاء الوافر و السخاء الغزير الذي لم يحلموا به قطّ في حياتهم الأدبية و غيرها.

---

١. الحاكم بأمرالله /٢٢٧. الخـطط المـقريزية ٤٩٥/١ـ٤٩٦. الغـدير ٤١٤/٤. نسـمة السـحر ٢ ق ١٨٣/١ـ ١٨٥.

و كلّ ذلك في مواسم الأعياد و المناسبات التي عنى الفاطميون بها عناية عجيبة، واحتفلوا بها احتفالاً بالغاً حتّى كانت الأعياد لكثرتها قد أصبحت جزءً من الخطط التي وضعوها للترويج عن دعوتهم؛ فزادت هذه الأعياد في بهجة الشَّعب المصريِّ من جهة، و أطلقت ألسِنةَ الشعراء و الكتّاب من جهة أُخرى، و أتاحت للشعراء أثمن الفُرص التي يستطيعون بها نيلَ جوائزَ ثمينةٍ من الخلفاء و الوزراء و غيرهم من كبار الدولة إلى جانب صقل مواهبهم و قرائحم و تهذيبها.

و لايتّسع المجال هنا للحديث عن الهبات التي كانت تغدق على العلماء و الشعراء الذين استوطنوا مصر من البلاد الأُخْرى؛ فوفدوا على مصر و أقاموا بها في طلب العلم و الكسب ردحاً من الزمن، ثم تركوها إلى بلادهم و مع كل واحد ما كسبه من الأموال. و على سبيل المثال يحدّثنا «السيوطي جلال الدين» عن ابراهيم بن محمّد بن محمّد الهاشمي[١] و هو كوفيٌّ رحل إلى الشام و مصر، ثم عاد إلى موطنه و به توفي في شوال سنة ٤٦٦ هـ. و كان له حظٌّ من

---

١. أبو علي إبراهيم بن محمّد بن محمّد بن أحمد بن علي بن الحسين بن علي بن حمزة بن يحيى بن الحسين بن زيد بن الإمام عليّ بن الحسين بن الإمام عليّ بن أبي‌طالب الحسيني الهاشمي الكوفي ٤٠٠ـ٤٦٦ هـ.

عالم فاضل، له معرفة حسَنةٌ بالنحو و اللغة و الأداب، و حظٌّ من قرض الشعرجيد من مثله . سافرإلى الشام و مصر فأقام بهامدةً ثم رجع إلى وطنه بالكوفة إلى أن مات في شوال سنة ست و ستين و أربعمائة (٤٦٦) عن ست و ستين سنة.

من تأليفه: ديوان شعر. شرح اللمع.

و ما جاء في معجم المؤلّفين فكلّه تحريف و لم يتتبع نسبه المؤلف الفاضل. فقال: زيد بن علي بن أبي طالب. و جاء فيه مات بالكوفة و له ٢٣ سنة و الصحيح ست و ستين سنة، فمام ولادته ٤٠٠ لا ٤٤٣، و كم في المعجم لدة هذه القضايا التاريخية المصحّفة التي جاءت من عدم التتبع و التحقيق.

إنباء الرواة ١/ ١٨٥. بغية الوعاة / ١٨٨. عمدة الطالب / ٢٦٥. معجم الأدباء ٢/ ١٠ ـ ١٤. معجم المؤلّفين ١/ ١٠٥.

الشعر، و تفوّق في النحو و اللغة، و هو صاحب القصيدة التي أنشدها و هو في مصر، و منها:

«فإن تسأليني: كيف أنتَ؟ فإنّني» تنكّرتُ دهري و المعاهدَ و الصَّبرا
و أصبحت في مصرٍ كما لايسرّني بعيداً عن الأوطان منتزحاً عزبا
وإنّيَ فيها كامرئ القيس مرّةً و صاحبه لمّا بكى و رأى الدّربا
فإن أنجُ من بابي زويلا فتوبةً إلى الله أن لامسّ خُفّي لها تُربا

قال السمعاني: قال لي الشريف: قال أبي، قلت هذه الأبيات بمصر و ما كنت ضيّق اليد، و كان قد حصل لي من المستنصر خمسة آلاف دينار مصريّة[1].

و لقد اتّخذ هؤلاء الشعراءُ في صوغ الشعر الذي يقال في مدح الخلفاء الفاطميين، منهجاً لم يتخذه أيُّ شاعر قبلهم؛ و هو صوغ معان تمتاز بطابع الغلو إلى درجة لا ترضى عنها أذواق أهل السنّة و بقية خلفاء الدول مع سرد العقايد الفاطمية فيها. و قد رسموا بهاتين الصفتين في أشعارهم المثلَ الأعلى للشعر الوارد في مدح الخلافة المصريّة. و الواقع أن مدح الشعراء للفاطميين كان من أجْل كرمهم و علوّ هممهم؛ و هو مدح أربت عليه جوائز الفاطميين أنفسهم. أجَل كلّ ذلك يوشِك أن يتخلّص في قول أحدهم إذيقول:

مذاهبهم في الجود مذهب سنّةٍ و إن خالفوني في اعتقاد التشيُّعِ[2]

و معنى ذلك أنَّ شعراء مصر ـ أوالذين و فدوا على أبواب البلاط

---

١. معجم الأُدباء ٢/ ١١.

٢. الحركة الفكرية في مصر / ٢٦٨. [ذكر هذا البيت بصورة أُخرى الاستاذ حسن الأمين في كتابه «صلاح الدين الأيّوبيّ بين العباسيين و الفاطميّين و الصّليبيّين » ط دارالجديد ١٩٩٥ م. ص ٥٩].

الفاطميّ، من كل صوب وحدب ـ لم يمدحوا الفاطميين بدافع العقيدة و الإخلاص من حيث تشيّعهم، و لكن مدحوهم من حيث مذهبهم في الجود و الكرم، و تلطّفهم في اجتذاب قلوب الرعية عامّة ـ و الشعراء منهم خاصّة ـ و إشباعهم بالجوائز و النقود. لذلك نرى الكثيرين منهم تحوّلوا بعد انقراض الفاطميّة إلى أبواب العباسيّين و لازموا أعتابهم. و منهم من عاد إلى وطنه و ترك أبوابَ الفاطميّين، لأنّه لم يحصّلَ على المال الجسيم الذي كان يحلُم به.

عيدالغدير

و شعراء الفاطمية

حريٌّ بنا هنا ذكر بعض من شعراءالدولة الفاطمية الذين كانوا يتبارَوْن في ميدان المدح ـ و ما أكثرَهم يومَذاك! ـ و ذكرُ شطريسير عـن حـياتهم و شعرهم في الموضوع هذا، و في غيره من المناسبات التي كانت داعيةً لازدهار الشعر في عهد الأئمة و الوزراء الفاطميين؛ فقد فتحوا كماقلنا أبـواب القـصور للعلماء والشعراء و مشايخ إفريقية، و أباحوا لهم جميعاً الاطّلاع والوقوف على الكتب المختلفة و دراستها، واستنساخها و التعلّم منها، و التفقّه فيها؛ كما أباحوا للناس كافةً سماع محاضرات كبار العلماء الذين كان يوثَق بهـم. لذلك فـالعلم والشعر نهضا في عصور الفاطمية نهضـةً وسيعة مباركة بفضل ما كانوا يدرونه على الشعراء من هبات و أموال؛ فكانت قصورهم كعبةالعـلماء و الشـعراء و المفكرين؛ كما شارك الخلفاء أنفسهم في هذه النهضات، و أخذوا بنصيب كبير منها. فمال الشعراء إلى الغلوّ المذهبي؛ و هذا ما يمتاز به الشعر في عهدهم، إذ كان للعقائد الفاطميّة تأثير قويٌّ في شعر شعراء الفاطميّة، و ذلك أنّ الشعراء الذين

اتصلوا بالأئمة كانوا يمدحونهم بالصفات التي صبغها المذهب على الأئمة، و قد يتعمّد الشاعر أن يستعمل في شعره المصطلحات التي اصطلح عليها علماء المذهب و دعاته. و كلّما أمعن الشاعر في استخدام هذه المصطلحات الفاطمية، و إدخال هذه الصفات الإسماعيلية في شعره، ازدادت قيمته عند الأئمة و كبار رجال الدعوة. فالشعراء على هذا المنوال كانوا من أدقّ الوسائل للدعوة إلى الأئمة و العقائد، دون أن يكون لهم في مراتب الدعوة شأن ما. ثم طغت تلك الموجةُ الأدبية على مصر، و سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الاسلامية! فضاع الشعر و لم يُبقِ لنا التاريخ منه إلّا النزر اليسير منه.

و هذه جناية أدبية و تطاول سياسي، سجّلها التاريخ للأيّوبيّين. فقد تعمّدوا منذ خطبة صلاح‌الدين الأيوبي للمستضيء العباسي، أن يمحوا كلَّ أثر أدبي أو علمي أو مذهبي يمُتُّ للفاطميين بصِلة؛ فتروي لنا كتب التاريخ أنهم إبّان ورودهم لمصرَ أحرقوا أكثرَ مكاتب الفاطميين، بما فيها من دواوين الشعراء و كتب العلماء خشية أن يكون فيها مدحاً للأئمّة و هو كفرٌ بزعمهم ارتكبها الفاطميون في التاريخ !

فضلاً على أنَّ صلاح‌الدين الأيوبي قتل طائفة كبيرة من الشعراء والمشايخ والأُدباء الذين مدحوا الفاطميين في عهدهم، بتُهَم باطلة و مزاعم مختلَقة؛ فقتل عمارة اليمني مع جمعٍ نُسب إليهم التدبيرُ على صلاح‌الدين و مكاتبة الفرنج واستدعاؤهم إليه حتى يجلسوا ولداً للعاضد؛ و كانوا أدخلوا معهم رجلاً من الأجناد ليس من أهل مصر، فحضر عند صلاح الدين و أخبره بما جرى، فأحضرهم فلم ينكروا الأمر ولم يروه منكراً. فأمر بصلبهم و صُلبوا يوم السبت في شهر رمضان سنة تسع و تسعين و خمسمائة (٥٩٩ هـ.) بالقاهرة؛ و قد قُبض عليهم يوم الأحد الثالث و العشرين من شعبان. و صُلب مع الفقيه

عمارة، قاضي القضاة أبوالقاسم هبة اللّه بن عبداللّه بن الكامل، و ابنُ عبدالقوي داعي الدعاة؛ كان يعلم بدفائن القصر فعوقب ليدلّ عليها فامتنع من ذلك فمات واندرست. و العويرس ناظر الديوان، و شبريا كاتب السر، و عبدالصّمد الكاتب أحدُ أُمراء مصر، و نجاح الحماميُّ، و منجّمٌ نصرانيٌّ كان قد بشّرهم بأنَّ هذا الأمريتمّ لهم[١].

و مهما يكن من شيء فإن الوثائق و السّجلّات الأدبية التي وصل بعضٌ منها لأيدينا إن دلّت على شيء فإنَّما تدلّ على أنَّ العصر الفاطمي كان خصباً بانتاج الشعر؛ بحيث استطاع شعر مصر الفاطمية أن يقف بجوار غيره من الشعر في الأقطار الإسلامية في أرقى عصوره و صورَه. فالعوامل التي تحدّثت عنها، والآثار التي وصلتنا، و ما نقله الرواة عن شعر مصر، كل ذلك يجعلنا نقول : إنَّ شعر مصر الفاطمية كان يحتلّ هذه المكانة الممتازة في الحياة الأدبية، و يتطوّر هذا التطور الذي تلمّسه في العصر الفاطمي[٢].

فالشعراء في الواقع لو ألقينا نظرة عابرة على دواوينهم، لرأيناها زاخرة بمدح الملوك والوزراء الفاطميين، و كانوا يتّجهون إليهم بمدائحهم؛ و ربّما كان جميع شعر الشاعر فيهم فحسب. و الويل كلُّ الويل للشاعر الذي لم يجعل في شعره مكانةً لهؤلاء أولم يجعل في شعره مِدحة لهم! فإنه يُبعد و يُنفى و يُطرد من القصر ولايُعتنى بشأنه مهما أجاد الشاعر و بذل من حول و طول في سموّ شعره و عواطفه. بل على الشاعر أن ينشد في مواسمهم و أعيادهم و حفلاتهم التي كانت تقام لأيّ حادثة كبرت أوصغرت إلى غيرها من مناسبات مختلفة. فإذا قصد الخليفة الفاطميَّ مدَحَه؛ و إذا سافر مدَحه؛ و إذا أهداه شيئاً مدحه؛ و كلُّ

---

١. الغدير ٤ / ٤١٥.

٢. في أدب مصر الفاطمية / ١٤٠.

ذلك بجانب القصائد التي قيلت بمناسبة الأعياد.

و قد جاء أنّ الخليفة الحافظ، ملّ من طول الشعر و كثرته فأمر أن يختصر الشعراء مدائحهم؛ فلم يعجب ذلك الشعراء، فقال الشعراء في ذلك شعراً و منهم أبوالعباس أحمد بن مفرّج الشاعر، يخاطب الخليفة و يمدحه بقوله :

أمرتَنا أن نصوغ المدحَ مختصراً　　لِمْ لا أمرت ندى كفّيك يختصِرُ؟
واللّه لابدّ أن تجري سوابقنا　　حتى يبين لها في مدحك الأثرُ[1]

و إنّ الشعراء الذين لم يكن لهم الحظُّ الوافر و لم يُسعدهم الإقبال بالحصول على مكانة مرموقة عندالفاطميين ... شأن بقية الشعراء فكثيرون؛ بل هناك من نُفي و أُبعد عن مصر، أو قتل لعدم تخصص شعره في الفاطميين و عقايدهم؛ و منهم: أبوطاهر إسماعيل بن محمد[2] المعروف بـ«ابن مكنسة»، فقد كان من أبلغ الشعراء كثيرَ التصرّف قليلَ التكلّف، يفتن في نوعي جدّ القريض و هزله، و يضرب بسهم وافر في رقة شعره و عاطفته و جزله. و مع ذلك كلّه فقد ظلّ في مصر بعيداً عن شعراء الخلفاء و الوزراء، و لم يوفَّقْ إلى نيل حظوة عندهم.

والسبب في ذلك أن الشاعر «ابن مِكْنَسه» كان قد انقطع إلى مدح عامل في القطر المصري من النّصارى يعرف بأبي مليح، و أكثر أشعاره فيه، و عندما توفّي هذا العامل رثاه بقصيدة أولها قوله :

طُــويت سماءُ المكــرُما　　تِ و كُوِّرت شمسُ المديح

---

١. في أدب مصر الفاطمية / ١٦٨.

٢. أبوطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة الإسكندراني المتوفي حدود الخمسمائة، و جاء ٥١٠ هـ. شاعرٌ مكثر من أهل الاسكندرية، و ذكر شعره في بعض معاجم التراجم، و لم يُعرف عنه أكثر مما ذكرناه. الأعلام ١ / ٣٢٢. فوات الوفيات ١ / ١٩٤.

ماذا أرجى في حياتي ... بعد موت أبي مليح؟
ما كان بالنكس الدني ... من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعدما ... عقدوا به دين المسيح[1]

و بعد أيام و شهور وُلّي الأفضلُ[2] الوزارة و ذلك في عهد الحافظ بأمر اللّه الفاطمي، فأراد الشاعر (ابن مكنسة) أن يتقرّب إليه و يتّصل به فعمل في حقه قصائداً و مدحه؛ ولكن الأفضل بن بدر الجمالي لم ينس شعره في أبي مليح ورثائه فيه بعد موته، فلم يقبل مدايحه، حتى يئس الشاعر منه و أرسل له بأبيات يتضرّع فيها و يستعطفه على حاله، ولٰكنّه بالرغم من كلّ ذلك أبى؛ و منها قوله :

مثلي بمصر و أنت ملك ... يقال ذا شاعر فقيرُ
عطاؤك الشمس ليس يخفى ... و إنما حظّي الضريرُ

و لعلَّ ابنَ مِكنسه كان أحسن حظاً من الشاعر عليٍّ بن عباد الإسكندري، فقد كان هذا الشاعر منقطعاً لمدح الوزير أبي علي أحمد بن الأفضل عندما كان هذا الوزير مستبّداً بالبلاد و بالخليفة، بل حبس الخليفة الحافظ لدين اللّه الفاطمي حتى بلغ استبداده حدّاً لايطاق؛ و استطاع الحافظ أن يتمكّن منه و أن يقتله في الميدان، و تتبّع كلَّ من كانوا على صلةٍ بهذا الوزير الطاغية فقتلهم. و منهم هذا الشاعر (علي بن عباد) ويروي بعض المؤرخين أن هذا الشاعر مدح ابن الأفضل بقصيدة مطلعها :

---

١. المصدر السابق / ١٨٨. الخطط المقريزية ٢ / ١٦٠.

٢. أميرالجيوش الأفضل أبوالقاسم بن أميرالجيوش بدرالجمالي المصري المقتول سنة ٥١٥ هـ. كانت ولايته ٢٨ سنة، وكان حسنَ السيرة عادلا، و تولّى بعدَه ابنُه أبو علي أحمد بن الأفضل المقتول سنة ٥٢٥ هـ. النجوم الزاهرة ٥٥ / ٢٢٢، ٢٤٧.

تبسّم الدهر لكن بعد تعبيسي ...

و تعرّض فيها بالخلفاء الفاطميين سيّما في قوله :

و قـــد أعـــاد إليـــه اللّـــه خـــاتمَهُ فاسترجع الملك من صخربن إبـليسِ[١]

فكانت هذه القصيدة سببَ مقتله. و يقول ابن ميسر : إنّ الحافظَ أمر بإحضار الشاعر، فلما امتثل بين يديه، قال له : أنشدني قصيدتك فأخذ الشاعر في إنشادها حتى قال منها في بيت :

... ولا ترضوا عـن أنجس المـناجيس

يعني به الحافظ و آباءه؛ فأمر حينئذ أن يلكُمَه الغِلمان حتى مات بـين يديه. بل كانت هذه القصيدة سبباً في قتل القاضي ابن ميسر سنة ٥٣١ هـ. فقد روي أن القاضي عندما سمع الشاعر ينشد القصيدة بين يدي ابن الأفضل، قام و ألقى عرضيّته طرباً؛ فلما قُتل الوزير صُرف القاضي عن عمله و قُتل.

و عن هذا الشاعر يقول ابن فضل اللّه، علي بن عباد الاسكندري: شاعر كان يجلو غُررالمدايح، و كانت مئن الوزراء تستعطف أعنة قصائده فيرد عليهم مسردها.

و من هؤلاء الذين نقم عليهم فُنفوا و طردوا من مصر، الشاعر الملقّب الناجي المصري و كان في بدء أمره من شعراء الأفضل بن بدر الجمالي، و يعدّ من شيوخ الأدب في عهد الأفضل ـ الذي كان من أزهى العصور الأدبية التي شاهدتها مصر الاسلامية ـ و من الشعراء الذين كان الأفضل يجزل العطاء لهم و يجلس إليهم و يستمع إلى أشعارهم و روايتهم للشعر؛ بيد أنَّ الشاعر (الناجي المصري) لأُمورٍ و أسباب هو أعرف بها منا، هجا الأفضل أخيراً بقوله:

---

١. خريدة القصر، قسم شعراء مصر / ١٠.

قل لابن بدرٍ مقال من صدقَهْ ــــ لاتفرحن بالوزارة الخَلِقَهْ
إن كنت قد نِلتها مراغمة ــــ فهي على الكلب بعدكم صدقهْ

فأمر الأفضل بنفيه إلى الواحات فأقام بها عند علم الدولة المقرب بن ماضي[۱].

و العجب أنَّ المؤرخين ممن عاصروا هؤلاء الشعراء أومن تأخّر عنهم، لم يفردوا لهم تراجماً خاصة لهم، بيْد أن توجد من أخبارهم شذرات يسيرة في كتب لم تصل بأيدينا منها إلاّشيء قليل؛ ولكنَّا اعتمدنا في سرد أخبار هؤلاء الشعراء الثلاثةِ[۲] الذين نقم عليهم، ماذكره مؤلف «في أدب مصر الفاطمية» (ص ۱۸۸ ـ ۱۹۰) من سيرة بسيطة لهؤلاء معتمداً فيها على أهمّ المصادر و الوثائق الخطّية الواصله إليه.

و مهما يكن من شيْءٍ فإنَّ هذه العوامل كانت سبباً في اتّجاه الشعراء نحو الفاطميين في شعرهم، و إرهابهم بالنفي و القتل و الضجر عن مدح ماسواهم من الدول و الخلفاء، حتى كأنّ الشعراء، لم يعرفوا في الحياة من ينبغي مدحهم دون هؤلاء. و لهذا نرى الشاعرَ يُجهد نفسه في أن يأتي شعره على وفق ميل إمام عصره، و يأتي فيه ببعض العقائد الفاطمية، و أن يلائم بين هذه ضروريّات الشعر. فالشاعر كان يتكلّف و ينفق جهداً كبيراً في إنشاد الشعر. و إذا ألقينا نظرة عابرة على الشعر الفاطمي رأينا أن في قصيدة واحدة لشاعر واحد لونين من الشعر. فالمقدمة التي كان يجعلها الشاعر مقدمة لقصيدته لون، و للأبيات التي بها ذكر العقائد لون آخر؛ فهو يظهر في المقدمة فن الشاعر و طبيعته و عبقريته، و تظهر في اللون الثاني الذي به ذكر العقائد، صناعة الشاعر و تلاعبه و تكلّفه. و قد عبّر عن هذا النوع من الشعر بعض أساتذة الأدب و

---

۱. ابن خلّكان ۱ / ۲٤۲.

۲. أبو طاهر اسماعيل بن محمد (ابن مكنسه) علي بن عباد الإسكندري و الناجي المصري.

الشعر، بالشعر الرمزي و كان في العصور الفاطمية يسمّى بشعر الصوفيّة. فشعر الصوفيّة هو تطوّر لتأويل الباطن عند الإسماعيلية[١].

و خشية أن يطولَ بناالأمر، نضرب عنه صفحاً، و نعود إلى تقديمٍ يسير عن حياة شعراء الدولة الفاطمية الذين نظموا واقعة «الغدير» في أشعارهم و أشادوا بهذه الإثارة الإلّهية بحضور من الخليفة. و سنرى فيه ألوانا من الفنّ الذي تمثل لنا أخيلة شعراء العصر الفاطمي، و إنها صورة منزّعة من الحياة الفاطمية، و إن توسّع الشعراء الفاطميين في استعمال هذه الألوان و المغالات كانت ضرورة اضطرَّتهم إليها حياة العصر الفاطمي نفسه. ولاغرابة من ذلك فإنَّ مصر الفاطمية منذ ورود المعزّ لها كانت تمتاز بالغلوّ في كل شيء، فترَىَ غلوّ الفاطميين في الدين و غلوّهم في اللّهو و غلوَّهم في التزيّن و التجمّل و غلوّهم في الملبس و المسكن و غلوّهم في أعياد فرحهم، و غلوّهم في ذكريات مآتمهم. فظهر هذا الغلوّ في فنّ الشعر ظهوره البالغ في نواحي الحياة المختلفة؛ فأسرف الشعراءُ في العصر الفاطمي في استخدام ألوان الزينة البديعية، حتى تلائم إسراف الفاطميين في حياتهم.

فإنَّ طبيعة المجتمع و الحياة يومَذاك كانت تمد الشعراء بهذه الألوان الحسيّة عن الزينة. و ليس معنى ذلك أن الشعراء في غير مصر الفاطمية لم يعرفوا الزينة البديعة، و أنَّهم لم يسرفوا في استخدامها؛ بل كانت الزينة البديعة في الشعر العربي، أقدم عهداً من الفاطميين؛ و إنّ هذه الزينة عرفها شعراء العراق قبل أن تقوم دولة الفاطميين في مصر؛ و إنما أسرفوا في استخدام هذه المحسنات البديعة، فسبقوا غيرهم في مضماره، و ذلك لما في المصريين من دقّة الحس ورقّة الشعور و ميلٍ إلى الفكاهة و خفّة الروح.

هذا وإليك تراجِم بعض الشعراء الفاطميّين الذين نظموا قصة «الغدير» في قصائدهم حسب ترتيب عام وفياتهم:

---

١. في أدب مصر الفاطمية / ١٦٢ و ٣٠٠.

أبوعبدالله الخصَيْبي

(المتوفّى: ٣٥٨هـ.)

إنّ يوم «الغدير» يـومُ السرورِ	بيَّن اللّه فـيه فـضل «الغـديرِ»
وحبا «خـمّ» بـالجلالة والتـفـ	ضيل والتحفة التي في الحـبورِ
وبـــالافضال والتزايـــد بـالإ	نعام فخر يجـوز كـلّ الفـخورِ
يوم نـادَى محـمّد في جمـيع الـ	خلق إذ قال مفصح التـخبيرِ
قائلاً للجميع مِـن فـوق دوحٍ	جمــــعوه لأمــره المـقدورِ:
إنّ هــذا بـاريكمُ فـاعلموه	إنّ هــذا مــصوّر التــصويرِ
إنّ هـــذا إلهكـم فـاعرفوه	إنّ هذا معبودُكـم في الدهـورِ
إنّ هـــذا ربٌّ لكــم وحَـدوه	قد تعالى عـن مشـبهٍ و نـظيرِ
إنّ هـــذا مـهيمن صمد فـر	دٌ و هذا خـلّاقُ بـدء الفـطورِ
و هـــو الأوّل القـديم والآ	خـر هـو بـاطن بـغير ظـهورِ
و هــو الظـاهر الذي لم يـغِب	قطّ عن العارف العليم الخـبيرِ
و هو المحيي المـميت وهـوالبـا	عث والوارث المكـرّ الكـرورِ
و هو الراحـم المخـلِّد في الجـنا	ت مُـلقي عـدوَّه في السـعيرِ
و أنـا عـبده الرسـول إليكـم	بكـــتاب مـنزَّلٍ مســطورِ
قال : بلّغ عـنّي عـبادي فـإنّي	أنـــا مـولاهم و خـير نـصيرِ
فــتخوّفتُ مـنكم أن تـضلّوا	و تـتوهوا في غـمرة التـحيرِ
فأتــتْني حمـــايةُ آيـة التـبـ	ليغ أنْ بـلّغا بـصوت جـهيرِ
و لئن لم تــــبلِّغَنْ فمـــا بـلّـ	غت وحـي و أنت غـير نـذيرِ
فكشفت الغطاء طـوعاً لديـن	ـمـظهراً كـنه ذاتـه المستورِ
و تجلّى لكم لكـي مـا يُـريكم	قـــدرةَ القـادر العـليّ الكـبيرِ
و سمعتم مـاقلت فـيه مـن الحـ	ـــقّ فأنـفرتموا بـشرّ نـفورِ

فصددتم عنه و لم تستجيبوا و تعرّضتمُ لإفكٍ وزورِ
ثم قلتم قد قال: من كنت مولا ه فهذا مولاه غير نكيرِ[1]

الشاعر

لم يكن هذا الشاعر مصرياً ولا وفد إليها؛ و إنما هو فاطميٌّ عاش في القرن الرابع في بلاد الشام، و جاهد دون عقيدته؛ و ذبّ عنها و ناضل و بثّ الرسالة الإسماعيلية في ربوع الشام و نواحيها، إلى أن توفّي فيها سنة ٣٥٨ من شهر ربيع الأول.

و هو أبوعبدالله الحسين بن علي بن الحسين بن حمدان بن الخصيب الخُصيبي الجنبلاني؛ كان فقيهاً شاعراً مجيداً. و له مؤلفات و آثار نثرية إلى جانب ديوان شعره؛ و منها: كتاب في أسماء النبيّ ـ صلى الله عليه و آله و سلّم ـ و أسماء الأئمة و الإخوان و المائدة، إلى غير ذلك من البحوث العقائدية الإسماعيلية. غير أن الفقيه و الشاعر هذا، قد أُهمل مع الأسف كلّه من قبل المؤرخين و الباحثين و لم يوجد من شعره إلّا نتفاً يسيرة مبثوثة في بعض من المعاجم؛ و منها كتاب «سبيل راحةالأرواح و دليل السُّرور و الأفراح إلى فالق الإصباح» المعروف بمجموع الأعياد[2] تأليف: أبي سعيد ميمون بن القاسم الطبراني النصيري[3].

والقصيدة المذكورة تقع في ٧٠ بيتاً و آخرها قوله:

---

١. سبيل راحة الأرواح /٥٦.

٢. طبع في هبورغ سنه ١٩٤٣ م بتحقيق: ر. شتروطمان. في ٢٧١ صحيفة؛ و توجد نسخة منه في مكتبة الفقيد الاستاذ كاظم عَبُّود شريف في النجف الاشرف.

٣. أبوسعيد ميمون بن القاسم الطبراني كان حياً ٣٩٨ هـ. فاضلٌ أديب، له تآليف منها: مجموع الأعياد و الدلالات و الأخبار المبهرات. حدث به في طرابلس سنة ٣٩٨ هـ. معجم المؤلفين ١٣ / ٦٥.

ذاك مولى الولاة حقاً ولا مو لى ســواه في أوّلٍ و أخــيرِ

و من شعره أيضا قوله :

تشــخّص للأنـام فشبّهوهُ بأنــفسهم و لم يـتحقّقوهُ
ولو عرفوا الذي عرفت منه عــلى تحـقيقه لتألّهــوهُ
ولم يخـفَ عـن العـقلاء لمّـا أتى بـالمعجزات فـوحّدوهُ
فأحمد سيّدي حمـداً كـثيراً و أعرف منه مـا لم يـعرفوهُ
لقد دلّ الحجاب عليه حتى تجــلّى للــعباد فــعاينوهُ
فـلمّا عــاينوه قــد تجـلّى لهم «يوم‌الغدير» تناكروهُ[١]

إنَّ الخُصيبي في التاريخ؛ و إن أهمله الكثيرون من الباحثين، و لكنَّه كان كغيره من فقهاء عصره يضربون في كل فن بسهم وافر من الفضيلة و الثقافة العامة؛ فهو فقيه و هو كاتب و أيضا فهو شاعر؛ يتذوق الشعر و ينشده و ينظم في ركب الشعراء؛ و يرسل القصائد تِلو القصائد في المـناسبات المـذهبية التي كانت تطل عليهم.

فهو على كلِّ حال، فاضل عالم محدث من القدماء، غير أنه اتُّهم بالغلوّ. و روى عنه أبوالعباس ابن عقدة الحافظ أحمدبن محمّدبن سعيد الهمداني الكوفي (٢٤٩ ـ ٣٣٣ هـ.) و أثنى عليه، و قيل : إنه كان يؤمّ سيف الدولة. و له أشعار في مدح أهل البيت عليهم السلام.

و من تآليفه: الإخوان. المسائل. تاريخ الأئمة. الرسالة. أسماء النبيّ صلّى الله عليه و آله وسلّم. أسماء الأئمة. الهداية في الفضائل. أحوال أصحاب الأئمة ـ عليهم السلام ـ و أخبارهم.

و في أكثر المراجع جاء : أبـوعبدالله الحسـين بـن حمـدان الخـصيبي

---

١. سبيل راحة الأرواح / ٧٣.

الجنبلاني، و تارة الحضيني، إلاّ أنَّ المترجَم له، اُتُّهم بفساد المذهب و التخليط، و أنه خلط وصنف في مذهب النصيرية، و كان يقول بالتناسخ و الحلول؛ غير أن السيد الأمين العاملي في أعيانه، هاجم الذين اتّهموه بأمثال هذه الأباطيل وردّ عليهم. و قال : كذبوا عليه و نسبوا إليه التّرهات، ولاغرابة في افتراء هؤلاء النسب الباطلة إلى العلماء.

والخلاصة أن أباعبدالله الخُصيبي، من شيوخ المشايخ؛ روى عنه الشيخ الثقة الجليل القدر عظيم المنزلة واسع الرواية عديم النظير أبو محمّد هارون بن موسى التلّعكبري الشيباني (المتوفى ٣٨٥ هـ.) و هو في الوقت نفسه أحد المصنّفين في فقه الإمامية.

أما شيخنا الأكبر العلّامة الأميني النجفي كرّم الله وجهه ـ الوالد المعظّم ـ فلم يذكره في «الغدير» لعدم وقوفه على كتاب «سبيل راحة الأرواح».

مصادر ترجمته

أعيان الشيعة ٢٥ / ١٤٤. تنقيح المقال ١ / ٣٢٦. جامع الرواة ١ / ٢٣٧. الجامع في الرجال ١ / ٥٩٣. خلاصة الأقوال (رجال العلامة الحلي) / ٢١٧. رجال ابن داود الحلي / ٢٤٠. رجال الشيخ الطوسي / ٤٦٧. رجال النجاشي / ٤٩. رياض العلماء ٢ / ٥٠. الفوائد الرضوية / ١٣٤. فهرست الشيخ الطوسي / ٥٧. لسان الميزان ٢ / ٢٧٩. مجمع الرجال ٢ / ١٧٢. معجم رجال الحديث ٥ / ٢٢٤. معجم المؤلفين ٤ / ٥.

تميم بنُ المعزّ لدين الله

(٣٣٧ ـ ٣٧٤ هـ.)

جــادك الغــيث مـن محـلَّة دارِ وثــوى فـيك كـلّ غـارٍ و سـارِ

حــكمت بـعد قـاطنيك اللـيالي في مـــغاني ربـــاك بـــالإقفارِ

و رمـــتك الخـطوب مـنهم ببين و رحـيل القـطين مـوت الديـارِ

يــا بـــني هـاشمٍ و لسـنا سـواءً في صـــغار مـــن العلى أو كـبارِ

إن نكـــن نـــنتمي لجـدٍّ فـإنّا قـد سـبقناكـمُ لكـلّ فـخارِ

ليس عـــبّاسكم كـمثل عـليٍّ هـل تـقاس النـجوم بـالأقمارِ؟

مـن له الفـضل و التـقدُّمُ في الإسـلام و النـاس شـيعة الكـفارِ؟

من له الصهر و المـواساة والنصـرة و الحـرب تـرتمي بـالشرارِ؟

مـن دعـاه النـبيّ خِـدناً و سمّا ه أخـاً في الخـفاء والإظـهارِ؟

مـن له قـال: أنت مـنّي كـها رون و موسى؟ أكرِمْ به من نجارِ

ثم يوم «الغـدير» مـا قـد عـلمتم خـصّه دون سـائر الحـضّارِ

مـن له قـال: لافـتى كـعليٍّ لا ولا منصل سوى ذي الفقارِ؟

و بمـن بـاهل النـبيُّ؟ أأنـتم جـهلاءٌ بـواضـح الأخـبارِ؟

أبـــعبد الإلــه، أم بحسـين و أخـيه سـلالة الأطـهارِ؟

يـا بـني عـمّنا ظـلمتم و طـرتم عن سبيل الإنـصاف كـلّ مطارِ

كـيف تحـوون بـالأكُـفّ مكـاناً لم تـنالوا رؤيـاه بـالأبصارِ؟

مـن تـولّى الفـراش يخـلف فـيه أحمداً و هو نحو يـثربَ سـاري؟

أيـن كـان العـبّاس إذ ذاك في الهجرة أم في الفراش، أم في الغارِ؟

ألكـم مـثل هـذه يـا بـني العبـاس مأثـورةٌ مـن الآثـارِ؟

ألكـم حـرمة بـعمّ رسـول اللـه ليست فـيكم بـذات بـوارِ؟

ولنـا حـرمةُ الولادةِ والأعـمام و السبقِ والهُـدى و المـنارِ

ولنـا هـجرة المـهاجر قِـدَّماً ولنـــا نـصرة مـن الأنـصارِ
ولنـا الصّـوم والصّلاة و بـذل العرف في يسرنا و في الإعسارِ
نحـن أهـل الكِساء سادسنا الر وح أمـين المـهيمن الجـبارِ
نحن أهل التُّـق و أهـل المواسا ةِ و أهـل النـوال والإيسـار
فـدعوا خـطة العـلى لذويها مـن بـني بيت أحمد الأبرارِ
أو فـلوموا الإلـه في أن برانا فوقكم و اغضبوا عـلى المـقدارِ
أجـعلتم سـق الحـجيج كـمن آ مـن بـالله مـؤمناً لا يـداري؟
أو جعلتم نـداء عـباس في الحـر ب لمـن فـرّ عـن لقـاء الشـفارِ
كـوقوف الوصيّ في غـمرة المـو ت لضرب الرؤوس تحت الغبارِ؟
حـين ولّى صـحبُ النـبيّ فـراراً و هو يحـمي النـبيّ عـند الفـرارِ؟
و اسألوا يـوم خـيبرٍ و اسألوا مكـ ـة عـن كـرّه عـلى الفُـجّارِ
و اسألوا يـوم بـدر مـن فـارس الإسلام فـيه و طـالب الأوتـارِ؟
و اسألوا كـل غـزوة لرسـول اللـ ـه عـمن أغـار كـل مـغارِ؟
يـا بـني‌هاشم أليس عـليٌّ كاشف الكرب و الرزايا الكبارِ؟
فـبماذا مـلكتم دونـنا إر ث نـبيّ الهـدى بـلا استظهارِ؟
أبـقربى؟ فـنحن أقـرب للـمور وث منكم و مـن مكـان الشـمارِ
أم بـإرثٍ ورثـتموه؟ فـإنّا نحـن أهـل الآثـار والأخـطارِ
لا تـغطّوا بحـيفكم واضـحَ الحـ ـق فـيقضي بكـم لكـلّ دمـارِ
و أصـيخوا لوقـعة تمـلأ الأر ض عـليكم بجـحفل جـرّارِ
تحت أعـلامه مـن الفـاطميّـ ـن أُسـود ترمي شبا الأظفارِ
فاصدروا عن مـوارد المـلك إنـا نحـن أهـل الإيراد و الإصدارِ
ولنـا العـزّ و السـموُّ عـليكم و المسـاعي و قـطب كـلّ مـدارِ

يــا بــني فــاطمٍ! إلى كـم أقـيكم　　بلساني و مـنصلي و انـتصاري؟[1]

الشاعر

الأمير أبوعلي تميم بن الخليفة المعزلدين اللّه معد بـن المـنصور بـاللّه إسماعيل بن القائم بأمراللّه أبوالقاسم محـمّد ابـن الخـليفة المـهدي عـبيداللّـه الإسماعيلي الفاطمي.

ولد سنة ۳۳۷[2] في مدينة المهدية بتونس؛ تلك المدينة التي بناها مؤسس الدولة الفاطمية عبيداللّه المهدي، و اتخذها عاصمة له عام ۳۰۷ هـ. واستقر بها هو وشيعته و كبار رجال أنصاره؛ إلى أن بنىالمنصور باللّه مدينة المـنصورية سنة ۳۳۷، وانتقلوا إليها. فنشأ المترجَم في هذه المدينة، و ترعرع في أُبَّهة المُلك إلى أن اتخذ لنفسه عبيداً و داراً في القصر بالمنصورية[3]. و قد كان من رسـوم الفاطميين تربية أبناء كبار رجال الدولة و المقربين إليهم في قصر الخلافة مـع الأُمراء من أبنائهم. ولكننا لانعرف كيف نشأتميم ولم نعرف شيئاً كـذلك عـن أساتذته و مربّيه؛ بالرغم مما نعرفه عن شغف الفـاطميين بـالعلوم و تشـجيع العلماء والادباء و الشعراء. و جمع الكتب النفيسة في كلّ فن. فلا شك أن هذه البيئة الثقافية التي كانت في البلاط الفاطمي، كان لها أثرُها الخـالد في تـلوين الشاعر بهذا الاتّجاه الفنّي الذي اتّجه إليه.

قدم الأمير تميمٌ مصرَ في الخامسة و العشرين من عمره، و سكن القصر

---

۱. ديوان تميم بن المعز / ۱۸۵. أعيان الشيعة ۱۴ / ۲۱۰ ـ ۲۱۱. و فيه: أن القـصيدة قـالها رداً عـلى عـبداللّـه ابن المعتز في تفضيله للعباسيين على العلويين في قصيدته التي أولها: أيّ ربع لآل هـند و دار ... و لم يـترجـم له في كتاب «الغدير».

۲. وفيات الأعيان ۱ / ۸.

۳. سيرة الأُستاذ جوذر / ۱۰۰.

الكبير في القاهرة. و يخيل إلينا أن المعز لدين اللّه كان شديد الحرص على ألّا يعهد إلى تميم بأي عمل من الأعمال الرسمية؛ و ظلّ تميم بمعزل عن كلّ عمل عام بل أُهمل إهمالا شديداً. و يمكن القول: أن انصراف المترجَم له للعلم والثقافة و توغلّه الشديد فيها، كان سبباً لإهماله و تركه قضايا و شؤون الدولة.

لقد كان تميم يحيَى في مصر حياة لهو و ترف؛ و وجد في البيئة الفاطمية من المنتزهات و الديارات ما يوافق هواه و مزاجَه، فأكثر من الخروج إلى المختار بجزيرة الروضة، و إلى دير القصير بالقرب من قصوره، و شارك المصريين في لهوهم سيّما في أيام الأعياد؛ بعد أن كانت الدولة تحتفل بهاتيك الأعياد مع الشعب، فترى الشاعر الأمير في صفوف الشعراء يُلقي من على المنبر قصائده التي صاغها في تلك المناسبة السعيدة.

و قد اتخذ الأمير الشاعر لنفسه عدداً من الأصدقاء، و اصطفاهم من بين عشرات الآلاف من أفراد الشعب؛ و من بينهم نقيب الطالبيين بمصر أبوالقاسم أحمد[1] بن محمّد بن إسماعيل الرَّسّي بن القاسم بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام؛ و كان شاعراً أيضاً من الشعراء المشبهين، و توفي سنة ٣٥٢ هـ. و كان ابناه من الشعراء أيضاً.

---

١. أبوالقاسم الشريف أحمد النقيب بن أبي عبدالله محمّد الشعراني بن اسماعيل بن القاسم الرَّسّي بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم بن الحسن المثنّى بن الإمام الحسن بن الإمام عليّ بن أبي طالب عليهم السلام الحسني الرَّسّي المصري ٢٨١ ـ ٣٤٥ هـ.

عالم فاضل أديب شاعر، تولى النقابة بمصر بعد أخيه إسماعيل، و كان من أكابر رؤساءها و له شعر مليح في الزهد و الغزل و غير ذلك. مات في مصر لخمس بقين من شعبان سنة ٣٤٥ هـ. و عمره أربع و ستون سنة (٦٤) و دفن في مقبرتهم خلف المصلّى الجديد بمصر.

الأعلام ١/ ٢٠٠. أعيان الشيعة ٩/ ١٩٩. عمدة الطالب/ ١٧٥. نوابغ الرواة/ ٤٢. وفيات الأعيان ١/ ٣٩. يتيمة الدهر ١ / ٣٢٨.

والذي يُعرف من ثنايا ديوان الأمير تميم ـ المطبوع بالقاهرة عام ١٣٧٧هـ. بإشراف الأساتذة : علي عبدالعظيم و محمد عبدالعظيم بدر و إبراهيم عطا فرج ـ أنّ المترجَم له كان على صِلةٍ قوية برجال الدولة و الأُدباء المرموقين، و على صلة ما بغيرهم أيضاً من شعراء مصر الماجنين، أمثال : صالح بن رشدين و ابن أبي العصام و ابن أبي الجوع و الروذباري و غيرهم؛ فهؤلاء كانوا جميعاً من كتّاب و شعراء العصر الفاطمي بالقاهرة.

هكذا عاش المترجَم له و تمّت حياته القصيرة إذ توفي سنة ٣٧٥ هـ. و هو نحو الثامنة و الثلاثين من عمره، و دفن في تربة الزعفران مع آبائه و أجداده. و خلّف ديواناً حافلاً بشعره و قصائدة التي نظمها في مناسبات مذهبيّة و دينيّة.

و مهما يكن من أمر، فقد ترك الخوض في جميع المجالات السياسية؛ و لكن صال و جال في النواحي الأدبية و اندمج في ركب الشعراء و سار في موكبهم، و شاركهم في المناسبات و الأعياد الفاطمية بصورة سافرة؛ و نظم فيها قصائد طويلة، و هنّأ الخلفاء و في رأسهم والده المعزّلدين اللّٰه و أخوه العزيز باللّٰه مع بيان العقيدة الفاطمية في أغلب شعره و الاعتزاز بها و برسالتها الخالدة.

قال الأُستاذ الأعظمي ـ السكرتير العام لجماعة الإخوة الإسلامية بمصر ـ : إنَّ تميمَ بن المعزّ، كما يعرفه الأُدباء، أمير شعراء مصر في العصر الفاطمي؛ و يمكننا القول بأن تميماً هذا كان مبدأ حياة خصيبة عامرة. نشأ في وقت واحد مع القاهرة، و كان الشعر في مصر بما نعلمه من الضعف و القلّة و الندرة، إذكان العصر العباسي الثاني حافلاً بدويلات شبه مستقلة، و كان الشعر فيها يصيب تشجيعاً من أُمراء العرب كدولة بني حَمْدان، إلّا أنّ رُسل الخليفة في مصر من الأتراك لم يكن الشعر العربي يلق قبولاً عندهم بحكم تباين اللغة و

المنزع. و كان الشعراء يلجأون إلى غير مصر كالشام و بغداد؛ و كانت اللغة الفارسية تلتمس نهضتها في الدولة السامانية و الغزنوية. فأما إذ أُتيح للفاطميين أن يقيموا دولتهم الكبرى في وادي النيل فنحن أمام دولة عربية هاشمية تحمي اللغة، كما تحمي كتابها و دينها. ففي عصرهم أخصب البيان العربي، و انفسح الميدان للشعراء، و أمكننا أن نسمع مائة شاعر في رثاء بعض الوزراء ينشدون جميعاً و ينالون الجائزة جميعاً؛ فيجدون من أريحيّة الفاطميين و سعة نائلهم ما يشجعهم على القول و يدفعهم إلى الإجادة.

و لكن لماذا لا يحدّث صاحب العمدة و الثعالبي و غيرهما عن تميم و الجميع قد أجمعوا أوكادوا يجمعون على أنّ تميماً كان على عرش الإمارة في الشعر، و كما كان أبوه و أخوه على عرش الخلافة في مصر؟ و الحق أنّ للسياسة دخلاً كبيراً في السطو على تميم و حرمان أبناء العربية أدهاراً طوالاً من ثمار تفكيره؛ فقد كان شعرُ تميم ضمنَ مخلفات ذلك البيت المالك، و في خزانة القصر الفاطمي التي كانت حافلة بمانات الأُلوف من كتب العلوم و الأدب، ثم نُهبت هذه القصور و أُحرق أكثرها و حمل القليل من تحفها و جواهرها.

أمّا أُدباء العرب و المؤرّخون فلم يعرفوا عن تميم إلّا شذرات متفرقة و بضع قصائد لعِبت بها يدُ التحريف و التصحيف.

ثم قال: إنه وجَد ديوانَه في مكتبة «كلّية كجرات» فنقله من سبع نسخ مختلفة، كما نقل غيره من الكتب الخطّية المفقودة من جميع مكاتب العالم. و هو يعتقد أن هذا الديوان نقله بعض أتباع الفاطميين و بقاياهم الذين فرُّوا من مصر بعد غروب شمس الدولة الفاطمية إلى جبال اليمن ثم إلى الهند في مقاطعة كجرات فحملوه معهم فيما حملوه من الكتب[1].

---

١. أعيان الشيعة ٢٠٨/١٤ نقلا عن مجلة الرسالة المصرية، العدد ٣٣١ من السنة السابعة.

و له أبيات أُخرى تدلّ بوضوح أنه كان موضع الإكبار و التقدير لدى رجال الدولة، و منها: أنّ الخليفةَ العزيز بالله كان يقلّب ثياباً مذهّبات و غيرها، فأمر الأمير تميماً أن يتخيّر له أحسنها للباسه؛ فلما تخيّر الأمير أمر بحملها اليه، فقال بديهاً:

أنت أهدى إلى المكارم و الفضـ ـل و أندى من الغمام المطيرِ
و ابنُ مَن بان فضله يوم بدر و اصطفاه النبيُّ «يوم الغديرِ»
و لك الهمّة التي علت النجـ ـم وزادت عليه في التنويرِ
صانك اللّه للمكارم و المجـ ـد و أبقاك للعلا و الحبورِ[1]

و هناك في ثنايا الديوان قصائد أُخرى للمترجَم له، قالها في الأعياد و المناسَبات الفاطمية، و أرسلها من على منصّة الخطابة على رؤوس الأشهاد و تبارى بها لذلك ولّي إمارة ممالك الشعر؛ و أُلقي إليه زمام التصرّف في أقطار النظم و النثر. و هذا دليل على علوّ عبقريّته و تفننه في الأدب العربي و أبواب الشعر. و إليك نماذج من شعره فمنه يرثي أهلَ البيت عليهم‌السلام و مقتلَ الإمام الحسين في كربلاء:

نأت بعد ما بان العزاء سعادُ فحشو جفون المُقلَتَين سُهادُ
فليتَ فؤادي للظعائن مربع وليت دموعي للخليط مزادُ
نأوا بعد ما ألقت مكائدها النّوى و قوت بهم وصح دار ودادُ[2]
و قد تُؤمَن الأحداث من حيث تتّقى و يبعُد نجح الأمر حين يرادُ

---

١. ديوان الأمير تميم بن المعز / ١٧٢. و جاء في الهامش: هو غديرخم: موضع بين مكة و المدينة، أثنى عنده النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله على عليّ بن أبي طالب، و قال: من كنت مولاه فعلي مولاه. و يقول الشيعة أن النبيّ أوصى في هذا اليوم (١٨ ذي الحجة) بوصاية علي بن أبي طالب، و اتخذ الفاطميون يومَ الغدير يومَ عيد لهم.

٢. هكذا في المصدر ولعلّه : و أقوت بهم وضحُ دار وداد.

أعاذل! لي عن فسحة الصبر مذهب ... و للّهو غيري مألفٌ و مصادُ؟

ثوت لي أسلافٌ كِرام بكربلا ... همُ لثغور المسلمين سدادُ

أصابتهم من عبد شمس عداوة ... و عاجَلهم بالناكثين حصادُ

فكيف يلذّ العيش عفواً و قد سطا ... و جارَ على آل النبيّ زيادُ؟

و قتَّلهم بغياً عبيدٌ و كاد هم ... يزيدُ بأنواع الشقاق فبادوا!

بثارات بدر قاتلوهم و مكة ... و كادوهم و الحقُّ ليس يكادُ

فحُكِّمت الأسياف فيهم و سُلِّطت ... عليهم رماحٌ للنفاق حِدادُ

فكم كربة في كربلاء شديدةٍ ... دهاهم بها للناكثين كيادُ

تحكَّم فيهم كلّ أنوك جاهل ... و يغزون غزواً ليس فيه محادُ

كأنّهم ارتدُّوا ارتداد امية ... و حادوا كما حادت ثمودُ و عادُ

ألم تُعظموا ـ يا قومُ ـ رهطَ نبيِّكم؟ ... أما لكمُ يومَ النشور معادُ؟

تُداس بأقدام العصاة جسومهم ... و تدرسهم جرد هناك جيادُ

تضيمهم بالقتل أُمّةُ جدّهم ... سَفاهاً و عن ماء الفرات تذادُ

فماتوا عطاشى صابرين على الوغى ... و لم يجبنوا بل جالدوا فأجادوا

و لم يقبلوا حكمَ الدّعيّ لأنّهم ... تساموا و سادوا في المهود و قادوا

و لكنّهم ماتوا كراماً أعزّة ... و عاش بهم قبل الممات عبادُ

و كم بأعالي كربلا من حفائر ... بها جثث الأبرار ليس تعادُ

بها من بني الزهراء كلُّ سميدعٍ ... جواد إذا أعيا الأنام جوادُ

معفّرةٌ في ذلك الترب منهم ... وجوه بها كان النجاح يفادُ

فلهفي على قتل الحسين و مُسلم ... و خزيٌ لمن عاداهما و بعادُ

و لهفي على زيدٍ و بثّاً مردّداً ... إذا حان من بثّ الكئيب نفادُ

ألاكبدٌ تفنى عليهم صبابة ... فيقطر حزناًأويذوب فؤادُ؟

ألا مقلةٌ تهمي؟ ألا أُذنٌ تعي؟ ... أكلُّ قلوب العالمين جمادُ؟

تُقاد دماء المارقين و لاأرى ... دماءُ بني بيت النبيّ تُقادُ

أليس هــم الهـادين و العـترة الّـتي ... بها انجاب شركٌ و اضمحلّ فسـادُ؟
تُساق على الأرغام قَسراً نسـاؤهم ... ســـبايا إلى أرض الشآم تــقادُ
يُسَــقن إلى دار اليزيــد صـواغـراً ... كما سيق في عـصف الريـاح جَـرادُ
كأنهـــمُ فَيءُ المجـــوس و إنّهــم ... لأكــرم مــن قـد عـزّعنه قـيادُ
يَـعزّ عــلى الزهــراء ذلّـةُ زيـنبٍ ... و قــتل حســينٍ و القـلوب شـدادُ
و قَــرعُ يـزيدٍ بـالقضيب لِسِـنّه ... لقــد مجّسـوا أهـلُ الشآم و هـادوا
قتلتم بني الإيمـان و الوحي و الهدىٰ ... مــتى صــحّ مـنكم في الإله مـرادُ
و لم تــقتلوهم بـل قـتلتم هُـداكُـم ... بهــم و نــقَصتم عــند ذاك و زادوا
أُمــيّةُ! مــا زلتم لأبــناء هــاشمٍ ... عدىً فاملأوا طرق النفاق و عـادوا
إلى كم و قد لاحت براهينُ فـضلهم ... عــليكم نــفاد مــنهمُ و عــنادُ؟
متى قطّ أضحى عبد شمس كـهاشمٍ؟ ... لقــد قــلّ إنــصافٌ و طـال شرادُ
مــتى وزنت صمّ الحـجار بجـوهرٍ؟ ... مــتى شـارفت شمَّ الجـبال وِهـادُ؟
متى بعث الرّحمانُ مـنكم كـجدّ هـم ... نـبياً عـلت للــحق مـنه زنـادُ؟
متى كـان يـوماً صَـخرُكـم كـعليّهم ... إذا عُــــدّ إيمــان و عــدّ جـهادُ؟
متى أصبحت هندٌ كـفاطمة الرّضي؟ ... مـتى قـيس بـالصبح المـنير سـوادُ؟
أآلَ رســول اللّـه سؤتم و كـدتم؟ ... ســتجني عــليكم ذلّــةٌ و كســادُ
أليس رسول اللّـه فـيهم خـصيمكم ... إذا اشــــتدّ أبــعاد و أرمــل زادُ؟
بكــم أم بهــم جـاء القـران مـبشّراً؟ ... بكــم أم بهــم ديـن الإلـه يشـادُ؟
سأبكـيكُمُ ـ يـا سـادتي ـ بمــدامـعٍ ... غــزار و حــزن ليس عــنه رقـادُ
و إن لم أعــاد عــبدَ شمس عـليكمُ ... فلا اتّسعت بي ـ مـا حـييت ـ بـلادُ
و أطــلبهم حـتّى يـروحوا و مـالَهم ... على الأرض من طول الفـرار مـهادُ
ســقى حــفراً وَ ارتكـمُ و حـوَتْكم ... مــن المســتهلّات العـذاب عـهادُ[١]

و قال متغزّلاً:

١. أعيان الشيعة ١٤ / ٢١١ ـ ٢١٣.

قالت: أغدراً بنا في الحبّ؟ قلت لها: لانال غايةَ ما يرجوه مَن غدرا
قالت: فلِمْ لَم تزرنا؟ قلت: زارَكُمُ قلبي و لم يدر بي جسمي و لا شَعَرا
قالت: كذا يكتمُ العشّاق حبَّهم فينعمون و يجنون الهوى نضرا
قلت:اسمحي لي بتقبيلٍ أعيش به قالت: و أيُّ محبٍّ قبَّل القمرا؟[١]

و أنشد و هو يصف الناعورة:

و باكية من غير دمع بأعين على غير خلّ دائما تتحدَّرُ
يغنّي بها زَجل المدير لقطبها فيطربها حُسنُ الغناء فتنعرُ
إذا نزف العشّاقُ دمع عيونهم فأدمعها معْ كثرة السكب تغزرُ

و قال حين خروجه من الشام في سنة ٣٧٤ هـ.:

قالوا: الرحيل لخمسةٍ تأتي سراعاً من جمادىٰ
فأجبتهم إني اتّخذ ت له البكا و الحزنَ زادا
سبحان من قسم الهوى بين الأحبّة و البعادا
و أعاد للأجفان سقـ ـماً يسترقُّ به العبادا
يا ويح من منَحَ الفرا قُ جفونَ مقلته الرقادا!

و أنشد:

عَتَبَتْ فانثنى عليها العتابُ و دعا دمعَ مقلتيها انسكابُ
و سعت نحو خدّها بيديها فالتقى الياسمين و العنابُ
رُبّ مبدي تعتب جعل العتـ ـب رياء و همّه الاعتابُ
فاسقِنيها مدامة تصبغ الكا س كما يصبغ الخدود الشبابُ
ماترى الليل كيف دقّ دجاه و بدا طيلسانه ينجابُ

---

١. أعيان الشيعة ١٤/ ٢١١ـ ٢١٢.

و كأنّ الصباحَ فيالأُفُق بـازٌ … و الدّجى بين مِخْـلبيه غـرابُ
و كأنّ السماءَ لجّـــة بحـــر … و كأنَّ النـجوم فـيها حـبابُ
و كأنّ الجوزاء سيف صقيل … و كأنّ الدجـى عـليها قـرابُ

و قال معرضاً ببعض أقرباءه، و ذاك أنّه ذكرأنّ الأمير تميم يستعين على ما يأتي به من الشعر بغيره:

أرى أُنـــاساً سـاءني ظنّهم … في كلّ مـا قـلت مـن الشـعرِ
لمّــا تــطاطا بهــم عـلمهم … قـاسوا بأقـدارِهِـمُ قـدري
لو فهموا أو عقلوا لاسـتحوا … أن يجـعلوا المـرّيخ كـالبدرِ
قيسوا بشعري شعره تـعلموا … تـضايق النهر عـن البـحرِ
من بطل الحـقَّ هـجا نـفسَه … بجهله مـن حـيث لا يـدري
فأنظروني فيه أو فاشرحـوا … شــعري إن أنكـرتم أمـري
أولا: فــقولوا حَسـدٌ قـاتل … مستمكن في القلب و الصدرِ

و أنشد يمدح أخاه الخليفة العزيزَ باللّٰه الفاطمي:

اِشرَب فـإنَّ الزمـان غـضّ … و صرفـــه ليّن الجــنابِ
مــن قــهوة مـزّة كُـميت … أسكر من أعـصر الشـبابِ
أرقُّ مــن أدمــع التـصابي … سكباً و أشهى من المضرابِ
صاغ لها المزجُ حيث شبت … نـطاقَ درٍّ مــن الحـــبابِ
كأنَّ في كأسهـــا صـباحاً … و اللـيلُ محَـلَولِكُ الثّـيابِ
يســعى بهـا سـاحر المـآقي … لايرض الوصـل بـالعتابِ
كأنهـــا لون و جــنتيه … و طــيب ألفـاظه العـذابِ
إنّ نــدى راحـتيْ نــزار … ما زال يغني عـن السـحابِ
مــهذبٌ أروع الســجايا … مــقابل مــاجد النــصابِ

و قال:

يا دهرُ، ما أقساك من متلوّن ... في حالتيك و ما أقلّك منصفا!
أتروح للكنس الجهول ممهّداً ... و على اللّبيب الحرّ سيفاً مرهفا؟
فإذا صفوت كدرت شيمة باخل ... و إذا وفيت نقضت أسباب الوفا
لا أرتضيك و إن صفوت لأنني ... أدري بأنّك لاتدومُ على الصفا
زمنٌ إذا أعطى استردّ عطاءه ... و إذا استقام بدا له فتحرّفا
ما قام خيرك ـ يا زمان ـ بشرّه ... أولى بنا ما قلّ منك و ما كفى[1]

و قال:

أيا دَيرُ، مَرّحنا سقتك رعودٌ ... من الغيم تهمي مزنُها و تجودُا
فكم واصَلَتنا من رباك أوانس ... يطُفن علينا بالمدامة غيدُ
و كم ناب عن نور الضحى فيك مبسم ... و ناب عن الورد الجنيّ خدودُ
و ماست على الكثبان قضبان فضّةٍ ... فأثقلها عن حملهنّ نهودُ
ليالي أغدو بين ثوبَيْ صَبابة ... و لهوٍ و أيّامُ الزمان هجودُ
و إذ لِمّتي لم يوقظِ الشّيبُ ليلها ... و إذ أثري في الغانيات حميدُ

و أنشد:

إذا حان من شمس النّهار غروبُ ... تذكّر مشتاق و حنّ حبيبُ
ترى عندهم علم و إن شطت النوى ... بأن لهم قلبي عليّ رقيبُ
لهم كبدي دوني و قلبي و مهجتي ... و نفسي التي أُدعى بها فأُجيبُ
فآية حزني لوعةٌ و صبابة ... و عنوان شيبي زفرة و نحيبُ
و ما بلد الإنسان الّا الذي له ... به سكنٌ يشتاقه و حبيبُ
إلى اللّه أشكو وشك بينٍ و فرقة ... لها بين أحشاء المحبّ دبيبُ

---

١. هذه الأبيات و التي تليها من يتيمة الدهر ١ / ٤٣٦ ـ ٤٤٤.

قال أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري المتوفي ٤٢٩هـ. : و أنشدني له أبوالحسن عليّ بن مأمون المصّيصي، من قصيدة مخمّسة و هي :

دمُ العشّاق مطلولُ   و دين الحبّ ممطولُ
و سيف اللحظ مسلول   و مبدي الحبّ معذول
و إن لم يصغ للّائمْ

إذا لم يظهر الحبُّ   و لم ينهتك الصبُّ
و يغشي سرّهُ القلب   فجملة ما ادّعى كذب
فبح يا أيّها الكاتمْ

و أحور سادر الطرفِ   يفوق جوامع الوصفِ
مليح الدّل و الظرف   جنت ألحاظه حتفي
فمن يعدي على الظالمْ؟

أطاع جفونَه السحرُ   و ذلّ لوجهه البدرُ
و ماد بردفه الخصر   و أشبه ثَغْرَه الدُّرُّ
فقلب محبّه هائمْ

يعنّفني على حبّي   و يهجرني بلا ذنبِ
كأني لست بالصبّ   لقهوة ريقه العذبِ
أما في الحبِّ من راحمْ؟

غزالٌ لحظه شَرَكُهْ   و بدر ثوبه فلكُهْ
لو انّي كنت أملكُهْ   فأنهب ماحوت تِككه
نهابَ الظافر الغانمْ

خذوا بدمي قنا القدِّ   و حسن تورد الخدِّ
و ليل الشَّعَر الجعد   و ثقل الكفل النهدِ
و سقمَ الأعين الدائمْ

مـــتى يـــظفرَ بالوصل و يـسنفي الجـور بـالعدلِ
محبّ دائم الخـــبل سـليب الصـبر و العـقل
كئيب مدنف هائمْ؟

بحســن الأعـين النـجل و عضّ الوقف و الحـجلِ
و ذاك القـصب الجـدل و ريـق كـجنا النـحلِ
و ثغر يطمع الشائمْ

سلوا الشمسَ التي طلعت عـلينا ثمّ مـا أفَـلَتْ
عسى تـرثي لمـن قـتلت بـعينيها و مـا عـلمت
فقد يستعطف العالمْ

أمـا و الخـرد الصـفرِ شـبيهات سـنا البـدرِ
و ألوان صـفا الخـمر لقد أضرمـن في صـدري
غراماً ليس بالنائمْ،

وراحٍ تـبعث الطـربا و تحيي الظـرف و الأدبـا
يشـير مـزاجـها حـببا تخـال بـه عـيون دبى
و دراً صفّه الناظمْ،

أمـا و الجـمرةِ الكـبرى و زمـزمٍ و الصـفا و مـنى
و مـن لبّى بهـا و دعـا و طاف البـيت ثم سـعى
خميصاً مخبتاً صائمْ،

لقــد أضحى لنـا خـلفا نـزارٌ و ابـتنى شرفـا
و أصبح خـامس الخُـلفا و أحـيا سـعيه السـلفا
و أضحى بالهدى قائمْ

نمـا في المجـد عـنصرُه و طـال النـجم مـفخره
و فـاق البـدرَ مـنظره فـصرف الدهـر يحـذره
أبـيٌّ لـيّن صـارمْ

و قال :

وَرْدُ الخدودِ أرقُّ من ... ورد الرياض و أنعَمُ
هــذا تنشّقه الأ نو ... فُ و ذا يقبّله الفــمُ
فإذا عدلت فأفضلُ الـ ... ورديــن ورد يــلثمُ
هذا يشَم و لا يضمّ ... وذا يـضمّ و يشــمُ

و قال متغزلاً:

و ليلة بتُّها على طربٍ ... آخرها مشبه لأُولاهــا
أقبِّل البرق من ترائبها ... و ألثم الشمس من محيّاها
سقتني الراح و هي خدّاهــا ... بأكؤس السُّكر و هي عيناها
إذا أرادت مزاجَها جعلت ... بآخر اللحظ في فــي فاها
فــياله قــهوة معتقة ... و ليس إلّا الخدود مأواهــا
حبابها الثغر حين يمزج لي ... و نقلها اللثم حين أسقاها
للّــه أيّامنا الّتي سلفت ... بدار حزواء ما كان أحلاها
فالقصر من حيرة الملوك إلى ... أعــلى رباها إلى مصلّاها
إذ نجتني اللَّهوَ من أصانلها ... و العزّمن فخرها و مغداهــا
إن عــرضت لذّة ملكناها ... أو صعبت خطة حويناها

و قال :

يا منتهى أملي، لا تُدن لي أجلي ... و لا تعذِّبْ ظنوني فيك بالظنَنِ
إن كان وجهك وجهاً صيغ من قمرٍ ... فإنّ قدَّك قد قُدّ من غصنِ

****

و يحدّثنا إبن الأبّار في كتابه عن تميم، فيقول: كان شاعرَ أهل بيت

العبيديين من غير منازع. و هو فيهم كابن المعتزّ في بني العباس؛ غزارة علم و نقاوة أدب و حسن تشبيه و ابداع تخيل. و كان يقتفي آثاره و يصوغ على مناحيه في شعره أشعاره؛ و قد ولّاه أبوه المعزّلدين اللّه معدُّ بن إسماعيل المنصور عهده و به كان يكنّى؛ ثم أعقبه بذكر شيء من شعره في أخيه نزار، و الغزل و التشبيه. و بعد تلك المختارات من شعر تميم نجد ابن الأبار يؤكد في آخر ترجمته أنه توفّي في خلافة أخيه العزيز المتوفّى سنة ٣٧٤، بينما توفّي العزيز سنة ٣٨٦.[١]

هذا و تكاد المراجع تتّفق في أنّ وفاته سنة ٣٧٤ هـ. من غير شكٍّ و اختلاف؛ إلّا أن صاحب «أعيان الشيعة» عند ترجمته له ذكر وفاته سنة ٣٦٨ هـ. و هو تصحيف حصل عن «النجوم الزاهرة»[٢] فقد تفرّد به.

مات يومَ الثلاثاء مع زوال الشمس لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي-القعدة، و إنّ أخاه العزيز نزار بن المعزّ حضر الصلاة عليه في بستانه؛ و غسّله القاضي محمد بن النعمان، و كفّنه في ستّين ثوباً؛ و أخرجه من البستان مع المغرب و صلّى عليه بالقرافة. و حمله إلى القصر فدفنه بالحجرة التي فيها قبر أبيه المعزّ.

مصادر ترجمته

الأعلام ٧١/٢. أعيان الشيعة ٢٠٨/١٤ ـ ٢٢٤. الحلة السيراء /٤٣٠. ديوان تميم بن المعزّ /المقدمة. سيرة الأستاذ جوذر/١٠٠. المنتظم ٩٣/٧. النجوم الزاهرة ١٣٣/٤. وفيات الأعيان ٣٠١/١. يتيمة الدهر ٣٤٧/١.

---

١. الحلة السيراء / ٤٣٠.

٢. النجوم الزاهرة ١٣٣/٤.

أبو حامد الأنطاكي

(المتوفّى ٣٩٩هـ.)

كتب الحصير إلى السرير ... أنّ الفصيلَ ابنُ البعير

فلمثلها طرب الأمير ... ر إلى طباهجة بقير[1]

فلأمنعنّ حمارتي ... سنتين من علف الشعير

لا هُمَّ إلّا أن تطير ... ر من الهُزال مع الطيور

فلأُخبرنّك قِصَّتي ... فلقد وقعتَ على الخبير

إنّ الذين تصافعوا ... بالقرع في زمن القشور

أسِفوا عليَّ لأنّهم ... حضروا و لم أكُ في الحضور

لو كنتُ ثَمَّ لقيل: هل ... من آخذٍ بيد الضرير؟

و لقد دخلت على الصديـ ... ق البيت في اليوم المطير

متشمّراً متبختراً ... للصَّفع بالدّلو الكبير

فأدرتُ حين تبادروا ... دلوي فكان على المدير

يا للرّجال تصافعوا ... فالصفع مفتاح السرور

لاتغفلوهُ فإنّه ... يستلُّ أحقاد الصدور

هو في المجالس كالبخو ... ر فلا تملّوا من بخورا

و لأذكرنّ إذا ذكرتُ ... أحبّتي وقت السحور

و لأحزُننّ لأنّهم ... لمّادنا نضج القدور،

رحلوا و قد خبزوا الفطيـ ... ر ففاتهم أكل الفطير

لا والذي نطق النبيُّ ... بفضله «يوم الغدير»

ما للإمام أبي عليٍّ ... في البريّة من نظير[2]

---

١. الطباهجة: اللّحم المشرّح.

٢. يتيمة الدهر ٣٢٣/١ ط ١٣٦٦ هـ. الغدير ١١١/٤.

الشاعر

لم يكن أبو حامد أحمد بن محمّد الأنطاكيُّ المصريُّ المعروف بأبي الرَّقَعْمَق مصرياً و لٰكنَّه و فد عليها. فكان شأنه شأن الشعراء الوافدين لمصر في العصر الفاطمي؛ و ذلك لمدح الخلفاء و الوزراء و نيل جوائزهم و عطاياهم. و لكن هذاالشاعر كان يُعدُّ في الرَّعيل الأول من شعراء الفاطمية لجودة شعره و متانة قريحته. و قد عرفه صاحب اليتيمة و غالى في حقه و وصفه؛ فقال: نادرة الزمان و جملة الإحسان و ممن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجدّ و الهزل و أحرز قصب الفضل. و هو أحد المداح المُجيدين و الفضلاء المحسنين، و هو بالشام كابن‌حجّاج بالعراق[1].

لقد كان أبو الرقعمق من المشاهير المتصرّفين في فنون الشعر، و له شوطه البعيد في أساليب البيان غير أنه ربّما خلط الجدّ بالهزل. و نشأ بالشام ثم رحل إلى مصر و أخذ فيها شهرةً طائلة و مكانة من الأدب عظيمة، و مدح ملوكها و زعمائها و رؤسائها. و ممن مدح المعزّ أبو تميم بن معدّبن المنصور بن القائم بن المهدي عبيدالله، و ابنه‌زفر عزيز مصر، و الحاكم بن العزيز، و جوهر القائد، و الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس، و نظرائهم؛ و صادف فيها جماعة من أهل الهزل و المجون فأوغل فيهما كلّ الإيغال حتى نبز بأبي الرقَعْمق. و قد يقال: إنّه هو الذي سمّى نفسه بذلك[2].

لقد كان شعر أبي الرَّقعمق إلى الهزل أقرب من الجّد فإنه أخذ في شعره طريقةً عجيبة عرف بها، و هي إمعانه و حرصه الشديد في الحماقة و الفحش و الهزل في الشعر. فإنك لم تجد له قصيدة خالية عن هذه الأوصاف؛ و يندر أن

---

١. يتيمة الدهر ٣١٠/١.

٢. الغدير ١١٢/٤.

يترك هذه الحماقة في الشعر و يعود إلى الجد؛ و لهذا عرف في التأريخ بالمجون أكثر ماعرف بالجد. و لعلّه كان يعبث بشعره بذكر هذا المزاح. و قد لقي في مصر من يشاكله في هذه الطريقة من الشعراء الماجنين؛ و له قصائد عدّة في هذا الموضوع، منها قوله في إحدى قصائده يذكر التصافع بين الشعراء الماجنين:

خذ في هناتك مما قد عرفت به
ممّا به أنت معروفٌ و مشهورُ
و احكِ العصافير صي صي صي صصي صصصي
إذا تجاوبن في الصبح العصافيرُ
لاتنكرون حماقاتي لأنَّ بها
لواء حمقيَ في الآفاق منشورُ
و لست أبغي بها خلّاً و لا بدلا
هيهات! غيري بترك الحمق معذورُ
لا عيب فيَّ سوى أنّي إذا طربوا
و قد حضرت يرى في الرأس تفجيرُ
و الأخدعان فما زالا يرى بهما
لكثرة المزح توريم و تحميرُ
و ذا الفعال مع الأعراض مطّرد
صفع و نقع و تيسير و تعسيرُ
فذا و ذاك و هذا ثم ذاك و ذا
كذا الليالي لها صَفْوٌ و تكديرُ
أستغفرُ اللَّهَ ممّا قلتُه عبثاً
لغير شيءٍ و ما في الصحف مسطورُ

أقـــول للـــنّفس لمّـــا اسـتشعرتْ جـزعاً
و بـــات يـــردعها خـــوف و تحـــذيرُ:
إنّ الإمـــام نـــزاراً مـــدحه ـ فـــثقي ـ
ذخـــرٌ لمـــثلكِ عـــندَ اللّــــه مـذخورُ
هـــو الذّي ليس بـــعدَاللّــــه مـن أحـد
ســـواه في النـــاس محـــمودٌ و مشكـورُ
مشـــــمّرٌ في المـــعالي ذيـــلَ مجـــتهد
و مـــاله في ســـوى العـــلياء تشـــميرُ[۱]

و غير هذه له أبيات إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على تضلّعه و توغلّه في صنوف المجون و الهزل و الأدب. فالمترجَم له في الواقع كان أُستاذاً لمدرسة مصر في شعر الهزْل و المُجون؛ و قد سار على نهجه كثير من الشعراء في هـذا العصر الذي عاش فيه أبو الرقَعْمَق؛ عاش عدة شعراء مثّلوا في مصر جماعة أبي نؤاس في العراق. فكان هٰؤلاء الشعراء يجتمعون و ينشدون أشعارهم و يتبارون في النشيد و هم يصفّقون ويلهون. فجماعة كانت تضمّ صالح بن رشدين و عبد اللّٰه بن أبي الجوع و محمد بن الحسن اليمني و الحسن بن محمد الشهواجي و صالح بن علي بن مونس و ابنَ أبي الزّلازل و أبا تميم سليمان بن جعفر و أحمد بن عبداللّٰه بن أبي العصام و غيرهم من شعراء المجون في ذلك العصر. و كانت هذه الجماعة على صفاء أحياناً، و في خصام أحياناً أُخرى. و كان أكثرُ هؤلاء الشعراء يتغزّلون في صالح بن رشدين[۲] أحد أئمة الكتّاب في

---

۱. يتيمة الدهر ۳۲۱/۱.

۲. أبو علي صالح بن رشدين الكاتب، احد أئمة الكتّاب، المهرة في سائر الآداب، صحِب المتنبيّ و روى شعرَه، و كان جيّدَ المعاني و يُعتبر من شعراء القرن الرابع الهجرى. يتيمة الدهر ۳۹۹/۱.

الديوان، و كان شاعراً بارعاً جيّدَ المعاني.

فهؤلاء الشعراء و المترجَم له كانوا ندوة تجري بينهم مطارداتٌ شعرية، يقصِفون ويلهُون و يدعو بعضهم بعضاً على الشراب و الخمر و القصف و الغناء و يتهادّون الجواري. و قد أبقى التأريخ لنا شعراً كثيراً لهؤلاء في هذا الباب.

حضر الشاعرُ حفلاتِ الفاطمية و أعيادها؛ و وصفهم بمدحه؛ و أشاد بذكر «الغدير» في قصائده و مدح الخليفة الفاطميَّ الإمام العزيز باللّٰه بقصائد؛ منها قوله:

حـيَّ الخـيام فـإنّي ... مـغرىً بأهـل الخـيامِ
بـالرامـيات فـؤادي ... بـصائبات السهـامِ
أسـقمنني و تألّـيْ ... ن لأشـفينَّ سـقامي
أيّـام وصـلي حـرامٌ ... والهَـجرُ غـير حـرامِ
لاعـذّب اللّٰـه قـلبي ... إلّا بـطول الغـرامِ
سـقياً لدهـرٍ تـولى ... بـشرّتي و غـرامـي
كأنّمـا ذلك العـيْ ... شُ كـان في الأحـلامِ
لم يـبقَ مـن نـرتجيه ... لحـادث الأيـامِ
إلّا ابـن أحمـد ذو الطَّـو ... ل و الأيـادي الجسـامِ
كـفّاه أغـدقُ جـوداً ... مـن واكـفات الغـمامِ
يـلقى العُـفاةَ بـوجهٍ ... مسـتبشر بسّـامِ
مـعظَّما نـرتجية ... للـنائبات العـظامِ
يـرمي الخـطوب برأيٍ ... أمـضى من الصـمصامِ
قـرم له عـزمات ... تـفُلُّ حـدَّ الحُسـامِ[١]

---

١. يتيمة الدهر ٣١٢/١.

و قوله أيضاً من قصيدة:

لم يدع للعزيز في سائر الأر ض عدواً إلّا و أخمد نارَهْ
فلهذا اجتباه دون سواهُ و اصطفاه لنفسه و اختارهْ
لم تشيّد له الوزارةُ مجداً لا و لاقيل رفّعت مقدارهْ
بل كساها و قد تخرّمها الدّه ر جلالاً و بهجة و نضارهْ
كلّ يوم له على نوب الدّه ر و كرّ الخطوب بالبذل غارهْ
ذويد شأنها الفِرار من البُخ ل و في حومة الوغى كرّارهْ
هي فلّت عن العزيز عداه بالعطايا و كثّرت أنصارهْ
هكذا كلُّ فاضلٍ يده تُمْ سي و تضحي نفّاعة ضرّارهْ
فاستجره فليس يأمن إلّا من تفيّا بظلّه و استجارهْ
فإذا ما رأيته مطرقاً يعـ مل فيما يريده أفكارهْ
لم يدع بالذُّكاء و الذهن شيئاً في ضمير الغيوب إلّا أنارهْ
لاولا موضعاً من الأرض إلّا كان بالرأي مدركاً أقطارهْ
زاده اللّه بسطةً و كفاه خوفَه من زمانه و حذارهْ[١]

قال أبو الرقعمق: كان لي إخوان أربعة، و كنت أُنادمهم أيامَ الأُستاذ كافور الإخشيديّ؛ فجاءني رسولهم في يوم بارد و ليست لي كسوة تحصنني من البرد؛ فقال: إخوانك يقرؤون عليك السّلام و يقولون لك: قد اصطبحنا اليوم و ذبحنا شاة سمينة، فاشتهِ علينا ما نطبخ لك منها! قال: فكتبت إليهم:

إخوانُنا قصدوا الصبوح بسحرة فأتى رسولهمُ إليَّ خصوصا
قالوا: اقترِحْ شيئا نجدلك طَبخَه! قلت: اطبخوا لي جبّةً و قميصا!

---

١. يتيمة الدهر ١/ ٣١٠. الغدير ٤/ ١١٦.

قال: فذهب الرسول بالرقعة فما شعرت حتى عاد و معه أربع خلع و أربع صرر في كلّ صرّة عشرة دنانير. فلبست إحدى الخلع و سرت إليهم[١].

و من شعره :

أظنُّ و دادها من غير نيّةْ	و هل هي فيه إلّا مدّعيّةْ؟
فتاة لاتملّ عذاب قلبي	و لا تخليه و قتاً من أذيّةْ
و لا ذنب له إلّا التوافي	لمن في الحبّ ليست بالوفيّةْ
و يعجبني التمنّع و التّشاجي	من الخود الممنعة الشجيهْ
فوا أسفاً على حرّ يعزّي	أخا رزء على عَظْم الرزيهْ
و ذلك أن ايري فيه رطل	و ما في حرها إلّا وقيهْ
و من بعث المدام فليس بد	و لا تك غير بكر بابليهْ
فثم هناك حر شافعيّ	عظيم الشأن، وأستٌ مالكيهْ
و نفسي غير مائلة إليها	لأحوال مقبّحة بذيهْ
أحب دنوّها و تحبّ قربي	و هذا لايكون بلا بليّةْ...
و لا ألوى على أحد يراني	بعين النقص و الحال الدنيهْ
و لكنّي أقول بمدح قوم	تفرّد بالعلا دون البريّةْ
و من نال العلا حجاً و مجداً	و أفعالاً مهذَّبةً سَنيهْ
تشابه خلقه و الخلق حسناً	و حسبك بالنفاسة و السَّجيهْ
تشاهد منه طوداً مشمخراً	و أفعال الملوك الكسرويّةْ
له الأقلام كيف يشاء تجري	بتأييد القضاء و بالمشيهْ
كأنَّ اللفظَ في القرطاس زهر	تفتح عن معانٍ معنويهْ[٢]

و من شعره قوله :

---

١. معاهد التنصيص ٢٢٥/١.

٢. يتيمة الدهر ٣١٣/١ـ٣١٤.

كُـفِّي مـلامَكِ يـاذات المـلاماتِ — فـما أُريـد بـديلاً بـالرقاعاتِ
كأنَّـني و جـنودُ الصـفع تـتبعني — و قـد تـلوتُ مـزامـير الرطـاناتِ
قِسِّيسُ ديـر تـلا مـزمارَه سـحَراً — على القسـوس بـترجـيع و رنّـاتِ
و قد مجـنت و عـلِّمت المجـون فما — أُدعى بشيءٍ سوى ربّ المجـاناتِ
و ذاك أني رأيت العـقل مـطَّرحاً — فـجئت أهـل زمـاني بـالحماقاتِ
إني سأدخـل عـذّالي عـلى عـذل — في الحبّ إن عذلوني في الحـرامـاتِ
أفـدي الذيـن نـأوا و الدار دانـية — و شـتتوا بـالجفا شمـل المـوداتِ
كم قد نتفت سبالي في صـدورهم — و الصد أصعب من نتف السبالاتِ!
سـقياً و رعـياً لأيّـام لنـا سـلَفت — بالقفص قصَّرها طيب اللـذاذاتِ!
إذ لاأروح و لا أغـدو إلى وطـن — إلا إلى رَبْـع خمّـار و حـاناتِ
أيام أسحب أذيـال الهـوى مـرحاً — مصرّعاً بـين سكـرات و نشـواتِ
عـوّضت مـنهنّ أحـزاناً تـؤرّقني — بعد السرور و فرحات بـترحـاتِ
لو لا عـذار تـعالى كـيف صـوّره — ربّ العـباد لتـعذيبي و حسـراتي
كأنّه مشقة مِـن خـدّ مَـن شـقيت — روحي بهجرانـه أوعـطف نـوناتِ
لمَـا حـللت بـدار مـاالها أحـد — إلّا أُناس تواصَـوا بـالخساساتِ...
يا من غدت أوجهُ الأيّـام مـشرقة — بجـوده مسـتهلّات مـنيراتِ
مالي بلا سبب غودرت مـطَّرحاً؟! — و قد حُرمت عـطاياك الجـزيلاتِ
و لي مـدائـح قـدماً فـيك سـائرةٌ — مسـتطرفات بألفـاظ طـريفاتِ[١]

إلي غير هذا من أبيات و قصائد، و في أغلبها يذكر الإمامَ الفاطمي كلّما وسعه فنّه و مواهبه الشعرية؛ فهو لايستطيع أن يـغفل الخـليفة، و ذلك لقـوة الإمام و الخلافة الفاطمية إذ ذاك.

مات أبو الرقعمق في يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان، و قيل: في

---

١. يتيمة الدهر ٣١٤/١ ـ ٣١٥.

شهر ربيع الآخر سنة تسع و تسعين و ثلاثمائة (٣٩٩) بمصر.

مصادر ترجمته

آداب اللغة العربية ٢/٢٦٤. الأعلام ١/٢٠٢. شذرات الذهب ٣/١٥٥. الغدير ٤/١١١ ـ ١١٧. مرآة الجنان ٢/٤٥٢. معاهد التنصيص ١/٢٢٦. معجم المؤلفين ٢/٨٣. وفيات الأعيان ١/٤٢. يتيمة الدهر ١/٣١٠ ـ ٣٣٤.

عبد المحسن الصوري

(۳۳۹ ـ ۴۹۱هـ.)

عيونٌ منعن الرُّقادَ العيونا ... جعلن لكلِّ فُؤاد فُنونا
فَكُنَّ المنى لجميع الورى ... و كُنَّ لمن رامهنَّ المنونا
و قلبٌ تُقلّبه الحادثات ... على ما تشاء شمالاً يمينا
يصون هواه عن العالمين ... و مدمعه يستذلُّ المصونا
فمالي و كتمانُ داءِ الهوى ... و قد كان ما خفته أن يكونا؟
و كان ابتداءُ الهوى بي مجوناً ... فلمّا تمكّن أمسى جنونا
و كنت أظنّ الهوى هيّناً ... فلاقيت منه عذاباً مهينا
فلو كنتَ شاهد يوم الوداع ... رأيتَ جفوناً تناجي جفونا
فهل ترك البينُ مَن أرتجيه ... من الأوّلين والآخرينا؟
سوى حبِّ آلِ نبيِّ الهدى ... فحبُّهُمُ أملُ الآملينا
همُ عدّتي لوفاتي همُ ... نجاتي هم الفوز للفائزينا
همُ مورد الحوض للواردين ... و هم عروة اللّه للواثقينا
همُ عون من طلب الصّالحات ... فكن بمحبّتهم مستعينا!
همُ حجة اللّه في أرضه ... و إن جحد الحجّةَ الجاحدونا
همُ الناطقونَ همُ الصادقون ... و أنتم بتكذيبهم كاذبونا
همُ الوارثون علومَ النبيّ ... فما بالُكم لهمُ وارثونا؟
حقدتم عليهم حقوداً مضت ... و أنتم بأسيافهم مسلمونا
جحدتم موالاة مولاكم ... و «يوم الغدير» لها مؤمنونا
و أنتم بما قاله المصطفى ... و ما نصّ من فضله عارفونا
و قلتم: رضينا بما قُلتَه ... و قالت نفوسكمُ: ما رضينا
فأيّكمُ كان أولى بها ... و أثبت أمراً من الطيّبينا؟

و أيّكـم كـان بـعد النبي وصياً و من كان فيكم أمينا؟
و أيّكـم نـام في فـرشه و أنـتم لمـهجته طـالبونا؟
و من شارك الطّهر في طـائر و أنـتم بـذاك له شـاهدونا؟
لحَى اللّه قـوماً رأوا رُشـدكم مبيناً فضلّوا ضـلالاً مـبينا! [١]

و قال في يوم عاشوراء يمدح الإمامَ الحاكم بأمراللّه الفاطمي:

خـلا طـرفه بـالسّقم دوني يـلازمُهْ إلى أن رمى سهماً فـصرت أُسـاهمُهْ
فأصـبح بي مـا لستُ أدري أمـثلُه بجـفنيه أم لايـعدل السـقم قـاسمُهْ؟
لئن كان أخفى الصدر صداً من الجوى فـفي العـين عـنوانـاتُه و تـراجمُهْ
و لم تخـفه إنّ الهـوى خـفّ حمـله و لكـن لأنّ النـوم ليس يـلائمُهْ
و يـا رُبَّ ليـل قـصّر الذكـر طولَه فـا طـلعت حـتّى تجـلّت غـائمُهْ
و مـا نمت فـيه غـير أن لو سألتـني عن الشغل عنه قـلت مـا قـال نـائمُهْ
و لكـنّه ألقى عـلى الصـبح لونـه فوالاه يـوم شـاحب الوجـه سـاهمُهْ
كـما جـاء يـوم في المحرَّم واحـدٌ خـبا نـورُه لمّا استحلّت محـارمُهْ
طـغت عـبدُ شمس فـاستقلّ محـلّقاً إلى الشمس من طغيانها مـتراكـمُهْ
فمَـن مـبلغٌ عـنّي أُمـيّةَ أنّـني هـتفت بما قـد كـنت عـنها أُكـاتمُهْ؟
مضت أعصرٌ مـعوجّةٌ بـاعوجاجكم فـلا تـنكروا إن قـوَّم الدهـر قـائمُهْ
و جدّد عـهد المـصطفىٰ بعض أهـله و حكّم في الديـن الحـنيفيّ حـاكـمُهْ
فـيا أيُّهـا البـاكـون مـصرعَ جـدّه دعوا جدَّه تـبكي عـليه صـوارمُـهْ!
ألا أيُّهـا الثكـلى التي مـن دمـوعها إذا هـي حـيَّت مـن قـتيل جماجمُهْ!
لقد خسر الدارين مـن صـدَّ وجـهه فـلا أنت مُـبقيه و لا اللّـه راحمُـهْ

---

١. ديـوان الصـوري /٧٢، ٩٢، ١١٢ نـسـخة خـطية في مكـتبتي. أعـيان الشيعة ٥٦/٣٩، ٥٧. الغدير ٢٢٢/٤، ٢٢٨.

حــريصاً عــلى نــار الجـحيم كأنّـه يخـاف عـلى أبـوابهـا مـن يُـزاحمهْ
إلى مـن تـراه فـوّض الأمـر غـيركم إذا أنـتمُ أركـانه و دعـائمهْ
فـيالك مـنها دولة عـلويّة تبدّت بسعد «حاكم» الدّهر خـاتمهْ[1]

و له في عيد الغدير:

ولاؤك خير مـا تحت الضـميرِ و أنفَس ما تمكّن في الصدورِ
و ها أنابتُّ أحْسس منه نـاراً أمتّ بحـرِّها نـار السـعيرِ
أبـا حسـن! تـبيَّن غـدر قـوم لعهد اللّه مـن عـهد «الغـديرِ»
وقـد قـام النـبيُّ بهـم خـطيباً فـدلَّ المـؤمنين عـلى الأمـيرِ
أشـار إليـه فـيه بكـلّ مـعنى بـنوه عـلى مخـالفة المشـيرِ
فكم مِن حـاضر فـيهم بـقلبٍ يخـالفه عـلى ذاك الحـضورِ
طوى «يوم الغدير» لهم حقوداً أنـال بـنشرها يـوم الغـديرِ
فـيالك مـنه يـوماً جـرَّ قـوماً إلى يـومٍ عـبوسٍ قـمطريرِ
لأمـرٍ سـوَّلته لهـم نـفوسٌ و غـرَّتهم بـه دار الغـرورِ
و لست مـن الكـثير فـيطمئنّوا بأن اللّـه يـعفو عـن كـثيرِ[2]

الشاعر

أبو محمّد عبد المحسن بن أحمد بن غالب [طالب] بن غلبون الصوري ٣٣٩ ـ ٤١٩ هـ.

في طليعة شعراء القرن الرابع الهجري و نوابغ رجالاته؛ و قد مدّ له البقاء إلى أُوليات القرن الخامس الهجري و أحد المحسنين المُجيدين في الشعر و بديع الألفاظ و حسن المعاني و رائق الكلام و مليح النظام؛ و يُعدُّ بحق من

١ـ٢. نفس المصادر السّابقة.

محاسن أهل الشام. و الأسف أنّ كلام بعض المؤرخين و المترجمين عنه قصير جداً؛ لأنه كان في الواقع من شعراء أهل البيت المجاهرين، حتى أنّك لم تجد له ترجَمة ضافية و دراسة وافية تجمع كافَّةَ نواحي حياته الفردتَةِ و الاجتماعية و الأدبية؛ مع أن هناك شذراتٌ و مقتطفات في بعض المراجع و حكايات و روايات و أخبار لا تعتمد عليها و لا تعطينا فكرة صحيحة عنه. و هذا ربّما يرجع إلى نفس الشاعر، فقد جاء: أن المترجم له كان يرجّح الانزواء دائماً في حياته الاجتماعية، و يميل إلى العزلة و الانفراد و قلَّةِ الخروج من مدينة صور إلى غيرها من البلدان. و لهذا قلّ العارفون به و الواقفون على أحواله و شخصيّته.

و الذي يظهر من شعر المترجَم له، أنَّ الفقر و الإعدام كانا غالبَين عليه، و كان له أخٌ غنيٌّ و لكنَّه كان شديد الجفاء و الشقاء له. و قد هجاه المترجَم له عدة مرّات بقصائد؛ منها قوله من قصيدة بعد أن زار أخاه في بيته و وقع بينهما ما يسوءه و يوجعه:

و أخٌ مسّه نزولي عليه ... مثل ما مسّني من الجوع قرحُ
قيل لي إنّه جواد كريم ... و الفتى يعتريه بخل و شحُّ
بتّ ضيفاً له كما حكم الدهـ ... ـرُ و في حكمه على المرء قبحُ
فابتداني و قال و هو من السكـ ... ـرة و الهمّ طافح ليس يصحو:
لمْ تغرَّبتَ؟ قلت: قال رسول الـ ... ـلّه و القول منه نصح و نجحُ:
«سافِروا تغنموا» فقال: و قد قا ... ل تمام الحديث: «صوموا تصحّوا!»[١]

و لم يخرج الشاعر من الديار الشامية طوال حياته إلّا نادراً؛ و ذلك في أوائل شبابه إذ خرج إلى دِمَشق و فلسطين؛ هذا و يكثر ذكر صيداء و طبريه و

---

١. ديوان الصوري / ٢١. يتيمة الدهر ١/ ٣٠٠. أعيان الشعية ٣٩/ ٥٤.

الرَّملةُ في شعره؛ و الرملة يومئذ مُعسكرٌ ينزله قادةُ الفاطميين و نوّابهم. و قد اتّصل بخلفاء الفاطمية و حكّامها و أُمرائها و مدَحَهم بشعره و تعصَّب لهم، و نصر دعوتهم. و هذا يدلُّ على أنّ الفاطميّين جذبوا كثيراً من أعلام الفنون و الأدب و الفلسفه.

و قد لامه و عاتبه على هذه العزلة و الانزواء أكثر أصدقاءه من الشعراء، مع العلم أن كثرة الدواعي التي توجب خروجه من بلده الصور، و من جملتها أن مصر يومئذ بلد الفاطميين و هو يكثر من مدحهم و يتعصب لهم و ينصر دعوتهم. و من هذه الأسباب و الدواعي أن مصر أيام الفاطميين اجتذبت إليها كثيراً من أعلام الشعر و الآداب و الفلسفة؛ غير أن الفاقة و سوء تأثيرها على حياته هي التي أقعدته عن الأسفار و التنقّل في البلاد. و هو القائل:

حصلَت بمصرٍ همّتي و استوطنت و أفادني عدَمي سواها موطنا

يعني إنّ هواي جعل مصر لي موطناً، و لكن قلّة ذات يدي أكرهتني على الإقامة في بلد آخر. فكان قليل الأسفار حتى في إبّان شبابه. أما بعد تقدُّمه في السن فقد لزم صور، لزمها و هو في سنّ السبعين إلى أن توفّي فيها سنة ٤١٩ هـ. و عمره ثمانون سنة أو أكثر.

و لهذا الغرض من إقامته في صور و عدم خروجه منها، كتب إليه الشاعر المُفْلق أحمد بن سليمان الفجري هذه الأبيات:

أعبدَ المحسن الصوريَّ، لِمَ قد جثمتَ جثوم منهاضٍ كسيرِ؟
فإن قلت: العيالةُ أقعدتني على مضض و عافت عن مسيري،
فهذا البحر يحمل هضب رضْوَى و يستثني بركن من ثبيرِ
و إن حاولتَ سيْرَ البرّ يوماً فلستَ بمثقلٍ ظهر البعيرِ

إذا استحلى أخوك قلاك يوماً فمثلُ أخيك موجود النظيرِ
تحرّكْ علّ أن تلقى كريماً تزول بقربه إحَنُ الصدورِ
فما كلُّ البريّة مَن تراه ولا كلُّ البلاد بلاد صورِ

فأجابه الشاعر عبدالمحسن بقوله:

جزاك اللّه عن ذا النصح خيراً ولكن جاء في الزّمن الأخيرِ
وقد حدَّت لي السبعونَ حدّاً نهى عمّا أمرتَ من المسيرِ
ومذ صارت نفوسُ الناس حولي قصاراً عذتُ بالأمل القصيرِ [1]

ومن شعره:

أنستُ بوحدتي حتّى لواني رأيت الأُنس لاستوحشتُ منهُ
ولم تدعِ التجاربُ لي صديقاً أميل إليه إلّا ملت عنهُ [2]

وأعطاه بعضُ الأمراء عِمامةً حسنة فلبسها أياماً؛ ثم باعها، ولبس عمامة لطيفة ومشى؛ فقال بعض من رآه: ثقُلَت عليه العمامة فباعها؛ فقال ارتجالاً:

قالوا عسى ثقلت عليـ ـه فباعها من غير عدمِ
واللّهِ ما ثقلت عليّ عمامتي بل خفّ كمّي [3]

والصوريُّ في عصره كان يُعدّ من شيوخ الأدب، فهو شيخ المَعريّ لأن المعريَّ عاش بعده ثلاثين عاماً، والتقيا بالشام في مكان ما؛ ولكن لايُعلم أنّه

١. يتيمة الدهر ٣٠٩/١، أعيان الشيعة ٥٣/٣٩، الغدير ٢٣٠/٤.

٢. أعيان الشيعة ٥٥/٣٩.

٣. يتيمة الدهر ٢٩٦/١.

كان ذلك قبل رحلة المعريّ إلى بغداد أم بعد ذلك. و مهما يكن من شيء فالعلاقة بين الشاعرين لم تكن وثيقةً قبل تلمّذه على يديه، مع أنهما متعاصران ينتميان إلى وطن واحد و هو الشام. و ربّما كان ذلك لمكان الإختلاف بينهما في الرأي و العقيدة و الخلق و المذهب. و لكن في ديوان المترجم له أبيات تدلّ دلالة صريحة على وقوع الاجتماع بين الشاعرين. و كما يعلم أن المجلس الّذي ضمّهما كان مجلس محاورة أو مناظرة بين الرجلين. أما أين كان اجتماعهما فلم يُعلم من ذلك شيء.

فقد قال الصوري: إنّ المعريَّ وافقه على القول بالبعث و اليقين و بالآخرة، و أنّه لايميل إلى آراء الملاحدة. قال المترجَم :

نجا المَعرّيُّ من العارِ	و من شناعاتٍ و أخبارِ
وافقني أمس على أنه	يقول بالجنّة و النّارِ
و أنّه لاعاد من بعدها	يصبو إلى مذهب بكّارِ[١]

و قد مدح المترجَم خلفاءَ عصره من الفاطميين، و تأثّر بعقائدهم حتى عُدّ من شعراء أهل البيت المهاجرين، لما تطفح على شعره و شعوره نزعته الطائفية و تعصبه للبيت النّبوي و جاهر في مدح العترة الطاهرة بقصائده، منها قوله من قصيدة مطلعها:

نَكَرتْ معرفتي لمّا حكمْ	حاكمُ الحبِّ عليها لي بدمْ
فبدتْ من ناظريها نظرةٌ	أدخلتها في دمي تحت التّهمْ
و تمكّنتُ فأضنيت ضنىً	كان بي منها وأسقمت سقمْ
و صبت بعد اجتناب صفوة	بدّلت من قولها: لا، بنعمْ

---

١. ديوان الصوري / ٩٦ نسخة خطية بمكتبتي. أعيان الشيعة ٥٣/٣٩. و كلمة «بكار» في البيت الثالث أضنّها تصحيفة، و إن كانت النسخ الخطية كلّها هكذا، إذ لا معنى لها. و الأصحُ عندي «بشار» و هو اسمُ الشاعر الأعمى المشهور المعدود من الملاحدة.

و فقدتُ الوجد فيها و الأسى فــــتألّمت لفــــقدان الألمْ
مــا لعــيني و فــؤادي كــلّما كتمت باحَ، و إن باحت كــتمْ؟
طــال بي خُــلفهما فــاتّفقت لي هــمومٌ في الرزايــا و همــمْ
ورزايــا المــصطفىٰ في أهــله فأتحــات للــرُّزايــاو خــتمْ
يا بني الزهـراء مـا ذا إكـتست فيكم الأيـام مـن عـتب و ذمْ؟
يـا طـوافاً طـاف طـوفان بـه و حـطيماً بـقنا الخـطّ حـطمْ
أيُّ عــهد يُــرتجى الحـفظ له بعد عهد اللّـه فـيكم و الذمـمْ
لا تســلّيت و أنــوارٌ لكــم غشيتها من بـني حـرب ظُـلمْ
ركــبوا بحــر ضـلال سـلموا فيه و الإسلام فـيهم مـا سـلمْ
ثمّ صــارت ســنّةً جــارية كـلُّ مـن أمكـنه الظـلمُ ظـلمْ
و عــــجيبٌ إنّ حــقاً بكــم قام في النـاس و فـيكم لم يـقُمْ
و الولا فــهو لمــن كـان عـلي قول عبد المحسن الصوري قسمْ
و أبــيكم و الّــذي وصّي بـه لأبيكم جدّكم في «يـوم خُـمْ»
لقــــد احــتجَّ عــلى أُمّــته بــالّذي نـالكم بـاقي الأُمـمْ[١]

و قال في مدح الإمام العزيز باللّه الفاطمي :

جفن على شوك القـتادة مـطبقُ و جوى إلى حيث الكنانة يسبقُ
و يكون كالظن البـعيد لعـاندي كــمدي فما يـنفك أو يـتحقّقُ
أيــطيق كـتمان الصـبابة مـن له في كلّ جارحـةٍ لسـان يـنطقُ؟
و كأنّمــا دم قــلبه مــن عـينه نــار يــطير لهــا شرار محـرقُ
و كأنَّ وجنتَه حـنينة عـاكـف و الدمــع قـنديل عـليه مـعلّقُ
إلحــق سرائــرك التي أركـبتها خيل الدموع فـإنّها لا تـلحقُ[٢]

و له رائياً شيخ الطائفة المفيد محمدبن محمدبن النعمان البغدادي المتوفى

---

١. أعيان الشيعة ٥٦/٣٩. الغدير ٢٢٤/٤.

٢. أعيان الشيعة ٥٥/٣٩. ديوان الصوري ١٣٤/(خ).

٤١٣ هـ. و أوّلها قوله:

يـــا له طـــارقاً مـــن الحـــدثان | ألحـــقَ ابـنَ النـعمان بـــالنعمانِ
بـــرئت ذمّـــة المـــنون مـــن الإيـ | ـمان لمـــا اعـــتدت عـــلى الإيمـــانِ
و اســتحلَّ الورى محـــارم ديـن الـ | ـلّـــه ويـــل الورى مـــن الدّيـــانِ
و أرى الناس حيث حـلّوا مـن الأر | ض و حـيث انـتحوا مـن الأوطـانِ
يـــطلب المـــفيد بـــعدك و الأسـ | ـــماء تمـضي فكـيف تـبق المـعاني
فـــجعة أصـبحت تـبلّغ أهـلَ الشـ | ـــام صـوتَ العـويل مـن بـغدانِ[1]

و قوله في صبيٍّ اسمه عمر:

نادمني من وجـهه روضـة | مـشرقة يمـرح فـيه النَّـظَرْ
فانظُرْ معي تنظرْ إلى معجزٍ | سيف عليٍّ بين جَفنَيْ عمرْ[2]

و قال:

بالّذي ألهـم تـعذيبي | ثـناياك العـذابـا
و الّـذي ألبس خـدَّ | يك مـن الورد نـقابا
و الّذي أودع في فيك | مـن الشهـد شرابـا
و الّذي صيّر حـظّي | منك هَجراً واجـتنابا
ما الّذي قـالته عـينا | ك لقـــلبي فأجـــابا
و الّذي قالته للـدّمع | فـــواراهـــا انـصبابا
يا غـزالاً صـاد بـاللّـ | ـحظِ لقـلبي فأصـابا

---

١. أعيان الشيعة ٥٧/٣٩ و ٢٥/٤٦.

٢. يتيمة الدهر ٢٩٨/١. الغدير ٢٢٥/٤.

عُـمرك اللّـه بـصبّ لايُـرى إلا مـصابا![1]

و قال يهجو :

حديثُه كـالحدث يرفث كلّ الرَّفَثِ
يودّ مـن يسـمعه لوانَّهُ في جـدثِ[2]

مات عبدالمحسن الصوري يوم الأحد تاسع شوال سنة ٤١٩ هـ. و خلّفه على شاعريّته و عبقريّته و أدبه، ولده عبد المنعم الصوري.

مصادر ترجمته

الأعلام ٢٩٥/٤. أعيان الشيعة ٥٢/٣٩ ـ ٥٩. أمـل الآمـل ١١٤/١. البداية و النهاية ٢٥/١٢. خريدة القصر؛ قسم شـعراء الشـام ٨/١. شـذرات الذهب ٢١١/٣. العبر في خبر من غبر ٢٣٧/٢. الغدير ٢٢٢/٤ ـ ٢٣١. الفوائد الرضوية /٢٥٧. الكامل في التاريخ ٣٣٤/٧. الكنى و الألقاب ٤٣٠/٢. مـعالم العلماء /١٣٩. مرآةالجـنان ٣٤/٣. مـعجم البـلدان ٨٦٩/١. مـعجم المـؤلفين ١٧٣/٦. النجوم الزاهـرة ٢٦٩/٤. وفـيات الأعـيان ٣٠٨/١. يـتيمة الدهـر ٢٩٦/١ ـ ٣٠٩.

---

١. يتيمة الدهر ٢٩٧/١. الغدير ٢٢٩/٤.

٢. يتيمة الدهر ٣٠٢/١.

محمّد الصوري

(٣٧٦ـ ٤٤١هـ.)

ثم رقـــا عـــلوّه إلى الهـبل | لـمـاله خـيـر النـبيّين حـمـلْ
فـــحطّه وصــار بــالأقدامِ | يداس طـولَ الدهـر و الأيّـامِ
و أسلم النـاس عـلى ضروب | و اختلط الصـادق بـالكذوبِ
و كـــلّهم جـاءوه لمّـا سـلموا | و استلمسوا لأمـره و سـلّموا
و بـــعد ذا وقـــائع مـــذكورهْ | معروفة بين الورى مـشهورهْ
فأنـــزل اللّـــه عـــلى نـــبيّهِ | أن يُظهر النـصَّ عـلى وصـيّهِ
فـخاف مِـن أصـحابه لعـلمه | بكيدهم و مـانَووْا مـن ظـلمهِ
و قيل لاتشرك فـإن أشركتَ | ليحبطنّ اللّه كـلّ مـا عـملتَ
فقم و بـلّغْ لا تخـف فـرحمـتي | تنالك اليومَ و كن في عـصمتي
فـقام في يـوم «غـديرخـمّ» | و قال: حكم اللّه غـير حكـمِ
من كـنت مـولاه فـذا مـولاهُ | فـوال ـ يـا ربّ ـ الذيوالاهُ!
فمـــن له والٍ فـــقد والاكَ | حقّاً و مـن عـاداه قـدعاداكَ
ياربِّ، قد بـلّغتُ مـا أمـرتني | فاشهد و عجّل ما به أمرتني![1]

الشاعر

هو الداعي الإسماعيليُّ الأجلُّ أبو عبداللّه محمّد بن علي بن عبداللّه بن محمّد أبو عبداللّه الصوري الحافظ؛ ولد بصور سنة ست و سبعين و ثلثمائة (٣٧٦) و نشأبها و هي السّنة الحادية عشرة من ولاية العزيز نزار على مصر، و أخذ في طلب الحديث بعد ما كبِر وأسنّ ورحل في طلبه إلى الآفاق و الأمصار الإسلامية و كتب الكثير و صنف و انتهى به المطاف إلى مصر؛ فلازم مجلسَ

---

١. العقيدة الصوريّة ط / ٦٥. لم يذكره مؤلف كتاب «الغدير» كما لم نجده في «أمل الآمل».

الحافظ عبدِالغنيِّ المصري[1] و كتب تقريراتِه و محاضره و شيئاً من تصانيفه، و قرأ عليه ما كان قد وجده و حرّره قبل أن يجتمع بالحافظ عبدالغني؛ و عنده توصّل إلى العقيدة الفاطميّة، و اتّصل بالبلاط شيئاً فشيئاً. وزادت وشائج الحُبّ و العلاقة بينه و بين قادة الركب الأدبي الفاطمي، بعد أن لوحظ فيه التفوّق و النبوغُ الشعريُّ، إلى جانب مكانته العلمية و اطّلاعه الواسع في الحديث و الفقه.

كان المترجَم له من أعظم أهل الحديث؛ همُّه في الطلب و هو شابٌّ، ثمّ كان من أقوى الناس على العمل الصالح عزيمة في حال كبَره. و كان يسرد الصَّومَ إلّا يومَي العيدين و أيام التشريق. و كان مع ذلك حسَنَ الخلق جميل المعاشرة؛ و قد ذهبت إحدى عينيه، و كان يكتب بالأخرى المجلد في جزء. قال ابوالحسن الطيوري : يقال أن عامّة كتب الخطيب البغدادي[2] سوى التاريخ مستفادة من كتب أبي عبدالله الصوري، كان قد مات الصوريُّ و ترك كتبَهُ اثني عشر عدلاً عند أخيه؛ فلما صار الخطيب أعطى أخاه شيئا و أخذ بعض

---

١. أبو محمّد عبدالغني بن سعيد بن بشر بن مروان بن عبدالعزيز بن مروان الأزدي المصري ٣٣٢ ـ ٤٠٩ هـ.

محدث، حافظ، نسّابة؛ و رحل إلى الشام و سمع الكثير، و انتفع به خلق غفير. له تصانيف منها: المؤتلف و المختلف في أسماء الرواة. مشتبه النسبة. المتوارين (ذكر فيه من هرب من الحجاج و توارى عنه). الغوامض. آداب المحدّثين.

البداية و النهاية ٧/١٢. حسن المحاضرة ١٩٩/١. شذرات الذهب ١٨٨/٣. معجم المؤلفين ٢٧٣/٥. طبقات الحفاظ /٤١١. النجوم الزاهرة ٢٤٤/٤. وفيات الأعيان ٣٨٤/١.

٢. أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي ٣٩٢ـ٤٦٣ هـ.

محدث الشام و العراق؛ من كبار الشافعية، آخر الأعيان معرفة و حفظاً و إتقاناً و ضبطا للحديث، و تفننا في علله و أسانيده. من تصانيفه: تاريخ بغداد. السابق و اللاحق. الكفاية. الرواة عن المالك. أسماء المدلسين. الجامع. شرف أصحاب الحديث. الموضح. تلخيص المتشابه.

البداية و النهاية ١٠١/١٢. شذرات الذهب ٣١١/٣. طبقات السبكي ٢٩/٤. العبر ٢٥٣/٣. طبقات الحفاظ /٤٣٤. مرآة الجنان ٨٧/٣. المنتظم ٢٦٥/٨. النجوم الزاهرة ٨٧/٥. وفيات الأعيان ٢٧/١.

تلك الكتب فحوّلها في كتبه[1].

لقد حبّب إلى نفسه الولاء الفاطمي و آمن و اعتنق، و دافع و هاجر بدعوتهم لاعتباره جزءً من عقيدته. و بعد أن توفّي شيخه سنة ٤٠٩ هـ. رحل و واصل سيره في طلب الحديث، و خرج من مصر و هو على غير النهج الذي دخله؛ فكلّه مشرب بالإيمان و الحبّ للفاطميين، و لم يفتأ لسانه يلهج بهم. و عاد إلى مسقط رأسه (صور) فمكث بها ردحاً من الزّمن و وضع فيها عدَّةَ قصائد و منظومات، تناول فيها شرحَ عقائد الفاطميّين و بيانَ أهدافهم و نظمهم الدينية و الاجتماعية و الفردية و أخير احتفالاتهم و أعيادهم المذهبية.

ثم رحل إلى بغداد سنة ٤١٨ هـ. و مكث بها إلى أن توفي سنة ٤٤١ هـ. و كان سببَ موته أنه افتصد فورمت يده؛ و على ما ذكر أن ريشة الفاصد كانت مسمومة لغيره فغلط ففصده بها فكانت فيها منيّتُه.

و قد ترجَم له أصحاب المعاجم و السير، و ذكروه بالثناء و التعظيم؛ و أنّه كان إماماً صحيح النقل، دقيقَ الخط، صائماً لا يفطر إلّا في العيدين و أيّام التشريق. و كان حسنَ المحاضرة[2] و أنه كان من أحرص الناس على الحديث، و أكثر كتباً له و أحسنهم معرفة به؛ و لم يقدم بغداد من الغرباء الذين لقيتهم أفهم منه بعلم الحديث.[3] و قال أبوالحسين ابن الطُّيُوريِّ[4]: ما رأيت أحفظَ من

---

١. البداية و النهاية ٦٠/١٢.

٢. النجوم الزاهرة ٤٨/٥.

٣. تاريخ الخطيب البغدادي ١٠٣/٣.

٤. أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار بن أحمد بن القاسم بن أحمدبن عبداللّه بن طيور البغدادي الصيرفي ٤١١ـ ٥٠٠هـ.

عالم، محدث، شيخ مشهور مكثر، أثنى عليه أئمةُ الحديث، و أنه محدث كبير مفيد ورع؛ رافق الصوريّ و استفادمنه، و جمع و خرج؛ و كان مكثرا صالحاً أميناً صدوقا، صحيحَ الاصول صيناً و قوراًكثير الكتابة.

←

الصوري، و كان بفرد عين، و كان متفنناً يعرف من كل علم، و قوله حجة و عنه أخذ الخطيب (البغدادي) علم الحديث و له شعر رائق...[1] إلى غير هذه من الكلمات التي إن دلّت على شيء فإنما تدلُّ على علمه الجمّ، و غزارةِ نبوغه الأدبي و تفوُّقهِ العام في الحديث.

و من شعره قولُه :

تـولّى الشّـبابُ بـريعانهِ	و اتى المشيبُ [؟] بأحـزانـهِ
فـقلبي لفـقدان ذا مـؤلمٌ	كـئيب لهـذا و وجـدانـهِ
و إن كـان مـاجار في حـكمه	و لاجـاء في غـير إبّـانهِ
ولكـن أتى مـؤذناً بـالرحيـ	ل فويليَ من قُـرب إيـذانـهِ!
و لولا ذنـوبٌ تحـمّلتها	لمـا راعـني [.... ؟] إتـيانهِ
ولكـنَّ ظـهري ثـقيل بمـا	جـناه شـبابي بـطغيانهِ
فمن كان يبكي شـباباً مـضى	و يـندب طـيب زمـانهِ[2]؟
فـليس بكـائي و ما قـد تـرَ	ون مـني لوحشـة فـقدانـهِ
و لكـن لمـا كـان قـد جـرّه	عـليَّ بـوثبات شـيطانهِ
فـويلي و ويحـيَ إن لم يجُـد	عـليَّ مـليكي بـرضوانـهِ
و لم يـتغمّد ذنـوبي و مـاقد	جنيت برحمته و غفرانـهِ [؟]
و يجـعل مـصيري إلى جـنّةٍ	يحـلّ بهـا أهـلُ رضـوانـهِ
فإن كنت مـالي مـن طـاعةٍ	سوى حُسن ظني بـإحسانهِ

←

العبر في خبر من خبر ۲ /۳۸۰. شذرات الذهب ۳/ ٤۱۲. الكامل في التاريخ ۸/ ۲٤٥. لسان الميزان ٥/ ۹. ميزان الاعتدال ۳/ ٥. معجم المؤلفين ۸/ ۱۷۲. سيرُ أعلام النُّبلاء ۱۹ / ۲۱۳ـ ۲۱٦.

۱. شذرات الذهب ۳/ ۲٦۷.

۲. كذا في المصدر و لعلّه : و يندبُ طيِّبَ أزمانه.

و إني مــقرّ بـتو حـيده ... عـليمٌ بـعزّة سـلطانهِ
أُخالف في ذاك أهـلَ الهـوى ... و أهل الفسـوق و عـدوانـهِ
و أرجو بـه الفـوز في مـنزل ... مـعدّ مـهياً لسكّـانهِ
ولن يجمعَ اللّه أهـل الجـحو ... د و مـن [...] أقرّ بـنيرانـهِ
فـهذا يُـنجّيه إيمـانُه ... و هـذا يَـبوء بخسرانـهِ
و هـذا يـنعَّمُ في جـنة ... و ذاك قـرين لشـيطانهِ[۱]

و قال أيضاً :

قل لِمن عاند الحديث و أضحى ... عـائباً أهـله و مَن يـدَّعيهِ
أبـعلمٍ تـقولُ هـذا أبـن لي ... أم بجهلٍ؟ فالجهل خلقُ السَّفيهِ
أيُعاب الذيـن هـم حـفظوا الد ... يـن مـن التُّرَّهـات و التمـويهِ؟
و إلى قـولهم و مـا قـد روَوْه ... راجـعٌ كـلُّ عـالم و فـقيهِ[۲]

قال الخطيبُ البغدادي : ولم يقدم علينا من الغرباء الذين لقيتُهم أفهم منه بعلم الحديث؛ و كان دقيقَ الخط صحيح النقل؛ وحدَّثني أنه كان يكتب في وجه ورقة من أثمان الكاغد الخراساني ثمانين سطراً؛ و كان مع كثرة طلبه و كـتْبه صعبَ المذهب فيما يسمعه، ربما كرّر قراءة الحديث الواحد على شيخه مرّات. كتب عن أبي الحسين بن جميع بصيدا، و هو أسند شيوخه، ثم صحب عبدَالغني ابن سعيد المصري، فكتب عنه و عمَّن بعده من المصريين و غيرهم؛ و ذكرلي أيضاً أنَّ عبد الغني بن سعيد كتب عنه أشياء في تصانيفه و صرّح بـاسمه في بعضها، و قال في بعضها: حدّثني الورد بن عليّ كناية عنه و كان صدوقاً[۳].

---

۱. البداية و النهاية ۱۲/ ٦۰ـ ٦۱.

۲. المصدر السّابق. تذكرة الحفاظ ۳/ ۱۱۱۷.

۳. تاريخ الخطيب البغدادي ۳/ ۱۰۳.

لقد صنّف المترجَم له قصائد كثيرة و رسائل عديدة أشهرهم: التحفة الزاهرة، ونفحات الأئمة. و نظراً لأن صناعة الأراجيز في العهود الفاطمية شاعت و استعملت للدعاية و للتعبير عن المواضيع الفلسفية و التعاليم العقائدية، فقد نظم الشاعر قصيدته الصورية، و بحقٍّ جاءت تحفةً نادرةً ذات ترتيب بديع لا يختلف عن ترتيب الدعاة الإسماعلية الكبار. ففيها الافتتاحية بالحمد و الثناء ثم التجريد و التنزيه و التوحيد ثم التفريق بين الأحد و الواحد و حدوث العالم و الدهر، و الردُّ على التنوية و التالوثية و نكران حججهم. و بعد ذلك ينقل الصوري فيعدِّدُ لنا مراتب الحدود العلوية و أسمائها و أفعالها و تأثيراتها، و مطلعها قوله:

الحمد لله مُعِلِّ العِللِ … و مبدعِ العقل القديم الأزلِ
أبدعه بأمره العظيم … بلا مثال كان في القديمِ
و صيَّر الأشياء في هويّتهْ … مجموعة بأسرها في قدرتهْ
فهو لها أصلٌ كريمٌ يجمعُ … فمنه تبدو و إليه ترجعُ
سبحانه من مالك ديّانِ … اَلعقلُ و النّفس له عبدانِ
جلَّ عن الإدراك في الضمائر … و الوصف بالأعراض و الجواهرِ

و بعد ذكره لبحوث عقائدية على ضوء الجدل و المناقشة، فيذكر الإمام أمير المؤمنين ـ عليه‌السلام ـ و يعدّ مناقبه و مواقفه في الحروب؛ ثم يأتي على ذكر واقعة «غدير خم» فيقول :

ثم رقا علوّه إلى الهُبَلْ … لما له خير النبيّين حملْ

و القصيدة تقع في ٩٣٧ بيتاً على النَّهج المذكور، و يختمها بالدعاء للخلفاء الفاطميين، و تنتهي بالأبيات التالية:

و صلِّ ـ يا ربِّ ـ على المختار　　محمّد المخصوص بالأنوارِ
و آله الأطهار ساداتِ الورى　　من نسل مولانا الإمام حيدرا
صلّ عليه ـ ربَّنا ـ و سلِّما　　ما غربتْ شمس و ليل أظلما

قام بطبعها المعهدُ الفرنسي بدمشق في سنة ١٩٥٥م. و تقع في ٧٤ صحيفة بتحقيق و تقديم الأُستاذ العلّامة عارف تامر.

مات ببغداد في يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى و أربعين و أربعمائة (٤٤١ هـ.) و دفن من الغد في مقبرة جامع المدينة؛ و قد نيف عن الستّين.

مصادر ترجمته

البداية و النهاية ٦٠/١٢. تاريخ بغداد ١٠٣/٣. تذكرة الحفّاظ ١١١٤/٣. شذرات الذهب ٢٦٧/٣. طبقات الحفاظ /٤٢٨. العبر ١٩٧/٣. الكامل في التاريخ ٥٦١/٩. معجم المؤلفين ٢٤/١١. النجوم الزاهرة ٤٨/٥.

المؤيّد داعي الدعاة

(حدود ٣٩٠ ـ ٤٧٠ هـ.)

قـال و الرّحـل للسُّرى محـمولُ: حَقّ منك النّوى و جـدَّ الرحـيلُ
وعـدا الهـزل في القـطيعة جـدّاً مـا كـذا كـان مـنك لي المأمـولُ
قـلتُ و القـلب حـسرةً يـتقلّى و على الخـدّ دمـع عـيني يسـيلُ:
بأبي أنت مـا اقـتضى البـينَ إلّا قـدرٌ ثمَّ عـهدُك المسـتحيلُ!
كم و كم قلت: خـلّني يـا خـليلي من جـفاء مـنه الجـبال تـزولُ؟
إنّمـا أمـره لديك خـفيفٌ و هـو ثـقلٌ عـلى فـؤادي ثـقيلُ
إنّك السـالم الصـحيحُ و إنّي ـ من غـرامٍ بك ـ الوقـيذُ العـليلُ
قـال: قـد مرَّ ذا فـهل مـن مُـقامٍ عـندنا؟ قـلتُ: مـا إليـه سـبيلُ
قـال: إنّي لدى مـرادك بـاقٍ قـلت: مـا إن تـفي بمـا قـد تـقولُ
قال: أضرمتَ في الحشى نارَ شوقٍ حـرُّ أنـفاسها عـليها دليـلُ
قلتُ: حسبي الذّي لقيت هـوانـاً فـلقاء الهـوان عـندي يهـولُ
فـقبيح بيَ التّـصابي و هـذا عسكرُ الشَّيب فوق رأسي نـزولُ

****

إنّ أمـر المـعاد أكـبرُ همّـي فـاهتمامي بمـاعداه فـضولُ
كـثُر الخـائضون بحـر ظـلامٍ فـيه و المـؤنسو الضياء قـليلُ
قال قوم: قُصرى الجميع التّلاشي فـئةٌ مـنتهاهم التّـعطيلُ
و ادّعى الآخرون نسخاً و فسخاً و لهـم غـير ذاك حشـوٌ طـويلُ
و أبـوْا بـعد هـذه الدارِ داراً نحـوها كـلُّ مَـن يـؤول يـؤولُ
لم يـروا بـعدها مَـقام ثـوابٍ و عـقابٍ لهـم إليـه وُصـولُ
فـالمثابون عـندهم مـترفوهم و لذي الفـاقة العـذابُ الوبـيلُ
قـال قـوم و هـم ذوو الصّدد الجـمُ: لنـا الزنجـبيل و السّـلسبيلُ

و لنـــا بـــعَد هـــذه الدّار دارٌ طاب فيها المشروب و المأكـولُ
و لكــلٍّ مــن المـقالات سـوقٌ و إمـــامٌ ورايـــةٌ و رعـــيلُ
مـــالهم في قـــبيل عـــقلٍ كـــلامٌ لا و لا في حمـــى الرّشـــاد قـبولُ
أمّـــةٌ ضـــيّع الأمـــانةَ فـــيها شيخُها الخـاملُ الظّـلوم الجـهولُ
بئس ذاك الإنسان في زُمـرالإنس و شـــيطانه المخـــدوع الخـذولُ!
فـهم التـائهون في الأرض هـلكاً عـــقدُ ديـن الهُـدى بهـم محـلولُ
نكســـوا ويـــلهم بـــبابلَ جـهراً جُمـــلٌ ذا وراءهـــا تـــفصيلُ
مُـــنعوا صـفو شربـة مـن زلال ليس إلّا بـــذاك يشـــفي الغـــليلُ
ملّكوا الدّيـن كـلَّ انثى و خـنثى و ضـعيفٍ بـغير بأس يـصولُ ...
لوأرادوا حـــقيقة الدّيـــن كـانوا تـــبعاً للـــذي أقـــام الرّســـولُ
و أتت فـيه آيـةُ النصّ: «بلّغ» يـومَ «خُـمٍّ» لمّـا أتى جـبريلُ
ذاكـم المـرتضى عـليٌّ بحـقٍّ فـــبعُليـــاه يـنطق التـنزيلُ
ذاك بـــرهان ربِّـــه في البرايـــا ذاك في الأرض سـيفه المسلولُ
فأطيعوا جحداً أُولي الأمر منهم فـــلهم في الخـــلائق التّـفضيلُ
أهـــل بـــيت عـليهم نـزل الذّكـ رُ و فـــيه التّـحريم و التّـحليلُ
هـم أمـانٌ مـن العـمى و صراطٌ مســـتقيم لنـــا و ظـــلٌّ ظـليلُ[1]

و له من قصيدة أُخرى :

ألا مـــا لهـــذي السما لاتمـورُ؟ و مـــا للـــجبال تُـرى لاتســيرُ؟
ولِـــلشمس مـاكـوّرت و النـجوم تُـــضيئ و تحت الثرى لاتـغورُ؟
و للأرض ليست بهـــا رجـــفةٌ و مـــا بـــالها لاتـــفور البـحورُ؟
و مـــا للـــدما لاتحـاكـي الدمـوعَ فـتجري لتـبتلّ مـنها النُّحورُ؟

---

١. ديوان المؤيد داعي الدعاة ٦/٢١٥ـ٢١٨، الغدير ٤/٣٠٤.

أتسبق القلوبُ لنا لاتُشقّ جوى و لوأن [؟] القلوب الصخورُ؟
ليومٍ ببغداد ما مثله عبوس يراه امرؤٌ قمطريرُ
و قد قام دجّالها أعورٌ يحفُّ به من بني الزّور عورُ
فلا حَدبٌ منه لاينسلون و لابقعةٌ ليس فيها نفيرُ
يرومون آلَ نبيِّ الهدى ليُردَى الصغيرُ و يفنَى الكبيرُ
لتنهبَّ أنفس أحيائهم و تُنبش للميّتينَ القبورُ
و من نجل «صادق آل العبا» ينال الذّي لم ينله الكفورُ
فموسى يشقّ له قبره و لمّا أتى حشره و النشورُ
و يُسعَر بالنار منه حريمٌ حرام على زائريه السعيرُ
و تُقتل شيعة آل الرسول عُتوّاً و تُهتك منهم ستورُ
فوا حسرتا لنفوسٍ تسيل و يا غَمَّنا لرؤوس تسطيرُ
و ما نقموا منهمُ غير أنَّ وصيَّ النبيِّ عليهم أميرُ
كما العذر في غدرهم بغضهم لمن فرض الحبّ فيه «الغديرُ»
فيا أُمّةً عاث فيها الشقاء! فوجه نهار هداها قتيرُ
و شافعها خصمُها في المعاد لها الويل من ربّها و الثبورُ
قتلتم حسيناً لملك العراق و قلتم أتاكم له يستثيرُ
فما ذنب موسى الذي قد محت معالمه في ثراه الدهورُ؟
و ماوجه فعلكم ذا به لقد غرّكم بالإله الغرورُ
أيا شيعة الحقّ! طاب الممات فيا قوم! قوموا سراعاً نثورُ!
فإمّا حياةٌ لنا في القصاص و إمّا إلى حيث صاروا نصيرُ
أ آلَ المسيَّب، ما زلتم عشيرَ الولاء فنعم العشيرُ
و يا آلَ عوف، غيوث المحول ليوثاً إذا كاع ليث هصورُ
أ آل النّهى و النّدى و الطعان و حزب الطّلى حين حرّ الهجيرُ
أصبراً على الخسف؟ لاهمُّكم دنيٌّ و لا الباعُ منكم قصيرُ

أُتهتك حرمةُ آل النبيِّ / و في الأرض منكم صبيٌّ صغيرُ؟
و قبر ابن صادق آل الرّسول / يُمسُّ بسوءٍ و أنتم حضورُ؟
و لمّا تخوضوا بحار الرّدى / و في شَعبه تنجدوا أوتغوروا
لقد كان يوم الحسين المُنى / فتُفدى نفوس و تُشفى صدورُ
فهذا لكم عاد يوم الحسين / فماذا القصورُ؟ و ما ذا الفتورُ؟
فمدّوا الذراع و حدّوا القراع! / فيوم النواصب منكم عسيرُ
و ولّوا «ابن دمنة» أعماله / تبور كما المكرمنه يبورُ
فقتلاً بقتل و ثكلاً بثكل / ذروه تجزُّ عليه الشعورُ[1] ...

الشاعر

أبو نصر المؤيد في الدين هبة اللّه بن موسى بن داوود الشيرازي السلماني (حدود ٣٩٠ ـ ٤٧٠ هـ.) أوحديٌّ من حمَلة العلم، و فذٌ من أفذاذ الأُمة، و عبقريٌّ من جلّة أعلام العلوم العربية، و نابغةٌ من نوابغ الأدب العربي؛ و له نصيبه الوافر من القريض بلغة الضاد؛ و إن ولد في قاعة الفرس و نشأ في مهدها. و كان من الدعّاة إلى الفاطمية منذ بلغ أشُدّه في كل حاضرة حلّ بها؛ و له في تلك الدعوة خطوات واسعة. و هو كما وصف نفسه للمستنصر باللّه بقوله: و أنا شيخ هٰذه الدعوة و يدها و لسانها و من لا يماثلني أحد فيها. و قد كابد دون تلك الدعوة كوارث، و قاسى نوازل ملمّة، و عانى شدائد فادحة، غير أنه كان يستخف ورائها كل هامّة و لامّة، و لم يك يكترث لأيِّ نازلة[2].

ولد بشيراز في سنة لم يحدّدْها لنا التاريخُ و لم يحدّثنا هو عنها. و الّذي يبدو من أبياتٍ له أنه ولد حوالي عام تسعين و ثلاثمائة (٣٩٠) من الهجرية، و

---

١. ديوان المؤيد داعي الدعاة / ٢٥٦، الغدير ٤ / ٣٠٦.

٢. سيرة المؤيد / ٩٩، الغدير ٤ / ٣١١.

نشأبها و تعلّم و أصبح يدعو في جزيرة فارس للخلافة الفاطمية بكلّ قوّةٍ و طول. و في عام تسع و عشرين صار إليه المذهب الفاطمي في شيراز فكـان زعيماً لهذا المذهب و شيخَه في فارس؛ ولكن المؤيّد قاسي ماقاسَى من العناء و الشقاء، و مرّت عليه أيّام بؤس و ألم ذاق فيها ألوان الذلة و المسكنة؛ حتى أنه اضطرّ أخيراً إلى أن يسافر و أن يصاحب قوماً لايـضمرون له غـير الحبّ و الإخلاص. و السبب في ذلك يرجع إلى مذهبه الذي كان يخالف مذهب أهل بَلْدته.

فقد كان المؤيّد يحتفل بالأيّام و الأعياد الفاطمية، و يـصلّي بـالناس و يَعظهم كعادته؛ ولكن الوزير العادل بهرام بن ماقيا بن شهد[1] استدعاه يوماً و نصحه بالخروج من البلاد و تركه، لأنَّ السلطان توعّد المؤيد بالقتل و أنَّ علماء المدينة استعدوا عليه، و أن يستخير اللّه في الخروج من البلاد، و أنّه يضمّ إليه عدّة من الفرسان، من يتدرّقون به إلى حيث توخّى قصده مـن البـلدان[2]؛ و خرج من عنده و هو يفكّر إلى أين يقصد؛ و أنّ الطرق قد اكتظّت بأعدائه. و بات ليلته يفكّر و لكنّه لم يهتد إلى ناحية؛ و في الصّباح قصد الوزير، و قال له: إنّه ليفَضِّلُ أن يقتلَ في شيراز أو يخرج منها قسراً مكبّلاً بالقيود و الأغلال؛ و لكن الوزير أجّله أيضاً أياماً ليعاود بيته و يحصل على نفقات سفره، فيخرج خُفية حتَّى لايشعُر بخروجه أحد. و بعد أيام خرج مع صحبه إلى «سبار» و هو

---

١. أبو منصور بهرام بن مافنّة المتوفى ٤٣٣ هـ.

الوزير العادل، وزير الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بـن بـويه صـاحب شيراز.

و كان محباً للعلماء و الأدباء و الشعراء، و يكرمهم و يعظمهم و ينفق عليهم بشكل كـثير. و لذا نجـد المـؤلفين في ذلك العهد يصنفون كتبهم و يجعلونها باسم هذا الوزير العادل، و منهم أبو محمّد الحسن بن أحمد الأعـرابي المعروف بالأسود الغندجاني اللغوي النسّابة. معجم الادباء ٢٦٤/٧.

٢. السيرة المؤيدية /٧.

موضع على أربع مراحل من شيراز؛ و أخذ يبني هناك مشهداً للشيعة، إذ لم يكن بها مبان للشيعة قبل ذلك و كان أهلها من السنّة. و قد اجتهد معه الديلم في بناء هذا المسجد فقالت العامّة: إنّ هذا الرجل ساحرٌ قد سخر هؤلاء الجبابرة كما سخر سليمان الجنَّ[1].

و بعد مدّة قويت أعداء المؤيّد و أكثروا في الطعن عليه، فخرج منه هارباً و توجّه إلى الأهواز و احتوى طريقاً لانعلمه على مسجد مهدّم كانت تأويه الصوفية و أهلُ النصب، فعكف على تجديد عمارته و كتب على دور محرابه أسماءَ النبيِّ و عليٍّ و الحسن و الحسين، فصاعداً إلى جعفربن محمّد عليهم‌السّلام و إسماعيل ابن جعفر و محمّد بن إسماعيل و وصّلها بأسماء الخلفاء الفاطميّين: من المهدي عبيدالله إلى المستنصر، بالذهب على ألواح ساج؛ ثم لم يكتف بذلك حتى أقام الأذان بـ «حيَّ على خَير العمل»! و فوق ذلك كلّه طلب ممن حضره أن يقيموا صلوات الجمعة مشفوعةً بالخطبة للمستنصر الفاطمي صاحب مصر[2].

وقد أشار إلى أعماله هذه في قصائده مفتخراً، منها قوله:

لي فيك صُنعٌ لم يَنل ‍ ‍ ‍ ‍ قبلي بجهدٍ جاهدُ
سَل بقعةَ الأهواز عن ‍ ‍ ‍ ‍ فِعلي تُجبك مَعاهدُ[3]

و قد كثُر أتباعه و شيعتُه في الأهواز، ثم توجّه منها إلى الموصل و الكوفة و الأنبار، فتراءى أن يذهب لزيارة قبر الإمام عليّ بن أبي طالب و قبر الإمام الحسين بن عليّ، ثم يواصل سيره إلى الموصل، و منها إلى مصر. و عقب

---

١. سيرة المؤيد في الدين /٢١.

٢. نفس المصدر السابق /٥٥.

٣. ديوان المؤيد /٢٨٤.

وصوله أدخل تَوّاً إلى مقرّ الخلافة، و تمكن من المثول بين يدي الخليفة المستنصر؛ و وصف مقابلَته معه في سيرته التي ألفها لنفسه. و بعد ردح من الزمن، ولي المؤيدُ دارَ الإنشاء وزيد في رزقه و تحسّنت حالته. و لقّبه الخليفة بالحجّة ـ و هي أسمى مرتبة في الدعوة الفاطمية ـ و عمل على إيجاد و إحداث مؤامَرات ضدَّ العباسيين؛ و قلب نظام حكمهم في بغداد و فارس و الشام، و علت مرتبته بعد أن عاد إلى مصر ثانية؛ و نال أقصى ما يتمنّاه من الترقّي في درجات الدعوة الفاطمية.

وفد المؤيد على مصر، و أقام بها ثلاثين عاماً؛ و استمع له جمهرة من المصريين أخذوا عنه علوم الدعوة. فأثّر في الحياة العقلية المصرية بمبادئه التي كان ينادي بها. و في مصر أخذ عنه لمك بن مالك قاضي الصُّلَيحيّين باليمن، فنقلت عن مصر علوم الدعوة الفاطمية إلى اليمن، و أصبح اليمنيُّون يدنون للمؤيّد بالأُستاذية في علوم الدعوة.

و في مصر أنشد المؤيد أكثر قصائد ديوانه، و ألقى مجالسه التي بلغت الثمانمائة مجلس ـ و هو كتابٌ خاصٌّ بمصر و الدّعوه الفاطمية[1] ـ و نال الحظوة عند الفاطميين؛ حتى أنه كما قلنا كان أيام الحاكم الفاطمي، حجة في الدعوة في إقليم فارس؛ إذ نشأ المؤيد في أُسْرة اتَّخذت العقيدة الفاطمية منذ أمد بعيد مذهباً لها، فترعرع و هو ملمٌّ بكلِّ شيء يحضر الدعوة و أسرارها. و ما لبث أن أصبح بعد موت والده يملك نفوس أتباعه، فانقادوا له الانقياد كلَّه؛ و كانوا يضحون بأرواحهم دونه؛ و كثر أتباعُه حتى خشي السلطان أبو كاليجار البويهي سطوتَه و نفوذه، و همّ أن ينفيه مراراً من شيراز؛ و لكنه كان يخاف ثورة أتباع المؤيد فكث يجهر بالدعوة في كلّ مكان و كلّ بلد يدين للعباسيين.

---

١. يعرف بالمجالس المؤيدية.

و قد كان من جراء ذلك أن بعث قاضي الأهواز برسالة إلى الخليفة العباسي ببغداد، ينعى فيها العباسية و ضياع خلافتها على يد المؤيد[1].

و مهما يكن من أمر فقد استقرّ المؤيد بمصر، و اتّصل بأمرائها و رجالها و حضر مجالس الدّعوة فيها؛ وراسل بعضاً من الملوك و عاهدهم في أن يحاربوا كلَّ ما من شأنه النيل في الدولة الفاطمية؛ و قام بنفسه في حفظ ممتلكات الفاطميين.

لقد كان المؤيّد على جانب عظيم من التّقافة مُلمّاً إلماماً تامّاً بجميع العلوم التي عُرفت في العالم الإسلامي يومَذاك. و قد وضع رسالة و هي أقدم كتاب تأريخي يفصل لنا حياة المؤيد السياسية و الاجتماعية و العلمية في فارس و العراق و مصر، خلال ربع قرن. و جاهد و ناضل دون الفاطميين وردّ على المذاهب المختلفة طوراً بالكتابة و طوراً بالشعر، و تارةً بالمناظرات الشفوية؛ و يفكّر في أقوال خصومه فيحلّلها دقيقاً حتى ليعرف مواطن ضعفهم كي يهاجمَهم و يُفنِّدَ آرائهم.

لبث المؤيّد في مصر ثلاثين عاماً، و حضر حفلات الفاطمية و أعيادهم و مدح خلفائهم، و عاصر كثيراً من أُمرائها و شعرائها و نظم فيهم و أدمج عقائدهم في شعره؛ حتى كاد شعر المؤيد يكون ديوانَ شعر للعقايد الفاطمية. و ذكر في مصر، واقعة الغدير شعراً و نثراً حتى أنه أفرد في هذا الموضوع كتاباً بعنوان «الإيضاح و التبصير في فضل يوم الغدير» و أشاد بواقعة غدير خم في عدّة قصائد؛ منها :

قال و الرّحلُ للسُّرى محمولُ: حَقّ منك النّوى و جدّ الرحيلُ

و قوله من قصيدة مطلعها :

---

١. في أدب مصر الفاطمية / ٦١.

نسيمَ الصبا! أَلِمْ بِفارِسَ غادِيا — و أبلغ سلامي أهل وُدّي الأزاكيا!
و زر بقعة الأهواز عنّي محيّياً — بها غرّ إخواني و أرجان تاليا

إلى أن يقول:

هي القُبّة البيضاء قبّة «حيدر» — وصيُّ الذي قد أرسل اللّه هاديا
وصيُّ النبيِّ المصطفى و ابنُ عمه — و من قام مولى في «الغدير» و واليا[1]

و قال من قصيدة يمدح بها المستنصرَ باللّه الفاطمي و أوّلها:

اللّهُ ينصر رايةَ المستنصرِ — باللّه مولانا الإمام الأطهرِ
و يُتمّ نور أبي تميم خالياً — بسناه أغساق الظّلام الأكدرِ
و يُديم دولته و يجبر كسرنا — في «الظاهر» الغصن الرطيب الأخضرِ
السيد المولى المواری في الثرى — غضّ الشباب بنور وجهٍ أقمر
غصن من القلم الممدّ وصنوه — و من النبيّ الأبطحيّ و حيدرِ[2]

و مدح الظاهر الفاطمي بقصيدة أولها قوله:

قد عزّ دينُ اللّه بالظاهرِ — مولى الأنام الباطن الظاهرِ
نجل الإمام الحاكم المجتبى — و ابن الإمام الطيّب الظاهرِ
شمس الضّحى بحر النُّهى و الحجا — شمسٌ بدت من قمرٍ زاهرِ
أشرقت الأرض بأنوارها — وأصبحت ميمونة الطائرِ[3]

و قال في الإمام المستنصر باللّه أيضاً:

أُقسم لو أنّك تَوَّجتني — بتاج كِسرى مِلك المشرقِ،

---

١. ديوان المؤيد / ٢٤٥ـ٢٤٧.

٢. نفس المصدر / ٢٢١.

٣. نفس المصدر / ٢٤٩.

و نــلتني كــلَّ أُمــور الورى　　مَن قد مضى منهم و مَن قد بقي
و قــلتَ أن لا نــلتقي ســاعةً　　أجبتُ: يـا مـولاي أن نـلتقي
لأنّ إبـــعادك لي ســـاعةً　　شـيّب فُـوديَّ مـع المِـفرقِ[1]

و هكذا عاش المترجَم له و قلبُه مفطوم عـلى حبّ الفـاطميين إلى أن توفّي عام ٤٧٠ هـ. بالقاهرة و دفن في دار العلم بجوار القصر؛ و صلّى عـليه الإمام الفاطمي المستنصر نفسه[2].

و للمؤيد آثار علمية تنمُّ عن طول باعه في الاحتجاج و المناظرة، و عن سعة اطّلاعه على معالم الدين و مفاهيمه السامية و مباحثه الراقية و تضلّعه في علمَي الكتاب و السنّة، و وقوفه على ما فيهما من دقائق و رقائق. له رسائل ناظر بها أبا العلاء المعرّي في موضوع أكل اللحم؛ و مناظرته القيّمة مع علماء شيراز في حضرة السلطان أبي كاليجار، تعرب عن مبلغه من العلم؛ ذكرها على تفصيلها في سيرته (ص ١٦ ـ ٣٠).

و مناظرته مع الخراساني، المذكورة في سيرته (ص ٣٠ ـ ٤٣)، شاهد صدق على تضلّعه في العلوم. و له أيضاً من المؤلّفات:

المجالس المؤيدية. المجالس المستنصرية، ط. ديوان المؤيد داعي‌الدعـاة، ط. سيرة المؤيد داعي الدعاة، ط. شرح المعاد. الإيضاح و التبصير في فـضل يوم الغدير. الابتداء و الانتهاء. جامع الحـقائق في تحـريم اللـحوم و الألبـان. القصيدة الإسكندرية (و تسمّى بذات الدّوحة). تأويل الأرواح. نهج العبادة.

---

١. نفس المصدر السابق / ٣١٣. و في ركب الأدب الفاطمي، فصل المستنصر.

٢. أفرد الدكتور محمد كامل حسين دراسة وافية عن حياة الشاعر، فطبعت في أول ديوانه عام ١٩٤٩م. و تقع في ١٧٠ صحيفة. و قد ترجم الشاعر أيضا نفسه فوضع كتاباً تناول حياته منذ سنة ٤٢٩ هـ. إلى سنة ٤٥٠ هـ. و هو من سلسلة مخطوطات الفاطميين و مطبوعات دار الكاتب المصري.

المسائلة و الجواب. أساس التأويل.

مصادر ترجمته

الأعلام ٩/٦٤. الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٩/٣٦٥، ٣٧١. سيرة المؤيد داعي الدعاة /١ ـ١٨٤. الغدير ٤/٣٠٤ ـ ٣١٢. معجم المؤلفين ١٤٤/١٣. مقدمة ديوان المؤيد /١ ـ١٨٦.

ابن جبير المصري

(القرن الخامس)

يـا دارُ، غـادرني جـديد بـلاكِ ... رثّ الجـديد فـهل رثـيتِ لذاكِ؟
أم أنتِ عـمّا أشـتكيه مـن الهـوى ... عـجماء مـذ عـجم البـلى مـغناكِ؟
ضِفناك نستقري الرسوم فـلم نجـد ... إلّا تـباريحَ الهـموم قِـراكِ
و رسيسَ شـوقٍ تمـتري زفـراتـه ... عـبراتِـنا حـتّى تـبلّ ثـراكِ
مـا بـال ربـعك لا يـبلُّ؟ كأنّمـا ... يشكو الذي أنـا مـن نحـولي شـاكِ
طـلّت طـلولك دمـعَ عـيني مثلما ... سفكَت دمـي يـوم الرَّحـيل دمـاكِ
و أرى قـتيلَكِ لايَـدِيهِ قـاتلٌ ... و فـتور ألحـاظِ الظـباء ظُـباكِ
هيّجت لي إذعجت سـاكـن لوعـة ... بـالساكـنيك تشـبّها ذكـراكِ
لمّـا وقـفت مسـلّماً و كأنّمـا ... ريّـا الأحـبّة سقت مـن ريّـاكِ
و كـفتْ عـليك سماء عـيني صيّباً ... لو كفّ صـوب المـزن عنك كـفاكِ
سـقياً لمـهدي و الهـوى مـقضيّةٌ ... أوطـاره قـبل احـتكام نـواكِ!
و العـيش غـضٌ و الشـباب مـطيّةٌ ... للّـهو غـير بـطيئة الإدراكِ
أيّـام لاواشٍ يُـطاع و لا هـوىً ... يُـعصى فـنقصى عـنك إذ زرنـاكِ
و شـفيعنا شرخ الشـبيبة كـلّما ... رمنا القصاص من اقـتناص مـهاكِ
و لئن أصـارتك الخـطوب إلى بـلى ... و لحـاك ريب صروفـها فـحاكِ
فـلطالما قـضّيتُ فـيكِ مآربي ... و أبحت ريـعان الشّـباب حمـاكِ!
مـا بـين حـورٍ كـالنجوم تـزيّنت ... مـنها القـلائد للـبدور حـواكـي
هيف الخصور من القصور بدت لنـا ... مـنها الأهـلّة لامـن الأفـلاكِ
يجمعن من مـرح الشـبيبة خـفّةَ الـ ... ـمـتغزّلين و عـفّة النُّسّـاكِ
و يـصِدنَ صـادية القـلوب بأعـينٍ ... نجـلٍ كـصيد الطـير بـالأشراكِ
من كلّ مخطفة الحشا تحكـي الرشـا ... جـيداً و غـصن البـان لين حـراكِ

هَيفاء ناطقة النطاق تشكّياً ... من ظلم صامتة البُرين ضناكِ[1]
و كأنّما من ثغرها من نحرها ... درٌّ تباكره بعود أراكِ
عذب الرُّضاب كأنَّ حشو لثاتها ... مِسكاً يعلُّ به ذرى المسواكِ
تلك التي ملكت عليَّ بدلّها ... قلبي فكانت أعنفَ الملّاكِ
إنَّ الصّبى ـ يا نفسُ ـ عزَّ طلابه ... و نهتك عنه واعظات نهاكِ
و الشيب ضيفٌ لامحالة موذنٌ ... بِرداك فاتَّبعي سبيل هداكِ!
و تزوّدي من حبِّ آل محمّد ... زاداً متى أخلصتِهِ نجّاكِ!
فلَنِعم زادٌ للمعاد و عُدَّةٌ ... للحشر إن علقت يداك بذاكِ[2]
و إلى الوصيِّ مهمَّ أمرِك فوِّضي ... تصِلي بذاك إلى قصيِّ مُناكِ
و به ادرئي في نحر كلِّ ملمَّة ... و إليه فيها فاجعلي شكواكِ!
و بحبِّه فتمسَّكي أن تسلكي ... بالزيغ عنه مسالك الهلّاكِ
لاتجهلي و هواه دأبك فاجعلي ... أبداً و هجر عداه هجر قلاكِ!
فسَواءٌ انحرف امروٌ عن حبّه ... أوبات منطوياً على الإشراكِ
و خذي البرائة من لظى ببراءةٍ ... من شانئيه و امحضيه هواكِ!
و تجنَّبي إن شئتِ أن لاتعطبي ... رأيَ ابن سلمى فيه و ابن صُهاكِ!
و إذا تشابهت الأُمور فعوِّلي ... في كشف مشكلها على مولاكِ
خير الرجال و خير بعل نساءها ... و الأصل و الفرع التقيّ الزاكي
و تعوّذي بالزّهر من أولاده ... من شرِّ كلِّ مُضلّلٍ أفّاكِ!
لاتعدلي عنهم و لا تستبدلي ... بهمُ فتحظي بالخسار هناكِ!
فهمُ مصابيح الدُّجى لذوي الحِجى ... و العروة الوثقى لذي استمساكِ
و هم الأدلّة كالأهلّةِ نورها ... يجلو عمى المتحيّر الشكّاكِ

---

١. البرين بالضم: جمع برة: الخلخال.

٢. للحشر إن ظفرت يداك بذاك. كذافي نسخة.

و هم الصِّراط المستقيم فأرغمي — بهواهمُ أنف الّذي يلحاكِ!
و هم الأئمّة لا إمامَ سواهُم — فدعي لِتَيْم و غيرها دعواكِ!
يا أُمّةً ضلّت سبيل رشادها! — إنّ الذي استرشدتِهِ أغواكِ
لئن ائتمنتِ على البريّة خائناً — للنفس ضيّعها غداة رعاكِ
أعطاكِ إذ وطّاك عشوة رأيه — خدعاً بحبل غرورها دلّاكِ
فتبعتِهِ و سخيفَ دينِكِ بعتِهِ — مغترّةً بالنزر من دنياكِ
لقد اشتريتِ به الضّلالة بالهدى — لمّا دعاكِ بمكره فسدهاكِ
و أطعتِهِ و عصيت قولَ محمّدٍ — فيما بأمر وصيّه وصّاكِ
خلّفتِ و استخلفت من لم يرضه — للدين تابعةً هوىً هوّاكِ
خلتِ اجتهادَك للصّواب مؤدّياً — هيهات ما أدّاك بل أرداكِ
لقد اجتريت على اجتراح عظيمةٍ — جَعلت جهنّم في غدٍ مثواكِ
و لقد شققت عصا النبيِّ محمّد — و عققتِ من بعد النبيِّ أباكِ
و غدرت بالعهد المؤكّد عقده — «يوم الغدير» له فما عذراكِ
فلتعلمِنّ و قد رجعتِ به على الـ — أعقاب ناكصةً به على عقباكِ
أعَن الوصيِّ عدلتِ عادلةً به — مَن لايساوي منه شسع شراكِ؟
و لَتُسألِنّ عن الولاء لحيدر — و هو النعيم شقاكِ عنه ثناكِ[1]
قست المحيط بكلّ علم مشكلٍ — وعرٍ مَسالِكُه على السُّلّاكِ
بالمعتريه كما حكى شيطانه — و كفاه عنه بنفسه من حاكي
و الضارب الهامات في يوم الوغى — ضرباً يقدُّ به إلى الأوراكِ
إذ صاح جبريلٌ به متعجّباً — من بأسه و حسامه البتّاكِ
لاسيف إلّا ذوالفقار و لا فتىً — إلّا عليٌّ فاتك الفتّاكِ
بالهارب الفرّار من أقرانه — و الحرب يذكيها قناً و مذاكي

---

١. ثناك عنه شقاك. كذا في نسخة.

و القاطع الليل البهيم تهجّداً ... بفؤاد ذي روع و طرفٍ باكي

بالتارك الصلوات كفراناً بها ... لولا الرياءُ لطال ما راباكِ

أبعِدْ بهذا من قياسٍ فاسدٍ ... لم تأت فيه أُمَّةٌ مأتاكِ

أوَ ما شهدتِ له مواقف أذهبت ... عنكِ اعتراك الشكّ حين عراكِ؟

من معجزات لا يقوم بمثلها ... إلّا نبيٌّ أو وصيٌّ زاكي؟

كالشمس إذ رُدَّت عليه ببابل ... لقضاء فرض فائت الإدراكِ

و الريح إذمرّت فقال لها: احملي ... طوعاً وليّ اللّه فوق قواكِ!

فجرت رجاء بالبساط مطيعة ... أمر الإلّه حثيثة الإيشاكِ[1]

حتّى إذا وافى الرقيم بصحبه ... ليزيل عنه مريّةَ الشكّاكِ

قال: السّلام عليكمُ فتبادروا ... بالردِّ بعد الصّمت و الإمساكِ

عن غيره فبدت ضغاين صدر ذي ... حنقٍ لستر نفاقه هتّاكِ

والميتُ حين دعا به من صرصر ... فأجابه و أبيْتِ حين دعاكِ

لاتدّعي ماليس فيكِ فتندمي ... عند امتحان الصّدق من دعواكِ

و الخفُّ و الثعبان فيه آيةٌ ... فتيقّظي ياويكِ من عمياكِ!

و السّطل و المنديل حين أتى به ... جبريلُ حسبكِ خدمة الأملاكِ

و دفاع أعظم ما عَراك بسيفه ... في يوم كلِّ كريهة و عِراكِ

و مقامه ـ ثبت الجَنان ـ بخيبر ... و الخسوف إذ ولّيتِ حشوحشاكِ

و الباب حين دحى به عن حصنهم ... سبعين باعاً في فضا دكداكِ

و الطائر المشويُّ نصٌّ ظاهرٌ ... لولا جحودكِ ما رأت عيناكِ

و الصخرة الصّما و قد شفَّ الظما ... منها النفوس دحى بها فسقاكِ

و الماء حين طغى الفرات فأقبلوا ... ما بين باكيةٍ إليه و باكي

---

١. و في نسخة:

فغدت رخاء بالبساط مطيعة ... أمر الإلّه حثيثة الإدراك

قالوا: أغِثنا يا ابن عمِّ محمَّدٍ! فالماء يُؤذننا بوشك هلاكِ
فأتى الفراتَ فقال: يا أرضُ ابلعي طوعاً بأمر اللّه طاغي ماكِ!
فأغاضه حتّى بدت حصباؤه من فوق راسخة من الأسماكِ
ثمَّ استعادوه فعاد بأمره يجري على قَدرٍ، ففيم مراكِ؟
مولاكِ راضيةً و غضبَى فاعلمي! سيّان سخطك عنده و رضاكِ
يا تيْمُ! تيّمكِ الهوى فأطعته و عن البصيرة يا عديُّ عداكِ
و منعتِ إرثَ المصطفى و تراثه و وليته ظلماً، فمن ولّاكِ؟
و بسطت أيدي عبدَ شمس فاغتدتْ بالظلم جاريةً على مغناكِ
لاتحسبيكِ بريئةً ممّا جرى و اللّه ما قتَل الحسينَ سواكِ
يا آل أحمد، كم يكابد فيكمُ كبدي خطوباً للقلوب نواكي؟
كبدي بكم مقروحةٌ و مدامعي مسفوحةٌ و جوى فؤادي ذاكي
و إذا ذكرتُ مصابَكم قال الأسى لجفوني: اجتنبي لذيد كراكِ!
و ابكي قتيلاً بالطفوف لأجله بكت السّماء دماً فحقّ بكاكِ!
إن تبكهم في اليوم تلقاهم غداً عيني بوجهٍ مسفرٍ ضحّاكِ
يارَبِّ، فاجعل حبّهم لي جُنَّةً من موبقات الظلم و الإشراكِ!
و اجبر بها الجبريَّ ـ ربِّ ـ و برّه من ظالمٍ لدمائهم سفّاكِ
و بهم إذا أعداء آل محمّد غلقت رهونهمُ فجد بفكاكِ[1]

الشاعر

شرف الدولة أبو محمّد يحيى بن جبير [جبر] المصري المتوفى...

و في «الغدير» و «أعيان الشيعة» جاء: الجبري المصري، و ابن جبر المصري، كان أحد شعراء مصر على عهد الخليفة الفاطمي المستنصر باللّه

---

١. أعيان الشيعة ١٩٤/١٥ ـ ١٩٧. الغدير ٣١٢/٤ ـ ٣١٧.

(٤٢٠ ـ ٤٨٧ هـ.) و قد مدح الخلفاء الفاطميين؛ و لد بمصر و نشأبها و ترعرع؛ فأصبح من الشعراء الأفذاذ الذين اتخذتهم الدولة و الخلافة في تثبيت أركانها و تدعيم أُسسها. و قد أتى في شعره من قوّة المتانه و الشاعرية ما جعله واحداً من شعراء الفاطمية الذين يجب عليهم الحضور في حفلاتها و أعيادها و مواسمها لإنشاد الشعر. و كان ذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر باللّٰه، فقد قطع أشواطاً في حياته من عهود الفاطميين، و لكنه أوقف مدحه في المستنصر فحسب؛ فلا نكادُ نجد له شعراً يمدح به غيره.

و إنّ شعر المترجَم له ليعطينا فكرة صحيحة عن قائله، و هي أن المترجم كان متأثراً بالعقائد الفاطمية تأثيراً بالغاً. كيف لا و قد فُتحت عيناه على الدولة الفاطمية، و لم تسمع أُذناه سوى عقائدهم و ذمّ من يخالفهم في الرأي و العقيدة. و لم يتردّد على محفل و مجلس إلّا و الكلّ يشيد بذكرهم؛ فكأنه نشأ و كلّه مفطور على حبّ الفاطميين. فمدح الخليفة و مدح كلّ وزير أو أمير قام بالذبّ عنهم. و من شعره في «عيد الغدير» قصيدة تربو على مائة و إثنين بيتاً أتى بها على ذكر الغدير وأشاد بفضلها و قد ذكرناها بتمامها؛ و مطلعها:

يادارُ، غادرَني جديدُ بلاك رثّ الجديد فهل رثيت لذاكِ؟

و قال يمدح الإمام الفاطمي، و ذلك في يوم فتح الخليج و هو من المناسَبات الفاطمية؛ و كان صاحبُ الباب يستأذن على حضور الشعراء للخدمة، فيؤمر بتقديم واحد بعد واحد. و كانت لهم منازل على مقدار كفاءتهم الأدبية فما أحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد؛ فدخل ابن جبير و أنشد:

فُتح الخليج فسال منه الماءُ و علت عليه الرايةُ البيضاءُ

فصَفت مـوارده لنـا فكأنّـه　　كفّ الإمام فعُرفها الإعطاء[١]

و من الطريف أنّ المؤرخين يذكرون هنا أنَّ المـصريين بـلغوا في ذلك الوقت درجة كبيرة من دقة الحس و تذوّق الشعر، فإنهم لماسمعوا هذه الأبيات، انتقدوه في قوله: ... فسال منه الماء، و قالوا: أيُّ شيء يخرج من البـحر غـير الماء؟ و إنّ الشاعر أضاع ما قاله بعد ذلك المطلع[٢].

و مدح الملكَ الصالح طلايع بن رُزِّيك[٣] عند ما اضطربت أُمور مـصر، فولّاها و أرسل الجيوش المصرية لمحاربة الفرنج؛ فكان ينتصر حـيناً ويـنهزم حيناً آخر. وقد سجّل الشعراء تلك الإنتصارات، و منهم المترجَم له فـقال في إحدى المعارك التي خاضها ابن رُزّيك ضدَّ الفرنج:

أطـفى ابنُ رزّيكٍ هـيب ظـرامـه　　و البيض تخطب في الرؤوس فتسمعُ
و كـتائب للـشرك كـنت إزاءهـا　　مـتعرضاً فـانفضّ ذاك المجـمعُ
و لكم صرعت من الفـرنج سمـيدها　　بـلقائه لك قـيل: أنت سَمَـيْدَعُ[٤]

و ممايؤسف له أنّ شأن هذا الشاعر في التاريخ كان كشأن أكثر زملائه من شعراء الفاطمية، إذ كان حظّه النسيان والإهمال؛ و لذا لم نقف له على ترجمة وافية، و لا على عام ولادته و وفاته. و إنما جاء ذكره مقروناً بأبيات قالها عند فتح الخليج. و فضلاً على هذا نرى أنّ هناك منالمؤرّخين من لايعرف عنه حتى اسمَه و نسبه. فجاء ذكره في المعاجم مختصراً بجملة «ابن جبر المصري» و هذا راجعٌ إلى ضياع تراث تاريخ مصر الإسلامية و شعرائها.

---

١. في أدب مصر الفاطمية / ١٦٧.

٢. الخطط المقريزية ٤٧٨/١، الغدير ٣١٧/٤.

٣. يأتي الحديث عنه في الصفحات التالية.

٤. في أدب مصر الفاطمية / ٢٣٠.

و الذي ينبغي القول هنا، أنّ أبا جعفر رشيد الدين بن شهرآشوب البغدادي الحلبي (٤٨٩ ـ ٥٨٨ هـ.) استشهد بهذه القصيدة في مناقبه بأبيات منها بقوله: الجبري المصري؛ فعلم من ذلك أنه متقدّم عليه. ثم ذكر للشاعر أبياتاً و قال :

المصري :

غصَبتم وليَّ الحقِّ مُهجةَ نفسِهِ ... و كان لكم غصب الأمانة مقنعا

وألجمتمُ آل النبيِّ سيوفَكم ... تُفرّي من السادات سوقاً و أذرعا

ضغائن بدر أظهرتها و جاهرت ... بما كان منها في الجوانح مودَعا

لوى عذره «يوم الغدير» بحقّه ... و أعقبه يوم البعير و أتبعا

و حاربه القرآن عنه فما ارعوى ... و عاتبه الإسلام فيه فما رعا[1]

و الغريب المضحك و المبكي، أنّ محقّق مناقب ابن شهرآشوب، الدكتور يوسف البقاعي، ترجم لهذا المصري في الهامش و قال: المصري هو معين الدين سالم بن بدران بن علي المازني الإمامي؛ يروي عن أبي المكارم بن زهرة؛ و أجاز للمحقق الطوسي في سنة ٦١٩. (الكنى و الألقاب ١٩٦/٣)

تحقيق الدكتور هذا في حدّه، دليل على جهله و ضئالة معرفته بالرّجال. و في المناقب له لدة هذه الخطوات و التعليقات السخيفة غير الصحيحة، الكثير و الكثير و يرد على قوله :

أ ـ من أين استنبط الدكتور، أنّ مراد ابن شهرآشوب من المصري هو سالم بن بدران المصري؟ و الرجل هذا فقيه من مشاهير علمائنا و أجلّاء فقهائنا، مات سنة ٦٧٢. (أعيان الشيعة ١١٤/٣٣)

---

١. مناقب ابن شهرآشوب ٣٦٣/٣ ط. دار الأضواء ـ بيروت. و الغالب على مطبوعات «دار الأضواء» التحريف و الاسقاط و الانتحال.

ب ـ الذين تلقّبوا بـ«المصري» كثير و كثير. فمن أين توصّل الدكتور، أنه معين الدين سالم بن بدران؟ (اللباب ٣/٢١٩)

ج ـ كيف يستشهد ابن شهرآشوب المتوفى ٥٨٨ هـ. بأبيات رجل مات بعده سنة ٦٧٢ هـ. لوفرضنا مثلاً و قلنا بشاعرية سالم بن بدران؟

د ـ إنّ معين الدين سالم، كانت دراسته في الحِلَّة و حلب، و لم يسافر إلى مصر، كي يتلقّبَ بالمصريّ؛ و المصري لقب جدّ أبيه عليّ. فتدبَّرْ!

ابن قادوس

(المتوفّى ٥٥١هـ.)

يـــا سيّد الخـلفاء طـرّاً	بـــــدوهم و الحـــضَّرِ
إن عظّموا ساقي الحجيج[1]	فأنت ســـــاقي الكـــوثرِ
أنت الإمـــــام المـــرتضى	و شـــــفيعُنا في المحـــشرِ
و وليُّ خـــــيرة أحمـــدٍ	و أبـــو شــبير و شــبّرِ
و الحـــائز القـــصبات في	«يــوم الغـدير» الأزهــرِ
و المــطفئ الغـــوغا بـــبد	رٍ و النـــضير و خـــيبرِ[2]

الشاعر

القاضي جلال الدين كافي الكفاة أبوالفتح محمود بـن القـاضي المـوفق إسماعيل بن حميدالدمياطي المصري الشهير بابن قادوس المتوفي ٥٥١ هـ. [٥٥٣ هـ.]

أحد عباقرة الأدب، و فذّ من صيارفة البيان. مقدم في حلبة القريض، كاتب الإنشاء بالديار المصرية للعلويّين، و تصدّر بالقضاء؛ جمع بين فضيلتي: العلم و الأدب فعُدّ من أئمة البيان الرايع الذين جَعلوا من رسائلهم الخلافية و الديوانية نماذج من الفصاحة الباهرة؛ و نعته «ابن ميسر» بالقاضي المفضل كافي الكفاة، كما أن القاضي الفاضل[3] يلقّبه بذي البلاغتين (الشعر و النثر).

---

١. المراد به العباس بن عبد المطلب.

٢. أعيان الشيعة ٤٧ / ١٦٣. الغدير ٣٣٨/٤. مناقب ابن شهرآشوب ٨٣/٢.

٣. أبو علي محيي الدين عبدالرحيم بن علي بن محمّدبن الحسن بن الحسين بن أحمد السعيد اللـخمي المعروف بالقاضي الفاضل ٥٢٩ ـ ٥٩٦هـ.

←

كان ابن قادوس، على جانب عظيم من فنّ الكتابة و الأدب، و أحد من صيارفة البيان في عهد الإمام الفاطمي العاضد؛ كاتب و شاعر في ديوان الإنشاء، و من أقدر كتّاب مصر الفاطمية و شعرائها. شاهد عصر الأفضل بن بدر الجمالي، و امتدّت به الحياة إلى أن توفّي في عهد الملك الصالح طلائع بن رُزّيك. فقد عاصر شعراء مصر و كتّابها في النصف الأول من القرن السادس، و عرف اتّجاهاتِهم الفنّيّة في الشعر و الكتابة؛ فجمع بين فضيلتي العلم و الأدب و لهذا كان يسمّيه بعضهم في عهده «ذوالبلاغتين»[١]. و هو مصري المحتد و النشأة؛ و وصفه ابن ميسر بقوله: كان من أماثل المصريين و كتّابهم مقدّماً عند ملوكهم. و من الأسف أنه لم يصلنا شيء عن حياة هذا الكاتب الشاعر؛ فقد فُقدت ترجمة حياته مع بقيّة تراجم رجال مصر الفاطمية. و المعروف عنه أنه كان يُلقي بعض زملائه في المهالك و يكون سبباً في حتفهم، بالرغم مما قاله أصحاب المعاجم عن فضله و كفايته في صناعتي الشعر و النثر، و وصفهم له بضعف الخلق، يحسد زملائه، و يوقع بهم في الردى و المهاوي بطرق شتىّ. فمنهم أبو علي حسن بن زيد الأنصاري الذي غالى المؤرخون في مدحه أنه: في فنّه لم

←

وزير أديب من أئمة الكتاب: ولد بعسقلان، و انتقل إلى الإسكندريّة ثم إلى القاهرة، و تـلمذّ على الشاعر ابن قادوس. و كان سريع الخاطر في الإنشاء، كثيرَ الرسائل. قيل: لو جمعت رسائله و تعليقاته لم تقصر عن مائة مجلد؛ و هو مُجيد في أكثرها، و كان من وزراء السلطان صلاح الدين، و من مقرّبيه، و لم يخدم بعده أحداً. مات في القاهرة سنة ٥٩٦ هـ.

الأعلام ١٢١/٤. حسن المحاضرة ٥٦٤/١. روضات الجنات ٧٤/٥. شذرات الذهب ٣٢٤/٤. العبر في خبر من غبر ٢٩٣/٤. الغدير ٣٣٨/٤. كشف الظنون ١٠١٦/٢. الكنى و الألقاب ٥٤/٣. معجم المؤلفين ٢٠٩/٥. النجوم الزاهرة ١٥٦/٦. نهاية الأرب ١/١. وفيات الأعيان ٣٣٣/٢.

١. حسن المحاضرة ٣٢٤/١.

يسمع الدهر بمثله. فعمل ابن قادوس المترجَم له بيتين في هـجاء حسـن بـن الحافظ، و نسبهما إلى ابن زيد الأنصاري و دسّهما في رقاعه؛ ثم سعى به إلى ابن الحافظ فلمّا وجد ابن الحافظ البيتين بين رقاع الأنصاري، أمر بقتله؛ و لم يشفع له جودة شعره التي بلغ بها درجة رفيعة بين الشـعراء، و لاطـول خـدمته في ديوان المكاتبات[1]، و ذهب ضحيَّة البيتين.

و بعد هذا لم يحدِّثنا التاريخ عن سبب ما في قتل الأنصاري، غير مآربه الشخصيّة في الديوان أو في غير الديوان من مناصب الدّولة. و ربّما كان السبب في تلك المؤامرة هو أنّ الأنصاري كان فنّاناً يجيد صناعته فينتقي مـن اللـفظ أجوده، و من المعاني أسماها و أجملها؛ فحسده على مهارته و خشي منافسته، فدبّر المكيدة التي أدّت به إلى حتفه؛ كما ذهب إلى صـحّة هـذا القـول بـعض المؤرِّخين[2].

و مهما يكن من شيء فابن قادوس لضعف خلقه كان يحسد كلَّ شاعر و كاتب في الدولة؛ يتشبّث بعدّة وسائل لهتكهم و قتلهم و اختلاق أبيات تُؤدِّي إلى قتل زملائه. فقد نقل الحَموي[3] مايؤيِّد الرأي هذا في حكاية نصّها :

اجتمع ليلةً عند صالح بن رُزّيك جماعة من الفضلاء، فألقى عليهم مسألة في اللغة فلم يُجب عنها بالصواب سوى القاضي الرشيد (أبوالحسن أحمد بـن الزبير المصري المقتول عام ٥٦٣) فقال: ماسُئلت قطّ عن مسألة إلّا وجدتُني أتوقّد فهماً. فقال ابن قادوس و كان حاضراً:

إن قـــلتَ مـن نـارٍ خُـلقـ ... ـتَ و فُقتَ كلَّ الناس فـهماً،

---

١. في أدب مصر الفاطمية /١٨٧.

٢. نفس المصدر /٣٣٩، ٣٤٤.

٣. معجم الأُدباء ٤/٦٠. الغدير ٤/٣٣٩.

قــلنا: صـدقتَ، فـا الذي　　أطفاك حتى صرتَ فحما؟[1]

و قال فيمن يكرّر التكبير و يوسوس في نيّة الصلاة :

و فـــاتر النـيَّـة عـنّينها　　مع كثرة الرعدة و الهمزةِ
يكـبّرُ التسـعين في مـرّة　　كأنّه صلّى عـلى حمـزةِ[2]

و قال :

و ليـلة كـاغتماض الجـفن قـصَّرها　　وصل الحبيب و لم تقصر على الأملِ
فكـــلّما رام نـــطقاً في مـــعاتبتي　　ســددت فـاهُ بـنظم اللّـثم و القـبلِ
و بـات بـدر تمـام الحسـن مـعتنقي　　و الشمس في فلَك الكاسات لم تفلِ
فبِتّ منها أرى النّـارَ التي سـجدت　　لها المجوس من الأشواق تسجدُ لي[3]

و قال في ذكر قلعة الروضة المعروفة بالجزيرة :

أرى سرح الجزيرة من بعيد　　كأحداق تغازل في المـغازلْ
كأنَّ مجرّةَ الجـوزا أحـاطت　　و أنبتت المنازلَ في المنازلْ[4]

و قال في الإمام زين العابدين السّجاد، عليّ بن الحسين عليه السلام :

أنت الإمام الآمر العدل الّذي　　خبب البراق لجـدّه جـبريلُ
الفاضل الأطراف لم يُـرَفيهم　　إلّا إمـــامٌ طـــاهرٌ و بـــتولُ

---

١. خريدة القصر؛ قسم «شعراء مصر» ٢٢٩/١.

٢. إشارة إلى ماورد في صلاة النبيّ ـ صلّى اللّه عليه و آله وسلّم ـ على حمزةَ سيدِ الشهداء يوم أُحد؛ من أنّه عليه وآله السّلام ـ كبّر فيها سبعين، أواثنين و تسعين تكبيرة. الغدير ٣٣٩/٤.

٣. أعيان الشيعة ١٢٣/٤٧.

٤. الخطط المقريزية ١٨٣/٢، الغدير ٣٣٩/٤.

أنتم خزائن غامضات علومه | و إليكم التّحريم و التحليلُ
فعلى الملائك أن تؤدّي وحيَهُ | و عليكم التبيين و التأويلُ[١]

و أورد له ابن شهرآشوب السَّروي قوله في أحوال الإمام الصادق عليه السلام:

لِمثل عُلاكم ينتهي المجد و الفخرُ | و عند نَداكم يخجل الغيث و البحرُ
و عُمر سواكم في العُلَى مثل يومكم | إذا ماعلا قدرٌ و يومكم عمرُ
ملكتم و لا عدوى حكمتم ولاهوى | علمتم ولادعوى عملتم ولاكبرُ
أياديكم بيضٌ إذا اسودّ حادثٌ | وأسيافكم حُمرٌ و أكنافُكم خُضرُ
و ذِكركُم في كلّ شرق و مغرب | على الخلق يُتلى مثلما تلي الذكرُ
و دينكم شكر الإلّه و حمده | إذا غيركم ألهاه عن شكره أمرُ

و جاء أيضا في انتصار ابن قادوس للجليس بن الحباب : أن أبا القاسم هبة اللّه بن البدر المعروف بابن الصيَّاد، كان مولعاً بهجاء القاضي الجليس، كثير التَّهكّم و الدّعابة بأنفه الكبير، حتى قيل إنّ الصياد أنشد أكثر من ألف قصيدة في أنف الجليس؛ فانبرى له ابن قادوس ينتصر للجليس، و يهجو ابنَ الصّياد بقوله:

يا من يعيب أُنوفَنا الشُّ | ـمَّ التي ليست تعابُ
ألأنف خلقة ربّنا | و قرونك الشُّمّ اكتسابُ

فما الذي جعل ابن قادوس ينتصر للجليس ؟ لاشك في أنّ ضعف خلقه جعله يتوهّم أنّ الجليس ربّما ساعده في الوصول إلى مآربه الشخصية في الديوان و في غير الديوان، من مناصب الدولة؛ بحكم تلك الصّلة التي كانت بين

---

١. الغدير ٤/٣٣٩.

الجليس و الخليفة الفاطمي من ناحية، و بين الجليس و الملك الصالح طلايع من ناحية أخرى؛ فلذلك انتصر للجليس، و لولا أطاعه ما كان ينشد هذين البيتين.

فابن قادوس مع هذا كلّه كان من أماثل الكتّاب في القرن السادس الهجرى؛ فالقصائد التي مدح بهاالخلفاء الفاطمية، وأنشدها في حفلاتهم وأعيادهم و الرسائل التي كتبها في مناسبات عدة إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على مقدرته و علوّ كعبه في الصناعتين : الشعر و النثر.

وله :

فبتُّ منها أرى النّارَ التي سجدت	لها المجوس، من الإبريق تسجدُ لي
راحٌ إذا سفك النّدمان من دمها	ظلّت تُقَهقه في الكأسات من جذَلي
فقل لمن لامَ فيها: إنّني كلف	مغرىً بما مثلها أغريت بالعذلِ [1]

ومن شعره قوله:

هي بيعة الرضوان أبرمها التُّقى	وأنارها النّصُّ الجليُّ و ألحما
ما اضطرّ جدّك في أبيك وصيّة	وهو ابن عمّ أن يكون له انتمى
وكذاالحسين وعن أخيه جازها	وله البنون بغير خلف منهما [2]

وله في مدح الوزير، المأمون البطايحي ـ وزيرالآمر بأحكام اللّه ـ عندما

---

١. خريدة القصر: قسم « شعراء مصر » ٢٢٨/.

٢. مناقب ابن شهرآشوب ٥٤/٤. الغدير ٣٣٩/٤. أعيان الشيعة ١٦٣/٤٧.

وكأنه يشير بهذا البيت و الذي قبله إلى قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلم: جعل اللّه ذرية كلّ نبيٍّ في صلبه، و جعل ذريّتي في صلب عليّ بن ابي طالب عليه السلام. يقول: ماالذي دعا جدّك إلى أن يجعل أولاد عليّ أولاده مع أنه ابن عمّه فكنت بذلك ابناً له؟ و كذلك أخوك الامام‌الحسين لولا أن أمّكما فاطمة بنته فكنتما أولاده؟

مثّل بين يديه:

قالوا: أتاه النّعت و هو السّيد الـ ... مأمون حقّاً و الأجلّ الأشرفُ
ومغيث أمّـةِ أحمـدٍ و مجـيرها ... مازادنا شيئاً عـلى مـا نـعرفُ

***

أمّا مدحه للخليفة الفاطمي فيتجلّى لنا ذلك في نثره؛ فمن إنشاءه ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة العاضد الفاطمي في عيد النحر وهو قوله:

أمّا بعد. فالحمد للّه ماحي دنس الآثام بالحجّ إلى بيته الحرام، و موجب الفوز في المعاد لمن عمل بمراشد أئمة الهدى الكرام؛ و مضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر اللّه به من التلبية و الإحرام؛ و مخوّل الغفران لمن كان بفرائـض الحـجّ ونوافله شديد الولوع و الغرام. و صلّى اللّه على جدّنا محمّد الـذي لبّى و أحرم وبيّن ما أحلّ اللّه و حرّم؛ و على أخيه أبينا أميرالؤمنين عليّ بن أبي طـالب الذي ضرب و كبّر و حقّر من طغى و تجبّر؛ و على الأئمة من ذرّيّتهما أعـلام الدين و حتوف المعتدين. و سلّم و كرّم و شرّف و عظّم. و إنّ من الأيام التي كملتْ محاسنها و تمّت و كثرتْ فضائلها و جمّت و وجب تخليدُ عزّ صفاتها و تعيّن تسطير تأثيراتها، يوم عيد النحر من سنة [كذا].

و كان من قصصه، أنّ الفجر لماسلّ حُسامَه. و أبدى الصباح ابتسامَه، نهض عبيد الدولة في جموع الأولياء و الأنصار و أولي العزيمة و الاسـتبصار ميمّمين القصور الزاهرة، متبرّكين بأفنيتها، و مسـتملين بسـعادتها؛ و تآلـفوا صفوفاً تبهر النواظر، و يخجل تآلّفها تآلّف زهر الرّوض النّاظر، مسـتصحبين فنوناً من الأزياء تروق، و مستتبعين أصنافاً من الأسلحة يغضّ لمعها من لمع اللهب و البروق؛ و الأعلام خافقة، و الرياح بألسنة النصر عـلى الإخـلاص لإمام العصر متوافقة. فأقاموا على تشوّف لظهوره، و التـطلّع للـتبرك بـلامع

نوره؛ و لما بزغت شمس سعادته، و جرت الأمور على إيثاره و إرادته و بدت أنوار الإمامة الجليّة و ظهرت طلعتها البهيّة، خرّ الأنـام سـجوداً بـالدعاء و التمجيد و الاعتراف بأنهم العبيد بنو العبيد. و اسـتقلّ ركـابه أمـيرالمـؤمنين و وزيره السيد الأجل الذي قام بنصر اللّٰه في إنجاد أولائه، و تكفّل للاسلام برفع مناره، و نشر لوائه و ناضل عن حوزة الدين، و جاهد و ناضل أحزاب الكفار و ناهد، يقوم بأحكام الوزارة و تدبير الدولة تدبير أولي الإخلاص و الطهارة، و يتّبع آراء المؤمنين فيها تنفذ به أوامره، و يعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده و مصادره؛ و يحسن السياسة و التدبير و يتوخّى الإصابة في كل صغير من أُمور الدولة العلويّة و كبير؛ و يخلص للّٰه جلّ و عزّ ولإمامه، و يكفكف من الأعداء ببذل الجهد في أعمال لهذمه و حسامه. و سار أمير المؤمنين و العساكر متتابعة في أثره متوافقة على امتثال أمره؛ قد رفـعت السـنابك مـن العـجاج سحاباً، و خيّلت جنن الجند للناظرين في البر عباباً. و الجياد المسومة تموج في أعنّتها و تختال في مراكبها و أجلتها؛ و تسرع فتكسب الرياح نشاطاً و تفيد المتعرّض لوصفها إفراطاً، و تهدي لمن يحـاول ممـاثلتها غـلوّاً و اشـتطاطاً. و أصوات مرتفعة بالتهليل و أصوات الحديد تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل. و يكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل؛ و ترضُّ سنابكها الهـضاب و تـعدو صلابها كالكثيب المهيل[1].

فهذا النموذج مما كتبه ابن قادوس من سجلّات هي من خصائص مصر. و الذي يعلم أن ركوب الإمام الفاطمي لصلاة عيد النحر هو من ترتيب الدولة الفاطمية؛ و هذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنه كما تأثّر الشعرُ بـالعقائد الفاطمية، كذلك تأثرت الكتابة بها تأثيراً يظهر في السـجلّات التي تـصدر في

---

١. صبح الأعشى ٨/ ٣٢٦.

الأعياد و المواسم ـ كهذا السجل ـ، أو في تولية إمام أو إحدى رجال الدولة من وزراء و قضاة و دعاة. في مثل هذه السجلّات كان الكتّاب يلمّون بالعقائد و يؤوّلون بعض آيات القرآن الكريم، بما يتفق و مذهبهم الفاطمي؛ و يذكرون في كتاباتهم رأي الفاطميين في كلّ مناسبة و في كل عيد. فالسجلّات التي صدرت في « عيدالغدير » كانت تنصب عليّاً بن أبي‌طالب والائمة المنصوص عليهم من بعده. و سجلّ مأتم عاشوراء كان في الحسين بن علي، و مالاقاه أهل البيت من أهوال؛ و سجلّ رؤية رمضان في ذكر عقيدة الفاطميين في هلال رمضان. و هكذا كانت هذه السجلّات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لايمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب[1].

و إن القاري لهاتيكم السجلّات، ليرى ظاهرة واضحة كلّ الوضوح في كلّ رسائل الفاطميين، منذ مادخل جوهر خليفة المعز مصر، إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية. و لعلّ هذه الظاهرة هي من عمل الفاطميّين أنفسهم و سياستهم؛ فقد راموا من وراء تلك الظاهرة، تميزَ رسائلِ كتّاب الفاطميين عن غيرهم من كتّاب الدولة الأُخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين؛ بل إنّ هذه توجد في رسائل أتباع مذهب الفاطميّين إلى اليوم. أما تلك الظاهرة فقد دفعتهم عقيدتهم الدينية و تمذهبهم بالمذهب الفاطمي، إلى أن يبدأوا رسائلهم و سجلّاتهم بالحمدلله ثم الصّلاة على النبيّ و على الوصيّ والأئمة من أهل البيت. و كانوا يتعمّدون دائماً أن يذكروا أنّ محمداً جدُّهم؛ فكأنهم يحاولون من وراء هذا التكرار في رسائلهم و سجلّاتهم تأكيد ماحاول خصومهم نفيه من عدم وجود أيّة علاقة و صلة بينهم و بين النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم و أهل البيت عليهم السلام؛ أو كأنه ردٌّ على سجلّات العباسيّين في دحض نسب الفاطميّين.

---

١. في أدب مصر الفاطمية / ٣١٦.

و مهما يكن من شيء فإنّ هذه الظاهرة الدينية كانت من شعائر الفاطميّين، و بها كانت تعرف سجلات الفاطميين عن غيرها؛ كما أنهم كانوا يختمونها بالحمد و الصلاة على النبيّ، و لم يشذّ كاتب من كتّابهم عن الطريقة هذه.

فابن قادوس كان كثيراً مانراه متأثّراً بهذه العقائد الفاطميّة، و سائراً عليها في السجلّات الّتي كان يصدرها من ديوان الإنشاء في الأعياد و المناسبات. و بقي عاملاً فيه إلى أن توفّي عام ٥٥١ في سابع شهر المحرّم. و جاء أن الملك الصالح حضر من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه، و مشى في جنازته إلى تربته عند مسجد الاقدام. و هذا تاريخٌ أجمع عليه المؤرخون جلّهم؛ بيْد أن المقريزي في الخطط، روى قصةً خالف بها المؤرّخينَ في هذا التاريخ، و هي قصة طويلة؛ زعم فيها أن أبا الفتح يأنس الأرمني وزير الحافظ لما عظم شأنه عام ٥٢٦ و ثقل على الخليفة، أخذ كلٌّ منهما في التدبير على الآخر؛ فأعجل يأنس و قبض على حاشية الخليفة، و منهم قاضي القضاة و داعي الدعاة أبو الفخر، و أبوالفتح ابن قادوس، و قتلها؛ فاشتدّ ذلك على الحافظ و عمل على سمّ وزيره.[1] أي أنه ذهب أنّ ابن قادوس قُتل عام ٥٢٦. و قد وهم المقريزيُّ في هذه القصة، فإنّ الدلائل التاريخية تكاد تجمع على أنَّ ابن قادوس، شاهد عصرَ الملكِ الصالح طلائع بن رُزِّيك و وفد على مصر عام تسع و أربعين و خمسمائة.

أضف إلى ذلك أنَّ الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك، كان يغري ابنَ الصياد كما ذكرنا بأنف الجليس بن الحباب؛ فأنشد ابنُ الصياد تلكم المقطّعات التي ذكرنا أنها كانت تربو على ألف مقطوعة. و لم يُسكته إلّا ابن قادوس، و هذا دليل سافر على أنّ ابن قادوس حضر عهد الملك الصالح.

---

١. الخطط المقريزية ٢ /٢٧. ط الاولى سنة ١٣٢٧ هـ.

ثم إنّ الخليفة الفاطمي أشرك ابنَ قادوس مع الموفّق بن الخلال في ديوان الإنشاء؛ و قد قال عمارة اليمني: إنّه وجده بحضرة الصالح بن رزّيك.

و أيضاً أنَّ قصة ابن قادوس مع أبي علي حسن بن زبيد الأنصاري كانت في الخلاف بين حسن بن الحافظ و أبيه. و هذا الخلاف نشأ بعد عام ٥٢٦، و نحن نعلم أن ابني الزبير: المهذب بن الزبير و القاضي الرشيد بن الزبير، الأخوين الشاعرين الذين ضربا بسهم وافر في الفقه و اللّغة و النحو و التاريخ و الطب و المنطق، لم يتقدّما في الديوان إلّا بعد قتل الظافر عام ٥٤٩؛ بل لم يكن لهما ذكر في الدولة قبل هذا التاريخ. و قد هجاه ابن قادوس بقوله:

يـاشِبه لقمانَ بـلا حـكمَة ... و خـاسراً في العلم لاراسخا!
سـلختَ أشـعار الورى كـلّها ... فصرتَ تدعى الأسود السالخا[1]

فمعنى هذا أن الهجاء كان بعد مقتل الظافر، أي بعد سنة ٥٢٦ أيضاً.

فهذه الدلائل إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على عدم صحة قول المقريزي و صحّة ما ذهب إليه جلّ المؤرخون، من أنّ وفاته كانت عام ٥٥١[2] لا عام ٥٢٦.

مصادر ترجمته

أخبار مصر لابن ميسر ٩٧/١. الأعلام ٤١/٨. أعيان الشيعة ١٦٢/٤٧ـ١٦٤. حسن المحاضرة ٣٢٤/١. خريدة القصر، قسم شعراء مصر ٢٢٨/١. الخطط المقريزية ١٨٣/٢. صبح الأعشى ٣٢٦/٨. الغدير ٣١٣/٤ـ٣١٨. في أدب مصر الفاطميّة /٣١٦. كشف الظنون /٧٦٧. معجم المؤلفين

---

١. خريدة القصر: قسم شعراء مصر ٢٢٦/١. و فيات الأعيان ٥٤/١.

٢. تاريخ مصر /٩٧.

١٥٢/١٢. مناقب ابن شهرآشوب ٨٣/٢ و ٥٤/٤. و فيات الأعـيان ٦٢/١. هديّة العارفين ٤٠٣/٢.

طلائع بن رُزِّيک[1]

(٤٩٥ ـ ٥٥٦هـ.)

١

سقَى الحمى و محلّاً كنت أعهدهُ ... حيا بجور بصوب المزن أجودهُ

فإن دنا الغيث و استسقت مرابعه ... ربىً فدمعي بالتّسكاب يَنجُدهُ

بانت أهالي ذاك الحيّ و اقتسموا ... قلبي فأفقد أحبابي و أفقدهُ

أحرزتُ في الصدر دُرّاً من عقودهم ... عند الوداع فأجفاني تبدّدهُ

قد كان يسعدني في البحر أبيضه ... فساعة البين وافاني مورّدهُ

بين السهاد و جفني منكم صلة ... فبعدُكُمُ عن لذيذ النوم يبعدهُ

كأنّما الليلُ يهواني فيرصدني ... كالنجمِ أهواه في ليلي فأرصدهُ

و ليلة بتّ فيها مابها كدر ... و الهَجر قام له وصل ينكّدهُ

يدير كأس حمياها قضيب نقا ... كالخيزرانة أودى بي تأوّدهُ

مهفهف القدّ أخشى من لطافته ... أن يخجل الغصن منه حين يشهدهُ

و قد يطوق أيم في ذوابته ... حرز فعزّ على الراقي تصلدهُ

كما بدا الحق في آل الوصّي فأنـ ... ـوار الهدى لعميّ القلب ترشدهُ

****

يا راكبَ الغيّ دع عنك الضلال فهـ ... ـذا الرشد بالكوفة الغرّاء مشهدهُ

من رُدّت الشمس من بعد المغيب له ... فأدرك الفضل و الأملاك تشهدهُ

و «يوم خمّ» و قد قال النبيُّ له ... بين الحضور و شالت عضدَه يدهُ:

من كنت مولًى له هذا يكون له ... مولًى أتاني به أمر يؤكّدهُ

من كان يخذله فاللّه يخذله ... أو كان يعضده فاللّه يعضدهُ

---

١. رُزِّيک: بضم الراء، وتشديد الزاي المكسورة، و سكون الياء المثناة من تحتها، و بعدها كاف.

قالوا: سمعنا و في أكبادهم حرق و كلٌّ مستمعٍ للقول يجحُدُهُ

و أُظلمت بسواد الحِقد أوجُهُهم و أنّه لم يزل بالفكر أسودهُ

و الباب لمّا دحاه و هو في سغب عن الصيام و ما يخفى تعبّدهُ[١]

و قلقل الحصن فارتاع اليهود له و كان أكثرُهم عمداً يفنّدهُ

و اسأل به مرحباً لمّا أعدّ له مشطباً غير فرّار يجرّدهُ

ألقى مهنّده في وسط قمّته فغاص في الأرض يفريها مهنّدهُ

نادى بأعلى العلى جبريل ممتدحاً: هذا الوصيُّ و هذا الطُّهر أحمدهُ!

و في الفرات حديثٌ إذ طغى فأتى كلٌّ إليه لخوف الهلك يقصدهُ

قالوا: أجِرنا! فقام المرتضى فرحاً بالفضل و اللّه بالإفضال مفردهُ

و قال للماء: غِض طوعاً! فبان لهم حصباؤه حين وافاه يهدّدهُ

فللعفاف و للإيمان طاعته و للقنوت و للتّقوى تهجّدهُ

يا قائمَ الليل تمجيداً لخالقه! و أين مثلك قوّاماً تمجّدهُ؟

يا حجةَ اللّه يا من يستضاء به إلى الهداية يا من طاب مولدهُ!

ألستم أنتم أهلُ الكساء بكم جبريل يفخر إذ فيكم نعدّدهُ؟

يا عروةً سلِم المستمسكون بها و مسلكاً بالولا فيكم يهدّدهُ!

أبوكمُ جدّ في طوعٍ لجدّكم و عترة جدّ في خلف تجدّدهُ

نحن المُقِرُّون بالافضال أنّكم فرعٌ نما إذ ذكا في المجد محتدهُ

نفوز - يا آل طه - باسمكم صلة بعد الصلاة لمن طوعاً نوحّدهُ

جعلتكم - يا بني الزهراء - معتمدي يومَ المعاد بما فيكم أُجدّدهُ

لفظاً بإحسانكم عندي أنثّره دراً و أفعالكم عندي أُنضّدهُ

أنا المظفرُ سيفُ الدين معتقداً أنَّ القريض إذا ما فُهت أُنشدهُ

---

١. السغب: الجماعة، و أسغب الرجل: دخل في الجماعة.

في مـدح آل رسـول اللّـه دار غـدٍ   في جـنة و حسـاماً لي أُجـرّدهُ[1]

****

٢

و قال أيضاً و قد تطرق فيها برثاء السبط الشهيدالإمام الحسين عليه‌السلام، و لايوجد مع الأسف أولُ القصيدة:

فـإن زللتُ قـديماً أوجـهلتُ فـقد   أزال ما كـان مـن جـهلي و مـن زللي
فـحبّه قـد محا عـنّي الذنـوبَ و لو   كانت ذنـوبي مـلء السهـل و الجـبلِ
يا لائمي العروة الوثـق امتسكت بهـا   فـلست أصـغي إلى لوم و لا عـذلِ
جـعلته عـدّتي في النـائبات إذا   أعيت عـليّ و ضـاقت أوجـهُ الحـيَلِ
أما عـليٌّ، عـلت رجـلاه كـاهل خـيـ   ـر الخـلق حـتى أزال العِزَّعن هُـبلِ؟
أمـا عـليٌّ، له العـلم المـصون بـه   قد حُلّيت هـذه الدنـيا مـن العـطلِ؟
أمـا عـليٌّ، له الإيـثار و الكـرم المحـ   ـض الّذي فـاق أهـل الأعـصُرِ الأُولِ
أمّـا عـليٌّ، عـنى مـاءُ الفرات له؟   هل كلَّم الجـنّ و الثـعبان غـير عـليّ؟
و مَـن سـوى حـيدرٍ رُدَّت ذكـاءُ له   من بعد مـاجنحت مـيلاً إلى الطّـفلِ؟
عليٌّ هـل كـان مـاضي غـرب مِـقوله   إذا تـفلَّل سـيف النـطق ذا فـللِ؟
ورايـة الديـن لمّـا كـان حـاملَها   دون الهنابين هـل نـيطت إلى فشـلِ؟
مـا جـردت مـن عـليٍّ ذا الفـقار يـدٌ   إلّا و أغـمـده في هـامة البـطلِ
لم يـقترب يـومَ حـربٍ للـكميّ بـه   إلّاو قـرَّب مـنه مـدَّةَ الأجـلِ
قد صاب في رأس عمرو العامريّ و في   يا فوخ مرحبَ صوبَ العارض الهطِلِ
و في مـواقـفَ لايحـصى لهـا عـددٌ   مـا كـان فـيها بـرِعْديدٍ و لا نكـلِ

---

١. ديوان طلايع بن رُزِّيك /٧٣ـ ٧٥. و ذكر بـعض أبـياته في أعـيان الشـيعة ١٠٥/٣٦. و الغـدير ٣٤١/٤. و المناقب لابن شهرآشوب ٤٠/٣.

و مـدَّعي القـول بـالإجماع يـنقضه ... كم قد تخلّف عند العهد من رجلِ!
سـلمانُ مـنهم و عـمّارٌ و سـعد كـذا ... العباسُ ـ لاشكَّ ـ و المقداد و الدؤلي
كـم كـربة لأخـيه المـصطفى فـرجت ... بـه و كـان رهـينَ الحـادث الجـللِ
كم بين مَن كان قدسنَّ الهروب و من ... في الحـرب إن زالت الأجـبالُ لم يـزلِ
في «هـل أتى» بـيَّن الرحمان رتـبته ... في جوده فـتمسّكْ ـ يـا أخـي ـ تهـلِ
عـليٌّ قـال: اسألوني كـي أبـينَ لكـم ... عـلمي و غـيرُ عـليٍّ ذاك لم يـقلِ
بـل قـال: لستُ بخـيرٍ إذ وُليـتكم ... فـقوّموني فـإني غـير مـعتدلِ!
إن كـان قـد أنكـر الحُسّـاد رتـبته ... فـقدأ قـرّ له بـا لحـق كـلُّ ولي
و في «الغـدير» له الفـضلُ الشهـيرُبما ... نـصَّ النـبيُّ له في مجـمع حـفلِ
و مـن يـخطّي نهـار الحـق منه فـما ... غـنى بهـارون فـيه ضـارب المـثلِ
قال النبيُّ لنا: أُوصـوا! و مـات ـ كـما ... قالوا ـ و لم يوصِ؟! يا بُعداً لذي جدلِ!
هذا التـناقض أوهـى عـلمهم و بـذا ... يـستضحك الجـهل فـيه سـاير المـثلِ
فأصـبحوا غـنماً في غـيِّها هـملاً ... فـتُه عـلى غـنم في غـيّها هـملِ
فـإن تـقولوا: بأن اللّـه قـد أمرالـ ... هـادي بهـذا و مـا هـذا بمـحتمَلِ
فـاللّه يخـتار ليس الاخـتيار إلى ... زيـد و عـمرو فـما للبغي لم يحـلِ
و كـان مـنهم أبـوذرٌ و مـالكُ الـ ... نخعي و قـيسٌ و أعـيان مـن النـبلِ
فـباع مـنها أبـوسفيان آخـرةً ... مـنه بـدنياً فسـل عـن رأيـه الخـطلِ
كم من ربـاع لهـم في حسـنها أهـلت ... حتّى اخـتبرنا و جـدنا دارس الطـللِ
لو لم يكـن لعـليٍّ غـير مـنقبة ... فـقد كـفاه بـقربى خـاتم الرسـلِ
و رُبَّ لائمـة لامت فـقلت لهـا: ... إليك عـني فـإني عـنكِ في شـغلِ
و الصـدق أزيـنُ لي قـلب يـقلّب في ... ضرام وجـدٍ عـلى الأيّـام في شـعلِ
أميل مـن أسـف مـن غـيرما سكـر ... همـابه مـثل مـيل الشـارب الثمـلِ
أقول: يـاليتني قـد كـنت في زمـن الـ ... هـادي لأحـضر فـيه وقـعة الجـملِ!
ليشـتفي كـبدي ضربـاً بـذي شـطب ... في الظـالمين و طـعناً بـالقنا الذبـلِ

و إنـــــني لِــقتيلِ الطــف مكــتئب — إذ راحــتي لبــني اللــخناء لم تــطلِ
و إنَّ ســـيفي عــفَّ عـــن دمـــائهم — و إنّ طــرفي عــلى الأنجــاس لم يجــلِ
حـــتى أكــون إذا اســودَّت وجــوهُهم — ألق إلهــي بــوجه في المــعاد جــلي
و يا بني الطّــهر إن غــابت جسـومُكم — عن رأي عــيني فما تــنأون بــالرحــلِ
فأنــتم الذخــرُ في حــشري و عــافيتي — في عــلّتي، و بكــم أمــني مــن الوجــلِ
فــايولَّي ضـــميري عـــن ولائكـــم — و لاتمـــيل اللـــيالي بي إلى المــللِ
و لائكـــم في ضــمير القــلب مسكــنه — و ذكرُكم في فــي أحــلى مــن العســلِ
و إذ بحـــــبّكم ربّي تخـــيَّر لي — أعــلى الأنــام فما آسي عــلى السـغلِ
إنّ «ابن رُزّيك» ذو قلب يــواجــهكم — مـــن الولاء بــوجه مــنه مــقتبلِ
يــصوغ فــيكم رياضاًمن مــدائــحه — كالروض دبّجه وشيُ النَّــدَى الخَــضِلِ
مــثل العــرائس تُجــلَى مــن مــلابسها — عــلى المسامع في حُــلْيٍ مــن الحــللِ
بيض المــعاني إذا اســودَّت مــدارعــها — فــربُّها آمــن مــن حمــرة الخــجلِ
مــثل النــجوم تحثُّ الســير وادعــةً — في كــلّ أرض و لاتــعتاق بــا لكــللِ
تــلهى العــقول الرصينات البــناءبها — عن الشــموس التي يــغرين في الكــللِ
كأنّمــا في الخــدود النــاصعات جــرى — مـــاء اللــمى فــاعتراه النهب بــالقبلِ
بــيضاء ســـوداء في حـــالٍ كأنّ بهـــا — عـــلى الحـــقيقة سرُّ الأعـــين النجلِ
و مـــا الإمـــارة مـــن نـــطقي بمــانعةٍ — الســـيفُ لي و أفـــانينُ البـــلاغة لي[۱]

****

۳

و قال راثياً العترة الطاهرة عليهم السلام :

لاتـــبكِ للــجيرة السّــارين في الظّــعنِ — و لا تــعرِّج عـــلى الأطــلال و الدِّمَــنِ

---

۱. ديوان طلايع /۱۰٦ـ۱۰۹. و جاء بعض أبياتها في المناقب لابن شهر آشوب. و الغدير ٣٤٢/٤.

فليس بعد مشيب الرأس من غزلٍ و لا حنين إلى إلف و لا سكَنِ
و تُب إلى اللّه و استشفع بخيرته من خلقه، ذي الأيادي البيضِ و المِنَنِ
محمّدٌ خاتم الرّسل الّذي سبقت به بشارة «قسٍّ» و «ابن ذي يزنِ»
و أنذر النّطقاءَ الصادقون بما يكون من أمره و الطهر لم يكنِ
الكامل الوصف في حلمٍ و في كرمٍ و الطاهر الأصل من دان و من درنِ
ظلُّ الإلّه و مفتاح النّجاة و ينـ بوع الحياة و غيث العارض الهتنِ
فاجعله ذخرك في الداريـن معتصماً له و بـ«المرتضى الهادي أبي الحسنِ»
وصيّه و مواسيه و ناصره على أعاديه من قيس و من يمنِ
ذاك الّذي طلّق الدنيا لعمري عن زهدٍ و قد سفرت عن وجهها الحسنِ
و أوضح المشكلاتِ الخافيات و قد دقّت على الفكر و اغتاضت على الفطنِ
أليس في «هل أتى» مايستدلّ به من كان لايتعدّى واضحَ السُّننِ؟
و قصّة «الطائر المشويّ» قد كشفت عن كلّ قلبٍ غطاء الرين و الظننِ
في يوم بدرٍ و أُحُد و المذاد و في حنين أو خيبرٍ هل كان ذا وهنِ؟
و من تفرّد في القربى و قد حسنت أفعاله فغدت تاجاً على الزّمنِ؟
أوصى النّبيُّ إليه لا إلى أحدٍ سواه في «خمّ» و الأصحاب في علنِ
فقال: هذا وصيّي و الخليفةُ مِن بعدي و ذو العلم بالمفروض و السُّننِ
قالوا: سمعنا فلمّا أن قضى غدروا و الطُّهر أحمد ماواروه في الجبنِ
ثم اقتفى فعله الثاني و رام على الـ إغضاء عن حقّه خوفاً من الفتنِ
و جاء بالظلم و العدوان ثالثهم والدِّينُ من فعلهم ذو مدمع هتنِ
و عاد زوجُ البتول الطهر فاطمةٍ أخو النبيِّ يُرى في زيّ ممتهنِ
و أظهروا الحِقد في آل الرسول فما تطوى جوانحهم إلّا على إحنِ
حتى لقد حملوهم في زمان بني أُميّةَ فوق حدّ الصارم الخشنِ
لان عداني زماني عندهم فلقد ذممت لمّا عداني عنهمُ زمني
ياحَرَّ قلبي على قتل الحسين و يا لهفي و يا طول تعدادي و يا حزني!

لهفي على الأنجمِ الزُّهر التي أفلت   و أبعدَتها بنوحربٍ عن الوطنِ

سَبَوْا حريمَ رسول اللّه بل طعنوا   فيه بهم بأنابيب القنا اللدنِ

لهفي على عُصَبٍ بالطَّفِّ ظامية   نالتْ من القتل فيهم أعظم المحنِ

و آلُ حرب لهم صفو الفرات و لم   يسمح لهم بشراب الآجن الأسنِ

أشهى إليَّ من المحيَى المماتُ إذا   ذكرت مصرعَهم و اعتادني حزني

لمّا تذكرت إذ سالت دماؤهم   على النحور مضى صبري و ودَّعني

أظللت صبري فهل يا قوم ينشده   لي ناشدٌ، و له يا قوم ينشدني؟

يا أُمّة عدمت أخلاقها سفهاً!   فالغدر كان بها يجري مع اللبنِ

غرقتم في بحار الغيِّ يقذفكم   إلى الجحيم و خيّبتم عن السفنِ

غوّصتموني عن آل الرسول أسيً   فصرت فيهم حليفَ الوجد و الحزنِ

فالوجد منّي لا يغني تضرّمه   عليهمُ أبداً و الدمع لم يخنِ

أغريتموني بأن أبدي مقابحكم   و أن أُردّي إليكم أظهر الجننِ

يكفيكم أن أجزتم ظلمَ فاطمةٍ   و قتلُكمْ للحسين الطُّهْر و الحسنِ

و قاتلُ ابن البتولِ الطّهر فهو كمن   عدا لها غاصباً في أوّل الزَّمنِ

فما عدا ابن زياد ظلم أوّلكم   بل اقتدى حين أجراه على سننِ

قلبي بحبّي لأهل البيت مرتهن   و بالطغاة، فقلبي غير مرتهنِ

إذا سمعت بقوم ينتمون لهم   يهزّني الشوق هزّ الريح للغصنِ

هنتم غداة جعلتم في معاويةٍ   حقَّ الوصيِّ فأما الحقُّ لم يهنِ

أنا «ابن رُزِّيك» لا أبغي بهم بدلاً   حتّى أُوَسَّد في لحدي و في كفني[1]

****

١. ديوان طلايع /١٤٦ـ١٤٨. و ذكر ابن شهرآشوب في المناقب ٧أبياتٍ منها. و في الغدير ٣٤٢/٤ ذكر ٩ أبيات. و في أعيان الشيعة ١٠٦/٣٦ جاء ٥ أبيات.

٤

و أنشد في مناقب العترة الطاهرة عليهم‌السلام:

أنـا مـن شيعة الإمام علـيٍّ ... حـرب أعـداءه، و سـلم الوليّ
أنا من شيعة الإمام الّذي ما ... ـال في عـمره لفـعلٍ دنيّ
أنا عبدٌ لصاحب الحـوض سا ... قي مـن تـوالى فـيه بكأسٍ رويّ
أنـا عـبدٌ لمـن أبـان لنـا المشـ ... ـكل فـارتاض كـلُّ صـعبٍ أبيّ
و الّـذي كـبّرت مـلائكةُ اللّـه ... له عـنـد صَرعـة العـامريّ
الإمـام الّـذي تخـيّره اللّـ ... ـه بـلا مـرية أخـاً للـنّبيّ
قَـسماً مـاوقاه بـالنفس لمّـا ... بات في الفرش عنه غـير عـليّ!
و لَعمري إذ حلّ في يـوم «خُـمٍّ» ... لم يكـن مـوصياً لغـير الوصيّ
المـبرّى مـن كـلّ عـيب و ريبٍ ... و المسـوّى بـغير نـقص و عـيّ
فـبهِ قـد هـداني اللّـه للـحقـ ... ـقِ فمـا لي ورأي كـلِّ غـويّ
خـفِيَ الفـضلُ في سـواه و أمّـا ... فـضله في الوغـى لَـغيرُ خـفيّ
من تغابى عنه فمثلي عـن الفـضـ ... ـل الشهـير المـبين غـير غـبيّ
و اتصالي به لدى الحرب أبـدى ... لي نصراً عـلى الشـجاع الكمـيّ
و إذا أُظـلمت خـنادس خـطب ... كـنت منه عـلى رجـاء مـضيّ
و أنـا مـنذ كـنت أسـعى لسـادا ... تي على منهج الصِّراطِ السَّـويّ
يا ضـعيفَ اليـقين، إنّ اعـتقادي ... في عـليٍّ عـلى يـقين قـويّ
أنـا في القـول لا أُطـيع غـويّاً ... إذ مـطيع الغـويِّ نـفسُ الغـويّ
ذكـر آل النـبيّ عـندي كـالبُشـ ... ـرى و ذكرى سـواهـم كـالنعيّ
قد جرى حبّهم بجسمي كما احـتـ ... ـلّت مجاري الرضاع جسمَ الصبيّ
أنـا أسـخو بـالمال لكـن بـديني ... ـ إن تأمّـلتني ـ فـغيرُ سـخيّ
في ولائي أبرى مـن الظـالم الغـا ... شم فـاسكن إلى وليٍّ بـريّ

مــن دعــاني إلى الأئمّــة أسرعــ ت إليـــه و لم أكــن بــبطيّ
و إذا مــاخيار قــومي رضــوا عــ نيَ لم أحـــتفل بـــغير رضيّ
فاجتل الآن من نـظام «ابـن رزّ يک» حـلياً يـفوق نـظم الحـليّ
و إذا أجــدبتْ خــواطـر قــوم فاحظ من خاطري بروض نديّ
خــاطر تــقرب المـعاني عـليه إن دعـاها مـن المكـان القـصيّ
كــلم تكسب المـعاطف و التـيـ جان هزاً إن أنشدت في النـديّ[1]

الشاعر

ابوالغارات الملك الصالح، فارس المسلمين، نصيرالدين طلائع بن رُزّيك ابن الصالح الأرمني. ولد سنة ٤٩٥ في اسرة كانت تسكن صقع جـبل عـظيم يسمّى «إرمينية».

إنّ قصّة طلائع و توليته العرش الفاطمي غريبة جدّاً؛ فقد ذكر المقريزي حكايةً مفادها: أنّه زار الملك الصالح مشهد الإمام عليٍّ بن ابي‌طالب رضي‌الله‌عنه في جماعة من الفقراء و أمام مشهد علي رضي‌الله عنه يومئذ السيد ابن مـعصوم؛ فزار طلائع و أصحابه و باتوا هنالک؛ فرأى‌السيد في منامه الإمام صلوات‌الله عليه يقول له: قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له: طلائع بن رزّيك، من اكبر محبيّنا. فقل له: اذهب فإنّا قد ولّيناك مصر! فلمّا أصبح، أمَر من ينادي: مَن فيكم اسمه طلائع بن رُزّيك فليقم إلى السيد ابن مـعصوم! فـجاء طلائع إلى السيّد و سلّم عليه فقصّ عليه رؤياه؛ فرحل إلى مصر و أخذ أمره في الرّقي. فلمّا قتل نصرٌ بن عباس، الخليفة الظافر اسماعيل، اسـتثارت نسـاء القصر لأخذ ثاراته بكتاب في طيّه شعورهن. فحشد طلائع الناس يريد النكبة بالوزير القاتل؛ فلما قرب من القاهرة فرّالرجل و دخل طلائع المدينة بطمأنينة

---

١. ديوان طلايع / ١٧١ـ ١٧٢. الغدير ٣٤٢/٤ ذكر منها ٨ ابيات.

و سلام. فخلعتْ عليه خلايع الوزارة و لُقّب بالملك الصالح فارس المسلمين، نصير الدين؛ فنشر الأمنَ و أحسن السيرة[١].

وبعد دخوله مصر، عمل بكل قواه في الدعوة للفاطمية و تقرّب إلى البلاط و عيّن والياً على قوص و من ثَمَّ والياً على أسوان. و قرر البلاط أن يدخل الصعيدُ المصري تحت ولايته و يخضع لإمرته.

دخل طلائع القاهرة فوضع السيف بين من بق من أصحاب عباس الصنهاجي، و تكفّل أمر الخليفة و ساس الأمور و كاتب الفرنجَ و طلب منهم نصر بن عباس و بذل إليهم أموالاً إلى أن تسلّمه؛ فلما وصل الى القاهرة سلّمه إلى نساء القصر فأقَمْن يضربنه بالقباقيب و الزرابيل أيّاماً و قطّعن لحمه و أطعمنه إيّاه إلى أن مات ثم صُلب[٢].

لقد لعب الشّعرُ دوراً هامّاً في دعوة طلائع للأخذ بثار الخليفة و من بعد أن اعتلى دست الحكم لأنّه كان مولعاً بالشعر مقرّباً للشعراء، يفدُ عليه أكبرُ أعيانِ أهل الأدب مثل القاضي الجليس و الموفّق بن الخلال و ابن قادوس و المهذب بن الزبير و الرشيد بن الزبير و غيرهم من الذين وصفهم الفقيه عمارة بقوله: و ما من هذه الحلبة أحد إلّا و يضرب في الفضائل النفسانية و الرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، و مازلت أحذو على طرائفهم و أعرض جزعي في سوابقهم حتى أثبتوني في جرائدهم[٣].

فهؤلاء الأعلام كانوا يجتمعون فيمجلس المترجَم له يتناشدون الشعرَ و يتناظرون في بعض المسائل العلميّة و الأدبيةِ و يستمعون إلى شعر الملِك الصالح.

---

١. الخطط ٤ / ٨١ـ٨٣.

٢. النجوم الزاهرة ٥ / ٢٩٣.

٣. النكت العصرية / ٣٥.

و فيذلك يقول صاحب النجوم الزاهرة: و جعل له مجلساً في أكثر اللّيالي يحضره أهل الأدب؛ و نضم هو شعراً و دوَّنه، و صار الناس يَهرَعون إلى نقل شعره. و ربّما أصلحه له شاعر كان يصحبه يقال له ابن الزبير[1] و يظهر أنّ الملِك الصالح كان ينشد القصيدة أو المقطوعة ولكنَّه كان يَعرض ما ينشده على المهذب بن الزبير، و على غيرِ المهذب ممَّن كان يُتوسَّم فيهم مقدرة و كفايةٌ على تثقيف الشعر. إذ يحدّثنا عمارة اليمني: و دخلت إليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ٥٥٦ قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السماط ، و لم أكن رأيته من أوّل الشهر بليلة، فأمرلي بذهب و قال: لا تبرح! و دخل ثم خرج إليَّ و في يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما فيتلك الساعة و هما:

نحن في غفلة و نوم و للمو ... تِ عُيونٌ يقظانةٌ لاتنامُ
قد رحلنا إلى الحِمام سنيناً ... ليت شعري متى يكونُ الحمامُ[2]

ثم قال لي: تأمَّلهما و أصلِحهما ان كان فيهما شيءٌ! قلت هما صالحان[3].

فالملك الصالح كان يستعين بفحول الشعر فيعصره لإصلاح شعره و ليس في ذلك ما ينقص من قدرته في الشعر. و المؤرخون يحدّثوننا أنّ بعضَ فحول شعراء العرب كانوا يَعرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء؛ فمروان ابن ابي حفصة، شاعر هارون الرشيد الرسمي، كان يعرض شعره على أبي تمام، و كان أكثر الشعراء يعرضون شعرهم على الأصمعي أو غيره من اللُّغويِّين. فإذا كان الملك الصالح طلائع، قد استعان بالمهذّب أو بعمارة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لإصلاح شعره، فإنَّ ذلك يدلُّنا على أنّ هذا الوزير كان يعرف قيمة

---

١. النجوم الزاهرة ٥ / ٣١٢.

٢. ديوان طلايع: قافيه الميم / ١٣٢.

٣. النكت العصرية / ٤٩.

الشعر؛ فلم يستبِح لنفسه أن يعرض شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر و صلاحه. و لكن ياقوت ذكر في معجم الأُدباء في حديثه عن ابن الزبير: قيل إنّ أكثر الشعر الذي في ديوان الصالح إنّما هو عمل المهذب بن الزبير.[١] و لا ادري من اين استق ياقوت هذا الخبر؟ و ربما اشتبه عليه الأمر فظن انّ ابن الزبير هو صاحب الشعر الذي في ديوان ابن الرزّيك بدلاً من أنّه كان يثقف هذا الشعر. و قد انتهت إلينا قطعة من قصيدة لابن الزبير يتحدّث فيها عن شعر الملك الصالح منها:

و لَـنار فطنته تُـريك لشعره ... عــذباً يـروّي غـلّة الظّـمآنِ
و عــقود درٍّ لو تجسّم لفظُها ... مـارصّعت إلّا عـلى التـيجانِ
و تنزّهت عن أن يرى أفوادها ... لمــواضــع الأقـراط و الآذانِ
من كلّ رائعة الجمال زهت بهـا ... بـين القـصائد غـرّة السـلطانِ
سـيّارة في الأرض لايـعتاقها ... في سيرها قَـيدٌ مـن الأوزانِ[٢]

و لم يكن الملك الصالح شاعراً فحسب؛ بل كان في الوقت نفسه يُعدُّ من عظماء علماء المذهب الجعفريّ. و يقول المقريزي إنّ له قصيدة سمّاها: «الجوهرة في الرّد على القدَرية[٣]» و صنّف كتاباً أسماه: «الاعتماد في الرّد على أهل العناد» جمع كافّة المناقشات العقائدية التي جرت له مع علماء بقية النّحل و الطوائف.

---

١. معجم الأُدباء ٩ / ٤٧.

٢. في أدب مصر الفاطمية / ١٩٦.

٣. الخطط ٤ / ٨٢.

ديوان طلائع بن رزّيك

لقد أجمع أصحابُ السِّير و التاريخ أنَّ طلائع حاز من العلوم و الآداب مالم يدانه فيه أحد. و أنّه سمع من الشعر فأكثر و كان متكلّماً شاعراً أديباً جيّدالشعر، يقع ديوانه في جزئين[۱]. و أنّه كان متحمّساً في عقيدته و دعوته إلى الفاطمية إلى جانب سياسته الحكيمة و تظلُّعه في مهام الحرب و شؤونها؛ لذلك رأيتني انصرفتُ إلى جمع شعره و تهذيبه و البحث عنه في بطون المجاميع الخطّية و كتب التاريخ و الأدب، ردحاً من الزّمن؛ و وضعت دراسة تحليلّية عن الشاعر جاءت في صورة مفصّلة و في مجلّد كبير يحتوي على أكثر من ألفين بيت؛ أهمُّها في مدح العترة الطاهرة و أغراض مختلفة أُخرى، رتَّبتُه حسب القوافي و الحروف[۲].

و من المؤسف جداً أن يتصدَّى لجمع شعره أديبٌ مصري، الدكتور أحمد احمد بدوي استاذ النقد الأدبي، المساعد بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، فيُخرج عام ۱۹۵۸ كتيباً مفكّكا باسم «ديوان طلائع بن رزّيك» يودع فيه من شعره ۵۰۱ بيتاً و يضرب عن بقية شعره و نظمه في الأئمة عرض الجدار، مع عدم ذكر الأسباب الّتي حدت بالدكتور حذفَ قسم كبير من شعره و طبعَ جزء ضئيل منه؛ كما إنّ دراسة الدكتور لشخصيّة طلائع مبتورة و ناقصة لم تشمل دراسته حياة الشاعر بكاملها، مع مافيها من آراء و نظريات لم تتركّز على أساسٍ تاريخيٍّ و لم تُبنَ على حجج تاريخية؛ بل هي بعيدةٌ عنها غاية البعد. إلى غير هذا من المآخذ التي شوّهت ديوان طلائع؛ و ليته لم يخرّجه بهذه الصورة المشوَّهة! و يقع في ۱۱٤ صفحة بقطع الربع و من مطبوعات مكتبة

---

۱. تاريخ ابن خلّكان ۱ / ۲۰۸. النجوم الزاهرة ۵ / ۳۱۰. خريدة القصر؛ قسم شعراء مصر ۱ / ۱۷۳.

۲. طبع عام ۱۳۸۳هـ. / ۱۹٦٤م.

نهضة مصر بالفجالة. و قد رتّبه حسب الأبواب العروضية ابتداءًه بباب الغزل و ختمه بباب المدح و أعقبه بباب ماجرى بينه و بين أُسامة.

و عملُ الدكتور هذا و إن اعتبرناه ثمـرة طـيّبة في الإفـادة و القـضايا الفاطمية بيد أنّنا لم نرضَ من سيادته تفكيكه لشعر طلائع، و تمزيقه له و حذف و بتر ما لاتروقه. و هذا بحق خيانة تاريخية، و جناية أدبيّة و إماتة للأدب و أهله.

و مهما يكن من أمرٍ فعندما مات الخليفة الفاطمي الفائز، أقام العاضد في الخلافة و تولّى تدبير ملكه على عادته؛ و ثقل طلائع على العاضد، فـدبّر في قتله. فلما كان عاشر شهر رجب عام ٥٥٦ عند مـا حـضر المـترجَـم قـصر الخلافة وثب عليه باطنيٌّ فضربه بسكّين في رأسه و قُتل الباطنيّ. و مات الملك الصالح من الغد؛ و حزن الناس عليه لحسن سيرته؛ و أُقيم المآتم عليه بالقصر في القاهرة و مصر.[١] و فرح بذلك العاضد و قام في الوزارة بـعده رُزّيك ابـنُ المترجَم له و سار على سيرة أبيه. فلم يحسن ذلك ببال العـاضد، فكـتب إلى شاور بن مجير الذي وليه الصعيد، فقدِّم مع جمع من العبيد و الأوْغاد و قـدِم القاهرة لمحاربة آل رزّيك؛ فوقع احتدامٌ بينهما و فرّ رزّيك ثم أُلقي عليه و قتل؛ و أخذت الحالة تسير بهدوء نحو الاضطراب و الدمـار. دُفـن المـلك الصـالح بالقاهرة ثم نَقل عام ٥٥٧ ولدُه العادل الوزير الشاعرُ تابوتَ والده من القاهرة إلى مشهدٍ بُني له في القرافة، و رثاه جماعة من الشعراء.

---

١. النجوم الزاهرة ٤ / ٣١٤، ٣٤٥.

القاضي الجليس

(المتوفى ٥٦١هـ.)

دعــاه لِــوَشك البـين داعٍ فأسمـعا | و أودع جسمي سـقمه حـين ودَّعـا
و لم يُبقِ في قـلبي لصـبري مـوضعاً | و قد سار طوع النأي و البعد موضعا
أجــنُّ إذا مــا اللـيل جنّ كآبـةً | و أُبدي إذا مـا الصـبح أزمـع أدمـعا
و ما انقدتُ طوعاً للهوى قبل هـذه | و قد كنت ألوى عنه ليناً و أخـدعا

إلى أن يقول:

تصاممت عن داعي الصبابة و الصّبى | و لبَّـيتُ داعـي آل أحمـدَ إذ دعـا
عَشوتُ بأفكاري إلى ضوء عـلمهم | فـصادفتُ مـنه منهج الحـقّ مَـهْيعا
علقت بهـم فـليلْحُ في ذاك مـن لحـا | تــولَّيتهم فــلينعَ ذلك مــن نــعَى
تــسرّعتُ في مـدحي لهـم متبرّعاً | و أقــلعت عـن تـركي له مـتورّعا
هــم الصــائمون القــائمون لرّبهـم | هــم الخــايفوه خشـيةً و تخشّـعا
هـم القـاطعوا اللـيل البهـيم تهـجّداً | هــم العــامروه سُـجّداً فـيه ركّـعا
هم الطيبوا الأخيار و الخيرُ في الورى | يروقون مـرئىً أو يشـوقون مسـمعا
بهم تُقبل الأعـال مـن كـلّ عـاملٍ | بهـم تُـرفع الطّـاعات ممّـن تـطوّعا
بأسمائـهم يُسـق الأنـام و يهـطل الـ | غـمام و كـم كـربٍ بهـم قـد تـقشّعا
هــم القــائلون الفــاعلون تـبرُّعاً | هــم العــالمون العــاملون تـورُّعا
أبوهم وصيُّ المـصطفى حـاز عـلمَه | و أودعه مـن قـبل مـا كـان أودعـا
أقام عـمودَ الشرع بـعد اعـوجاجه | و ســانَد ركـنَ الدّيـن أن يـتصدّعا
و واسـاه بـالنفس النـفيسة دونهـم | و لم يخشَ أن يـلق عـداه فـيجزعا
وسمّاه مــولاهم و قــد قـام معلناً | ليـتلوَه في كـلّ فــضلٍ و يشـفعا
فمن كشـف الغـمّاء عـن وجـه أحمـدٍ | و قــد كــرَبَت أقـرانـه أن يـقطّعا؟
و من هزّ باب الحصن في يوم خـيبرٍ | فزلزل أرض المـشركين و زعـزعا؟

و في يــوم بـدرٍ مـن أحـنّ قَـليبها ... جسوماً بها تـدمي و هـاماً مـقطّعا؟
و كم حـاسدٍ أغـراه بـالحقد فـضله ... و ذلك فـضلٌ مـثلُه ليس يـدَّعى
لوى غـدره «يـوم الغـدير» بحـقّه ... و أعـقبه «يـوم البـعير» وأتـبعا
و حـاربه القـرآن عـنه فـا ارعـوى ... و عـاتبه الإسـلام فـيه فـا وعـى
إذا رام أن يُخـفي مـناقبه جـلت ... و إن رام أن يُـطفي سـناه تشـعشعا
متى همّ أن يطوي شذى المسك كاتمٌ ... أبى عَـرفه المـعروف إلّا تـضوّعا
أيـا أُمّـةً لم تـرَعَ للـدين حـرمةً ... و لم تبق في قـوس الضـلالة منزعا!
بأيِّ كـتاب أم بأيّـة حـجّةٍ ... نـقضتُمْ بهـا مـا سنَّه اللّـه أجمـعا ؟
غـضبتم و ليَّ الحـقِّ مهجةَ نـفسه ... و كان لكـم غـصبُ الإمـامة مـقنعا
و ألجـمتمُ آلَ النـبيِّ سـيوفكم ... تُفرّي من السادات سوقاً و أذرعـا
و حـلّلتمُ في كـربلاء دمـاءَ هـم ... فأضحت بهـا هـيم الأسنّة شرّعـا
و حـرّمتم مـاءَ الفـرات عـليهم ... فأصـبح محـظوراً لديهـم ممـنّعا[1]

الشاعر

أبوالمعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحَباب[2] الأغلبي السعدي الصقلي المعروف: بالقاضي الجليس، الملقّب: بأمين الدولة، المتوفى ٥٦١ هـ.

أحد الشعراء الذين كان يقتدي بهم الفقية عمارة اليمني في مـدح المـلك الصالح طلائع؛ و يُعدّ من مُقدَّمي شعراء مصر و كتّابهم. و أدرك عصر ثلاثة من خلفاء الفاطميّين : الظافر و الفائز و العاضد. و هو الذّي أرسـل بـقصائد إلى طلائع، و كان لها أثرها البالغ في نفس الملك الصالح. و استدعاه من الصـعيد للأخذ بثار الخليفة الظافر، و تلقيبه بالجليس لكثرة مجالسته للخلفاء، و تقرّبه

---

١. الغدير ٣٨٤/٤. و ذكر ابن شهر آشوب في المناقب ٧٧/٤ من القصيدة ٦ أبياتٍ.

٢. و جاء في بعض المراجع «الحباب» و في موضع «الجبّاب» بالجيم و الباء الواحدة المشدّدة و بعد الألف باء.

منهم. و هذا ممّا دعى الشعراء أن يمدحوه و يلوذوا به، و ينشدوا مدائحهم فيه.

كان القاضي الجليس ممن أغرق نزعاً في موالاة العترة الطاهرة، كما ينمُّ عنه شعره. و في أيام الفائز ... كان كاتباً في ديوان الإنشاء مع الموفَّق بن الخلال؛ و هذا مما جعله أن ينصرف من قرض الشعر، و يقلَّ إنتاجا فيه. و هذا ما جعله أن لا يهتمَّ بالشعر اهتمام زملائه الشعراء. و ربّما كانت الصّلة التي بينه و بين الملك الصالح، جعلَته ينظم بين آونة و أُخرى. فقد جاء أنَّ الملك الصالح عند ما كان ينظم قصيدة يأمر مماليكه و منهم القاضي الجليس بعمل قصيدة مثلها. و لهذا تراه كثيراً ما يمدح ابن رُزّيك في شعره؛ فمنها قوله من قصيدة:

و لقد رضيت بخير طبعك حاكماً ... ياخيرَ مأمول و أكرم غافرِ!

حَلَّيت ـ يابحرَ السماحة ـ حالتي ... بفواضل و مسامعي بجواهرِ

و بلغت في الإكرام بي فوقَ المُنى ... فغدوت ربَّ مناقب و مفاخرِ

واتيتني من حسن رأيك منزلاً ... يسمو على نسر النجوم الطايرِ

فلذاك شكري ليس يبرح ماثلاً ... في منطق و ممثّلاً في خاطري

فاسلم مديدَ العمر محميَّ الذرى ... من كلّ خطب عاير أو عابرِ

حتى يعدّ الناس ما قد شاهدوا ... من طول عمرك في الغريب النادرِ

و قال في قصيدة غالى في حقّه، و لا يحسب غلواً دونه. و ذكر أنَّ الملكَ الصالحَ هو السبب فحسب في بقاء الدولة بعد الظافر؛ و لولاه لذهبت ضحية الدمار و النهب؛ و أنه الذي دفعه إلى إنشاد الشعر و إليه يعود الفضل في ذلك؛ و أول القصيدة قوله :

على كلّ خير من وصالك مانعُ ... و في كلّ لحظٍ من جمالك شافعُ

إلى أن يقول :

كفيل إمام العصر و الصالحُ الذي ... بعزمته أودى الشقيّ المقاطعُ

و لولاه كان القصر نهباً مقسَّماً — و هُتِّك أستارٌ و عمَّت فجايعُ
و لكنَّه وافى من اللّه نجدة — يجاهد عنهم دائماً و يمانعُ
فقرّت به عينُ النَّبيّ و آله — و أدرك آثار و قرّت مضاجعُ
هو الملك الوضّاح و الصّالح الذي — له صدق عزم للمصالح جامعُ
فهمّته في أن تشاد مساجدٌ — و همّ سواه أن تشاد مصانعُ
أيا ملِك الأملاک! لولاك ما أتت — إلينا أوابِي الشعر و هي طوايعُ[1]

فهذه الأبيات و غيرها، إن دلّت على شيء فإنّما تدل على أن القاضي الجليس كان قليل الإنتاج في الشعر. و لكنَّ الأدوارَ الأدبية التي مرّت على مصر، و لعب الشعر على مسرحها فتقدم و اكتظت القاهرة بالشعراء، حبّب لنفس القاضي ذلک، و أخذ يقول الشعر في كلّ مناسبة أو في كلّ ناد و مجلس. فقد أنشد بعض جلساء الملك الصالح بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يُسمُّيها المصريون : «الزكالش» و يسمّيها العراقيون : «كان و كان» :

النّار بين ضلوعي — و ناغريقٌ في دموعي
كني فتيلة قنديل — أموت غريق و حريق

و كان عنده القاضي الجليس، فنظم معناه بديهاً فقال:

هل عاذرٌ إن رمت خلع عذاري — في شمّ سالفةٍ ولثم عذارِ؟
تتآلف الأضداد فيه و لم تزل — في سالف الأيام ذات نفارِ
و له من الزّفرات لفح صواعق — و له من العبرات لجُّ بحارِ[2]

---

١. ديوان طلايع /٢٨ ـ المقدمة.

٢. في نسخة: تردى و بالعبرات سحّ بحار.

كـذبالة القـنديل قُـدِّر هـلكُها ما بين مـاءٍ في الزجـاج و نـارِ[1]

و مهما يكن من شيء فالقاضي الجليس في تاريخ الدولة الفاطمية كـان يعدّ من كبار رجالها. و قد مدحه كثير من الشعراء كما هجاه بعضهم؛ و منهم ابنُ الصيَّاد[2] الذي كان مولَعاً بهجائه، كثير التَّهكّم بأنفه الكبير، حتى قيل: أنَّ ابن الصياد أنشد أكثرَ من ألف مقطوعة في أنف القاضي الجليس إلى أن انتصر له ابوالفتح ابن القادوس، فهجا ابنَ الصياد فسكت عنه.

و يمكننا القول: أن كثيرين لضعف خلقهم، كانوا يحسدونه في مـقامه و قرب منزلته و مكانته عند الخليفة الفاطمي؛ فشمتوا به في حياته و ممـاته. و تأييد هذا ماذكره جلُّ المؤرِّخون من الأقـدمين و المـعاصرين: أنَّـه لمّـامات القاضي الجليس شمت به المهذَّب و مشى في جنازته بثياب مذهبّة، فـاستقبح الناس فِعله و نقص بهذا السبب[3].

و لا يفوتنا ملاحة و هجاء الجليس أيضاً. فقد كان يتفنَّن كثيراً في بعض فنون الشعر، و من ذلك قوله يتهكّم بطبيب يقال له ابنُ السديد[4]، على سبيل

---

١. خريدة القصر؛ قسم شعراء مصر ١٨٣/١. الغدير ٣٩٠/٤.

٢. أبوالقاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد.

من الشعراء الجيـدين المكثرين. في القرن السـادس الهجري؛ و كان يسكن القاهرة. و لم أجـد مـن تـرجـم له، رغم التتبع و البحث.

٣. في أدب مصر الفاطمية: /٢١٧. فوات الوفيات ٣٣٧/١.

٤. شرف الدين ابوالمنصور عبد الله بن علي بن داود بن المبارك بن السديد المتوفّى ٥٩٢ هـ.

الشيخ السـديد، و شيخ الطبِّ بالديار المصرية. أخذ الصـناعة عن الموفّق بن المعين و خدم العـاضدَ الفـاطميَّ صاحب مصر. و نال الحرمة و الجاه العريض، و عمر دهراً. و أخذ عنه نـفيس الديـن بـن الزبـير؛ و حكـى بعضهم أن الشيخ السـديد حصل له في يوم ثلاثون ألف دينار. و حكى عنه ابـنُ الزبـير تـلميذه: أنّـه طـهّر

←

المداعبة :

و أصـل بـليَّتي مَـن قـد غـزاني ... مـن السّـقم الملحّ بـعسكرين
طـبيبٌ طـبّه كـغراب بـينٍ ... يـفرّق بـين عـافيتي و بـيْني
أتى الحُمّى و قد شاخت و باخت ... فـعاد لهـا الشباب بـنسختينِ
و دبّـرها بـتدبير لطـيف ... حكـاه عـن سنين او حـنينِ
و كـانت نـوبةً في كـلّ يـوم ... فـصيّرها بحـذقٍ نـوبتينِ[١]

وللمترجَم أيضاً قصائده المذهبيّة التي تنم عن تأثّره بالعقائد الفاطمية و تظلّمه بها.

و من شعره في رثاء الإمام السبط الشهيد عليه‌السلام:

إن خـانها الدمـع الغـزيرُ ... فـمن الدمـاء لهـا نـصيرُ
دعـها تَسُحُّ و لا تشِـحَّ ... فـرزءها رزءٌ كـبيرُ
ما غصبُ فـاطمةٌ تُـراثَ ... محـمّدٍ خـطبٌ يسـيرُ
كـلّا و لا ظـلمُ الوصيِّ ... و حـقّه الحـقّ الشهـيرُ
نَـطق النـبيُّ بـفضله ... و هـو المبشّر و النـذيرُ
جـحدوه عـقد ولايـةٍ ... قد غـرَّ جـاحدَه الغـرورُ
غـدروا بـه حسـداً له ... و بـنصّه شهِـد «الغـديرُ»

←

ولدي الحافظ لدين اللّٰه و حصل له من الذهب، نحو خمسين ألف دينار.

خدم في عصره خمسة من الخلفاء الفاطميين، ثم خدم صلاحَ الدين الأيوبي، مدة مقامه بالقاهرة. و هو من بيت علم بالطب، و كان أبوه طبيباً قبله للخلفاء: له أخبار.

الأعلام ٢٤٢/٤. شذرات الذهب ٣٠٩/٤. طبقات الأطباء ١٠٩/٢. العبر في خبر من غبر ١٠٥/٣. مرآة الجنان ٤٧٣/٣.

١. خريدة القصر، قسم شعراء مصر ١٩٢/١. الغدير ٣٨٨/٤. فوات الوفيات ٣٣٣/٢.

حـظروا عـليه مـا حـبا ... هُ بـفخره و هـمُ حـضورُ
يـا أمّـةً دعت السّهـا ... و إمـامها القـمر المـنيرُ!
إن ضـلَّ بـالعِجْل اليهـو ... دُ فـقد أضـلّكم البـعيرُ
لهـفي لقـتلى الطـفّ إذ ... خذل المصاحبُ و العشيرُ
و افـاهم في كـربلا ... يـومٌ عـبوسٌ قـمطريرُ
دَلَفت لهم عـصب الضـلا ... لُ كأنّما دُعـي النـفيرُ
عـجباً لهـم لم يَـلْقهم ... مـن دونهـم قـدَرٌ مـبيرُ!
أيمـار فـوق الأرض فـيـ ... ـضُ دم الحسين و لا تمورُ؟
أتـرى الجـبال درت و لم ... تـقذِفْهُمُ مـنها صـخورُ؟
أم كـيف إذ مـنعوه ورِ ... دَ المـاء لم تَـغر البـحورُ؟
حُـرِم الزُّلال عـليه لمّـا ... حُـلِّلت لهـم الخـمورُ[١]

و قال و قد حدَث للقاضي الجليس مرض أخَّرَه عن حضور مجلس الملك الصالح طلايع بن رزّيك :

و حقِّ المعالي ـ يا أباها و صنوَها ـ ... يمـين امـرئٍ عـاداتـه القسَم البرُّ
لقد قصُرت عمّا بـلغتَ مـن العـلى ... و أحرزتَه أبـناءُ دهـرك و الدّهـرُ
متى كنتَ ـ يا صدرَ الزمان ـ بموضع ... فرتبتُك العَليا و مـوضعك الصـدرُ
و لمّا حضرنا مجلسَ الأُنس لم يكن ... على وجهه إذ غبت إنس و لا بشرُ
فـقدناك فـقدان النـفوس حـياتَها ... و لم يك فقد الأرض أعوزها القطرُ
و أظلم جوُّ الفضل إذ غـاب بـدره ... و في اللـيلة الظـلماء يُـفتقد البـدرُ

و قال في الطبيب السديد أيضاً :

يا وارثاً عن أب و جـدّ ... فضيلة الطبّ و السـدادِ!

---

١. الغدير ٤/٣٨٥.

و حاملاً ردَّ كـلّ نـفس همت عن الجسم بالبعادِ
أُقسم لو قد طبيتَ دهراً لَـعادَ كـوناً بـلا فسـادِ

و كتب إلى القاضي الرشيد المصري قوله :

ثـروَةُ المكرُمات بـعدك فـقرُ و محَـلُّ العُـلى بـبُعدك قَـفرُ
بك تُجلى ـ إذا حَلَلْتَ ـ الدَّياجي و تمـرُّ الأيّـام حـيث تَمـرُّ
أذنبَ الدهـرُ في مسـيرِكَ ذنـباً ليس منه سوى إيـابكَ عـذرُ[1]

و من شعره :

و من عجبي أنّ الصوارمَ و القَنا تَحيضُ بأيدي القوم و هي ذكورُ
و أعجب مِن ذا أنَّهـا في أكـفِّهم تُؤَجِّجُ نـاراً و الأكـفُّ بحـورُ[2]

و منه قوله :

حـيّا بـتفاحة مخـضَّبة مَن شـفَّني حـبّه و تـيَّمني
فقلت: ما إن رأيت مُشْبَهَها فاحمرَّ من خجلةٍ فكـذَّبني

و له :

قد أُهملت كـلُّ الأُمـور فـما يُـعنى بمـصلحة و لا يـغنَى
بسـداد مخـتلفين مـا لهـما إلّا فسـاد أُمـورنا مـعنَى
يأتي فيكتبُ ذا و يشطُب ذا فـنعود بـعدهُما كَـما كُـنّا

و قال :

---

١. وفيات الأعيان ١٦٣/١.

٢. فوات الوفيات ٣٣٣/٢ـ ٣٣٥.

رُبَّ بيضٍ سللن باللحظِ بيضاً ... مـــرهفات جُـفونهنَّ جـفونُ
و خُدودٌ للـدّمع فـيها خـدودٌ ... و عيونٌ قد فاضَ فيهـا عـيونُ

و له :

حـبّذا مـتعة الشّـباب التي يـعـ ... ـذر في حـــبّها الخـليع العـذارِ!
إذ بـــذات الخـــمار أُمتع ليـلي ... و بـذات الخـــمار ألهـو نهـاري
و الغواني لاعن وصالي غـوانٍ ... و الجواري إلى جِواري جَواري

و قال يَرثي والده، و قدمات غريقاً في البحر لريح عصفت:

و كنتُ أهدي مع الريح السّلامَ له ... ما هبتِّ الريحُ في صُبحٍ و إمســاءِ
إحدى ثقاتي عليه كنتُ أحسبها ... و لم أخَلْ أنّها من بعضِ أعـدائي

و له :

ألمَّت بـــنا ـ و اللـيل يـزهى ـ بـلَمَّةٍ ... دَجـــوجيَّةٍ لم يكـتهل بـعد فَـوْداهـا
فأشرق ضوءُ الصُّبح و هـو جـبينها ... و فاحت أزاهير الرُّبى و هـي ريّـاها
إذا ما أجتنَت من وجهها العين روضة ... أسالت خلال الروض بالدَّمع أمواها
و إنِّي لأســتسقي الســحاب لربـعها ... و إن لم تكـــن إلّا ضـــلوعيَ مأواهـا
إذا استعَرَت نارُ الأسى بـين أضـلعي ... نضحتُ على حرِّ الحشا برد ذكـراهـا
و مـــا بيَ أن يُـــصلى الفـؤاد بحرِّها ... و يضرم، لولا أنَّ في القلب سكـناها[١]

و كان الملك الصالح طلايعُ بن رُزّيك لايـزال يَحضُر في ليـالي الجُـمَع جلساؤه و بعض أُمراءه، لسماع قراءة صحيح مسلم و البخاري و أمثالها من كتب الحديث؛ و كان الّذي يقرأ رجلاً أبخر. فلمهدي و قد حضر المجـلس مع

---

١. فوات الوفيات ٢/٣٣٣ـ ٣٣٥.

الأمير عليٌّ بن الزُّبير و القاضي الجليس، و قد أمال وجهه إلى القاضي ابن الزُّبير، و قال له:

و أبخر قلت: لا تجلس بجنبي!

فقال ابن الزبير:

إذا قابلت بالليل البخاري

فقال القاضي الجليس:

فقلت و قد سألت بلا احتشام: لأنّك دائماً مِن فيك خاري

حُكي أنّ القاضيَ الجليس هو و القاضي الرشيد استأذن ذات يوم على أحد الوزراء، فلم يأذن لهما و اعتذر عن المواجهة، و وجدا عنده غلظة من الحجّاب. ثمّ عاوداه مرّة أُخرى، و استأذنا عليه، فقيل لهما: إنّه نائمٌ، فخرجا من عنده، فقال القاضي الرشيد:

تــوقّعْ لأيّــام اللّــئام زوالَهــا فعمّا قليلٍ سوف تُنكر حالَها

فلو كنت تدعو اللّه في كلّ حالةٍ لتبقَ عليهم ما أمنت انتقالها

و قال القاضي الجليس :

لئن أنكرتم منّا ازدحاماً ليجتنبنَّكم هذا الزّحامُ

و إن نمتم عن الحاجات عمداً فعينُ الدهر عنكم لاتنامُ

فلم يكن بعد أيام حتى نكب الوزير نكبة عظيمة[1].

وأنشد في مدح العترة الطاهرة عليهم‌السلام، و هي ٢٩ بيتاً؛ مطلعها:

---

١. مرآة الجنان ٣٠٢/٣. الغدير ٣٩٠/٤.

كم قد عصيتُ مقالَ الناصح الناهي — و لذت منكم بحبلٍ واهنٍ واهِ!

إلى أن يقول :

حبّي لآل رسول اللّه يعصِمُني — من كلِّ إثمٍ و هُم ذخري و هم جاهي
يا شيعةَ الحقّ. قولي بالوفاء لهم — و فاخري بهمُ مَن شئت أو باهي!
إذا علقتُ بحبلٍ من أبي حسنٍ — فقد علقت بحبلٍ في يد اللّه
حمى الإلّه به الإسلام فهو به — يزهى على كلّ دين قبله زاهِ
بعلُ البتول و ما كنّا لِتهدينا — أئمةٌ من نبيٍّ اللّه لولا هي
نصَّ النبيُّ عليه في «الغدير» فما — زواه إلّا ظنينٌ دينُه واهِ[1]

و كان الموفق بن الخلّال خالَ القاضي الجليس، فحصل لابن الخلال نكبة، و حصل القاضي الجليس بسبب خاله ابن الخلّال صداع. فكتب القاضي الجليس، إلى القاضي الرشيد :

تسمّع مقاليَ يا ابن الزّبير! — فأنت خليقٌ بأن تسمعهْ
نكبنا بذي نسبٍ شابك — قليل الجدى في زمان الدعهْ
إذا ناله الخيرُ لم نُرجه — و إن صفعوه صُفعنا معهْ[2]

تُوفّي القاضي الجليس عام ٥٦١ هـ. قبل انقراض حكم الدولة الفاطمية بستّ سنوات؛ و قبل موت زميله في ديوان الإنشاء ابنِ الموفق بخمس سنوات. و رثاه غير واحد من شعراء عصره، منهم ابن قَلاقِس أبو الفتح نصرُ بن عبداللّه اللخمي الإسكندري؛ فقد رثاه بقصيدة مطلعها قوله :

علمنا و قد مات الكمال التساويا — فيا حسناتِ الدهر عُدن مَساويا

---

١. الغدير ٣٨٦/٤.

٢. نكت الهميان في نكت العميان /٣١٦، الغدير ٣٩١/٤.

و قمنا نرجّي في المصاب مواسياً	فأعوزنا لمّا عدمنا موازيا
و ممّا شجى أن المعالى تجدلت	و لم تنتصر فيها الكماة العواليا
سألت فقالوا: مصرع لو علمتَه	فأيقنت لكنّي خدعت فؤاديا
فحين أحتوت كفّ المنون على المنى	تقلص عن يأسٍ جناحُ رجائيا
و من يسأل الركبان عن كلّ غائبٍ	فلا بدَّ أن يلقى بشير [اً] و ناعيا
و لما سرى بي نحوه الوجد قاعداً	و لم أستطع عَقْر [اً] عقرْتُ القوافيا[1]

كما مدحه ابن قلاقس و رضيُّ الدولة أبو سليمان داود بن مقدام و الفقيه عمارة اليمني، بعدَّة قصائدَ و مقطوعات.

مصادر ترجمته

البداية و النهاية (تاريخ ابن كثير) ١٥١/١٢. خريدة القصر؛ قسم شعراء مصر ١٨٣/١. ديوان طلايع بن رزّيک؛ المقدمة / ٢٨. الغدير ٣٨٤/٤ـ ٣٩١. فوات الوفيات ٣٣٣/٢. مرآة الجنان ٣٠٢/٣. المناقب لابن شهر آشوب ٧٧/٤. النجوم الزاهرة ٢٩٢/٥. النكت العصرية /٤٣. نكت الهميان في نكت العميان /٣١٦. و فيات الأعيان ١٦٣/١.

---

١. ديوان ابن قلاقس /١١٥.

عُمارة اليَمَني

(٥١٣ـ ٥٦٩هـ.)

و لاؤكَ مفروضٌ على كلّ مسلمٍ و حبُّك مفروضٌ و أفضل مغنمِ
إذا المرء لم يُكرم بحبّك نفسه غدا و هو عند اللّه غير مكرَّمِ

إلى أن قال:

ورِثتَ الهدى عن نصّ عيسى بن حيدر و فاطمةٍ لانصّ عيسى بن مريمِ
و قال: أطيعوا لابن عمّيَ فإنه أميني على سرّ الإله المكتَّمِ
كذلك وصّى المصطفى، و ابن عمه إلى منجد «يوم الغدير» و متهمِ
على مُستوىً فيه قديمٌ و حادث و إن كان فضل السبق للمتقدِّمِ
ملكت قلوب المسلمين ببيعة أمدَّت بعقدٍ من ولائك مبرمِ
و أُوتيت ميراث البسيطة عن أبٍ و جدٌّ مضى عنها ولم يتقسَّمِ
لك الحقّ فيها دون كلّ منازع و لوأنَّه نال السّماك بسُلَّمِ
و لو حفظوا فيك الوصيّة لم يكن لغيرك في أقطارها دور درهمِ[1]

الشاعر

الفقيه نجم الدين أبو محمّد عُمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان بن أحمد الحكمي اليمني ابن سعد العشيرة المذحِجي.

من فقهاء الشيعة الإماميّة و مدرّسيهم و مؤلّفيهم و من شهداء أعلامهم على التشيّع. و قد زان علمَه الكاملَ و فضله الباهرَ، أدبُه الناصع المتقارب من شعره المتألق؛ و إنّك لا تدري إذا نظم شعراً هل هو يُنضّد درّاً؟ أو يفرغ في

---

١. ديوان عمارة الفقيه / ٢١٤. الغدير ٤/ ٤٠٨.

بوتَقَةِ القريض تبراً؟ فقد ضمَّ شعرُه إلى الجزالة قوّةً، و إلى السّلاسة رونـقاً؛ و فوق كلٍّ ذلك مودّته المتواصلة لعترة الوحي و قوله بإمامتهم عليهم‌السلام؛ حتى لفظ نفسه الأخير ضحيّة ذلك المذهب الفاضل. و قد أبقت تآليفه القيّمة و آثارُه العلميّةُ و الأدبيّة له ذكراً خالداً مع الأبد؛ منها: النُّكت العصريّة في أخبار الوزارة المصرية؛ و تاريخ اليمن؛ و كتاب في الفرائض؛ و ديوان شعره؛ و قصيدةٌ كتبها إلى صلاح الدين سمّاها «شكاية المتظلّم و نكاية المتألّم»[1].

ولد المترجَم له عام ٥١٣ هـ. في مدينة مرطان من وادي وساع، و بُعدها من مكة في مهبِّ الجنوب أحد عشر يوماً؛ و نشأ و ترعرع بها. و عندما بلغ الحلُمَ ـ كما يحدّثنا هو عن نفسه ـ بعثه والده إلى زبيد مع الوزير مسلم بن سخت، و نزل بها و لازم التحصيل و الدّرس. و لم يكن له همٌّ سواه حتى أنّه لم يخرج طيلة بقائه في زبيد من المدرسة إلّا لصلاة الجمعة. و بعد سنين عدّة، أخذ يدرس المذهبَ الشافعي و الفرايض في المواريث. و صنّف كتاباً في الفرايض يُقرأ في اليمن. و ألقى على والده عند ذلك شيئاً من شعره، فاستحسنه و أكرم و أوصاه بتعلّم الأدب، و أنّه نعمة من نعم اللّٰه عليه فلا يكفرَ بها بذمِّ الناس و شتْمهم؛ و استحلَفَه أن لايهجوَ مسلماً قطُّ ببيت شعر؛ فحلف الفقيه عمارة و عاهده مع أبيه. فينظم قصائداً و مقاطيعاً في مدح أبناء وطنه و عشيرته ويرثيهم بفقدهم.

اشتغل الفقيه بالأدب و بلغ ذروته؛ و بالرغم من أنه لم يكن مصريّاً و لكنَّ اسمَه كان يُقرن بأسماء فحول شعراء العصر الفاطمي، و يذكر في مقدمي كتّاب ديوان الإنشاء في البلاغة و المعنى؛ مع أنه لم يكن يشتغل بمهمّة في ديوان الإنشاء. و لكنّه لما أُوتي من حول و طول في الشعر و النثر، أصبح يعدّ في

---

١. الغدير ٤٠٨/٤ـ٤٠٩.

مقدّمهم.

أما وفوده على مصر ـ و ذلك في ربيع الأول عام ٥٥٠ هـ. ـ فقد حجّ مع الملكة الحرَّةِ أمِّ فاتكٍ ملِكِ زبيد[١] و خرج إلى مكة؛ و في موسم هذه السنةِ مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتَه و وُلّي الحرمين قاسم بن هاشم[٢]؛ فألزمته السفارةُ يوم ذلك و منعته من الرجوع إلى زبيد؛ و فاتح معه في إيفاده إلى مصر. و الخليفة الفاطمي يومذاك الإمامُ الفائز بن الظافر، و الوزير الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك، فقبل المترجَم ذلك و وفد على مصر برسالة من أمير مكة قاسم بن هاشم. فأُدخل عُمارةُ قاعةَ الذهب في قصر الخليفة و أنشد قصيدته التي أولها قوله :

الحمدُ للعيسِ بعد العزم و الهِممِ	حمداً يقوم بما أولَت من النعمِ
لا أجحدُ الحقَّ عندي للركاب يدٌ	تمنَّت اللُّجم فيها رتبة الخُطمِ
قرَّبن بُعد مزار العزّ من نظري	حتى رأيت إمام العصر من أَممِ

---

١. زبيد: مدينة من تهائم اليمن.

٢. هاشم بن فَليته بن القاسم بن محمّد بن جعفر الشريف الحسني المتوفّى ٥٤٩ هـ.

كان أميرَ الحرمين، و إقامتُه بمكة، ولي بعد أبيه فليتةَ سنة ٥٢٧ هـ. إمارةَ الحرمين مكة و المدينة. و وقعت بينه و بين أمير الحاج العراقي فتنةٌ عام ٥٣٩ هـ. فنهب أصحاب هاشم الركبَ العراقيَّ بالحرم، و هم يطوفون و يصلّون. قال ابن الأثير في تاريخه: و لم يرقبوا فيهم إلّاً و لا ذمّةً.

و استتب له الأمر اثنين و عشرين عاماً، و مات و هو في الإمارة سنة ٥٤٩ هـ. و ولّي الحرمين ولده قاسم المقتول سنة ٥٥٧ هـ.

تولّى الحرمين و وقعت بينه و بين عمه عيسى بن فليته سنة ٥٥٣ فتنةٌ فاستولى عيسى على مكةَ، و جمع القاسمُ جموعاً دخل بها مكة سنة ٥٥٧ و أقام أياماً فأعاد عليه عمه الكرة، فهرب و صعد جبل أبي قبيس فسقط عن فرسه، فقتله بعضُ أصحاب عيسى.

و في رواية: أمسكه عيسى و قتله؛ و عظُم على عيسى قتله، فأخذه و غسّله و دفنه بالمعلى عند أبيه.

الأعلام ٦/٢٢ و ٩/٤٩. صبح الأعشى ٤/٢٧١. الكامل في التاريخ ١١/١٠٣، ٢٧٩.

و رُحن من كعبة البطحاء و الحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف و الكرمِ
فهل درى البيتُ أنّي بعد فُرقته ... ماسرتُ من حَرَمٍ الاّ الى حرمِ؟
حيث الخلافة مضروب سُرادقها ... بين النقيضين مِن عفوٍ و مِن نقمِ
و للإمامة أنوار مقدَّسةٌ ... تجلو البغيضين من ظُلم و من ظلَمِ
و للنبوّة آيات تنصّ لنا ... على الخفيّين من حُكم و من حِكمِ
و للمكارم أعلامٌ تُعلّمنا ... مدح الجزيلين من بأسٍ و من كرمِ
و للعُلى ألسن تثني محامدها ... على الحميدين من فعل و من شيمِ
و راية الشرف البذّاخ ترفعها ... يد الرفيعين من مجدٍ و من همم
أقسمت بـ«الفائز» المعصوم معتقداً ... فوزَ النجاة و أجر البرّ في القسمِ
لقد حمى الدينَ و الدنيا و أهلهما ... و زيرُه الصالح الفرّاج للغممِ
اللاّبس الفخر لم تنسج غلائلَه ... إلاّ يد الصُنْعَيْنِ السّيفِ و القلمِ
و جوده أوجد الأيام ما اقترحت ... و جوده أعدم الشاكين للعدمِ
قد ملّكته العوالي رقَّ مملكة ... تعير أنفَ الثُّريّا عزّه الشممِ
أرى مقاماً عظيم الشأن أوهمني ... في يقظتي أنّها من جملة الحُلمِ
يومٌ من العمر لم يخطر على أملي ... و لاترقّت إليه رغبة الهممِ
ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقودُ مدحٍ فما أرضى لكم كلمي!
ترى الوزارة فيه و هي باذلةٌ ... عند الخلافة نصحاً غير متّهمِ
عواطفٌ علّمتنا أنّ بينهما ... قرابة من جميل الرأي لا الرّحمِ
خليفةٌ و وزيرٌ مدَّعدلهما ... ظلّاً على مفرق الإسلام و الأُممِ
زيادة النّيل نقصٌ عند فيضهما ... فما عسى نتعاطى مُنّة الديَمِ!

و كان الملك الصالح يستعيد الأبيات في حال النشيد مراراً و الأستاذون و الأعيان و الأُمراء و حاشية الخليفة و الوزير، يذهبون في الاستحسان كلَّ مذهب، فأُعجب الخليفة بعد إتمامها و وزيره و رجال القصر؛ و أغدقوا عليه و

أفاضوا نِعَمَهم و عطاياهم و خِلَعاً من ثياب الخلافة المذهَّبة. و دفع له الصالح خمسمائة ديناراً؛ و جاء أنَّ السيدة الشريفة بنتَ الإمام الحافظ، دفعت له خمسمائة ديناراً أخرى. و حُمل المال معه إلى منزله و أُطلقت له من دار الضيافة رسومٌ لم تطلق لأحد من قبله. و تهادته أُمراء الدولة إلى منازلهم للولائم. و أمَرَ الوزير الملك الصالح أن يحضُر عمارة مجلسه الذي يضمُّ كبار رجال الأدب و العلم بمصر؛ أمثال القاضي الجليس و ابن قادوس و المهذب بن الزبير و غيرهم. و نظم في سلك أهل المؤانسة و انثالت عليه صِلاتُهُ و غمرَهُ برُّه. و وجَد بحضرته من أعيان أهل الأدب و العلم. و مكث عُمارة بمصر عدَّةَ أشهر من تلك السَّنة ثم عاد إلى مكة؛ و منهارجع بعد شهور قليلة إلى وطنه الأصلي (اليمن). و في سنة ٥٥١ هـ. أيضاً ذهب لتأدية الحجّ فطلب منه أمير مكّة قاسم بن هاشم، أن يسفر بينه و بين الملك الصالح مرّة أُخرى؛ فوفد على مصر و مكث بها حيث أمضى ما بقى من سِني حياته[١].

وفد الفقيهُ على مصر، و اتَّصل بجميع الأحداث و الثورات التي مرّت عليها و شاهدها منذ وزارة الملك الصالح طلائع، حتى انقرضت الدولةُ الفاطميَّةُ لاتّصاله الوثيق و علاقتهِ الوطيدةِ برجال الدولةِ في خلالِ هذه السنين. و أنشد في كلّ حادثة طارئةٍ على مصر في تلك السنين شعراً، و مدح الوزراء و الأُمراءَ الذين كانت بيدهم مقاليدُ الدولة و شؤونها. و كان يجد من الحوادث التي ألَمّت بمصر مناسبات لمدائحه. و من هنا يظهر صحّةُ قولنا في شعره من أنَّ شعر الفقيه عُمارةَ يُعدّ في الرعيل الأول من المصادر و السِّجلّات الأدبية التاريخية التي تُطْلِعنا بوضوح على تاريخ مصر في هذه السنين المضطربة الأخيرة، التي ضُعف من جرائها حكم الدولة في أرجائها المعمورة؛ و من أوثق المصادر التي تنبئ

---

١. النكت العصرية / ٣١و ٤١ـ ٤٢، الغدير ٤١٢/٤، وفيات الأعيان ٤٣٢/٣.

عن أخبار مصر و فصلاً عن أيامها البهجة من أيَّام مصر الفاطمية.

دخل مصرَ الفقيهُ عُمارة، و شارك شعراء مصر في الإشادة بالأعياد و أيام المواسم الفاطيمة، و حضر حفلاتِها و مجالسَها و نظم في كلِّ مناسبة. و الذي يقف دونه الباحثُ هنا هو مذهب عمارةَ؛ فقد جاء أنه كان سنيَّ المذهب[1]، بل كان متعصّباً لمذهبه الشافعيّ، و لم يتحول عن هذا المذهب بالرّغم من محاولة الوزراء و الأُمراء معه لكي يعتنقَ مذهب الفاطميّين. و أنَّ الملكَ الصالح طلائعَ بن رزّيك ـ بالرغم من أنه كان شديد التعصب لمذهبه الفاطمي، و قد أدخل عدداً من المسلمين في مذهبه ـ فإنه لم يستطع أن ينجحَ في محاولته مع عمارة.

يقول عُمارة: و كانت تجري بحضرته مسائل و مذكرات يأمرني بالخوض مع الجماعة فيها، و أنا بمعزل عن ذلك لا أنطِقُ بحرف واحد، حتّى جرى من بعض الأُمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره و سماعه قولَ اللّه عزّو جّل: ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُم حتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

---

١. في أدب مصر الفاطمية / ٢١٩، ١٠٦.

الكلام على أنّه كان سنيَّ المذهب فلا دليل عليه غير كلام تفرّد به ابن كثير الدمشقي في تاريخه ١٢/ ٢٧٦، و لم يأت به أحد غيره. فقد قال: و قد ذكرته في طبقات الشافعية لأنه كان يشتغل بمذهب الشافعي. فإذا كان الفقيه عمارة شافعياً فلماذا لم يقل به أحدٌ سوى ابنِ كثير؟ و لماذا لم يذكره قاضي القضاة تقي الدين السبكي المصري الشافعي (٦٨٣ـ ٧٥٦ هـ) في كتابه «الطبقات الشافعية»؟ و لم يترجم له كذلك أبوبكر بن أحمد بن محمّد بن عمر ابن قاضي شُهبة الدمشقي (٧٧٩ـ ٨٥١ هـ) مع العلم أنّ الكلمة متفقة على أنه كان من فقهاء الشيعة و شيوخها؟ كما أن القصة التي أوردناها تصبح مختلَقَة و مجعولة لأنها هي أيضاً في مستحدَثات ابن كثير. و لو كان الرجل شافعياً مع فرضه لما أمر صلاحُ الدين الأيوبي، بصلبه و قتله. مع أن عمارة بعد اعتقاله بعث بقصيدةٍ إلى صلاح الدين و أسماها «شكاية المتظلّم و نكاية المتألّم» يسترحمه فلم يعبأ به وقام من فوره. فأمر بصلبه. و عزل كافّةَ المسؤولين و الموظَّفين في القاهرة و جعل مكانهم شِر ذمة من الشافعية، كما نصّ على هذا كتبُ التاريخ.

غَيرِهِ ﴾؛[١] و نهضتُ فخرجت فأدركني الغلمان؛ فقلت: حصاةٌ يعتادني وجعها. فتركوني و انقطعت في منزلي أياماً ثلاثة، و رسوله يأتي في كلّ يوم و الطبيب معه. ثم ركبت بالنهار فوجدته في البستان المعروف بـالمختص في خلوة من الجلساء، فاستوحش من غيبتي؛ فقلت: إنّي لم يكن بي وجـع و إنما كـرهت ماجرى في حقّ السلف و أنا حاضر. فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت و إلّا فلا. و كان لي في الأرض سعة، و في الملوك كثرة. فعجب من هذا و قال: سألتك بالله! ما الذي تعتقده في أبي بكر و عمر؟ قلت: أعتقدأنّه لولاهما لم يبقَ الإسلامُ علينا و عليكم. و إنّه ما من مسلم إلّا و محبَّتُهما واجبة عليه؛ فضحك.

و مهما كان مذهبه و إلى أي شطركان يوجه، إذ ليس لدينا ما يـؤيِّدُ تشيُّعه. بالإضافةإلى أننا على يقين من أن قصة إدخال عمارة اليمني في الدعوة تُرينا أن القائمين بأمر الدول الفاطمية في ذلك الحين ـ أي في أواخر عهدها ـ لم يأبهوا بأمر المذهب؛ بل كانوا كثيراً ما يتسامحون مع مخالفيهم في المذهب إلى حدٍّ بعيد. ثم إنّ عمارة فوق هذا كان قد تأثر بما كان يجري في مصر، كما ساهم مع غيره من الشعراء في الإشادة بعقائد الفاطميين، و ذكر فضائلهم و محاسنهم و مدح خلفائهم؛ و جارى القوم في عاداتهم و في أشعارهم. فهو و إن لم يتشيّع و لكنه لم يستطع يوماً ما أن يتخلّف عن غيره من شعراء مصر في ذكر عقائد الفاطميين، و مدح أئمتهم في احتفالاتهم و رثائهم في أيّام مآتمهم. فله عدة قصائد أوكلها فيهم و إليهم. و من تلك قصيدةٌ مدح بها الخليفة الفاطمي الفائز ابنَ الظافر في يوم الغدير و أشاد فيها بواقعة الغدير و أولها قوله:

و لاؤكَ مفروضٌ على كلّ مسلمٍ و حبُّك مفروطٌ و أفـضل مـغنمِ

---

١. سورة النساء: ١٤٠.

و قوله من قصيدة يرثي بها العاضد، و يشيد بدولته و أيامه و مطلعها:

أَسفي عـلى زَمَـن الإمـام العـاضدِ   أسف العـقيم عـلى فـراق الواحـدِ
لهفي على حُجرات قصرك إذ خلتْ   ـ يا ابن النبيّ ـ من ازدحام الوافـدِ
و على انفرادك من عسـاكـرك التي   كـانوا كأمـواج الخـضمّ الراكـدِ

إنّ القصائد التي نظمها الفقيه عمارة في رثاء الدولة الفاطمية كثيرة جدّاً و لم تكن منحصرة بهٰذه وحدها. بل هناك في ديوانه كثير من القصائد التي رثیٰ بها الدولة و أشاد بذكرها. و هي إن دلّت على شيء فإنّما تدلُّ على وفاء عمارة لهم و على ما أصابه من الفاطميّين الذين حبَوه بأموالهم و عطاياهم و أكرموه الإكرام كلّه؛ فقابل ذلك كلّه بوفاء الوفيّ الأمين. و منها قوله من قصيدة يرثي بها أهلَ القصر من الملوك الفاطميين، و يشيد بالأعياد و المراسيم التي كـانوا يختلفون بها و أولها:

رَميتَ ـ يا دهرُ ـ كفَّ المجد بـالشللِ!   و جيده بـعد حُسـن الحـلي بـالعُطلِ
سَـعيتَ في‌مـنهج الرأي العـثور فـإن   قدرت من عـثرات الدّهـرِ فـاستَقلِ

و فيها يقول بعد أن وصف أيامهم و ذكر أعيادهم و منشآتهم:

و اللّٰه لافاز يـومَ الحـشر مـبغضكم   و لانجا مـن عـذاب اللّٰـه غـير ولي
و لاسقي المـاء مـن حـرٍّ و مـن ظـمإٍ   من كفّ خير البرايـا خـاتم الرسـلِ
و لا رأى جـنةَ اللّٰـه الّـتي خُـلقت   مَن خان عهدَ الإمام العاضدِ بن علي
أئمّـتي و هـداتي و الذخـيرة لي   إذا ارتهـنت بمـا قـدّمتُ مـن عـملي
تـاللّٰه لم أُوفـهم في المـدح حـقّهم   لأنَّ فـضلهمُ كـالوابـل الهـطلِ
و لو تـضاعَفَت الأقـوال و اتّـسعت   ما كنت فيهم بحـمد اللّٰـه في الخـجلِ
بـاب النـجاة هـمُ دنـياً و آخـرةً   و حبّهم فهو أصـل الديـن و العـملِ

نور الهدى و مصابيح الدّجى و مـ ـحل الغيث إن ربّت الأنواء في المحلِ
أئمة خُلقوا نوراً فنورهم من محض خالص نور اللّه لم يَفِلِ
واللّه ما زلتُ عن حبّي لهم أبداً ما أخّر اللّه لي في مدة الأجلِ[1]

و الذي يعلم أن عُمارة كان أصدقَ مثال للشعراء الوافدين على مصر، من الذين ألمّوا في شعرهم بالعقائد الفاطمية. مع أنه لأول وهلة ـ لبُعده عن مركز الخلافة ـ لم يكن يعرف شيئاً وافراً عن عقائدهم، و لذلك نجده في القصائد التي نظمها في أوان وروده لمصر لم يتحدّث عن عقائدهم و المعاني الباطنيّة عندهم إلا النذْرَ اليسيرَ. على أنه بعد مكوثه و استقراره بمصر و اتّصاله بالشعراء، سيّما البيئة المصرية و سماعه جدل العلماء و مناقشاتهم في المجالس، تأثّر من ذلك حتّى أن تأثير البيئة الفاطمية في شعره تجده واضحاً. فيُخيّل لقارئ شعره أنّه أصبح على دينهم و عقيدتهم و مذهبهم. فهو يقول في مدح العاضد :

و عليك من شِيَم النبيِّ و حيدرٍ للناظرين أدلّةٌ و شهودُ
و الوحي ينطق عن لسانك بالذي من دونه يصَّدَّع الجلمودُ
شخصتْ إليك نواظرُ الأمم التي ملكتهمُ لك بيعة و عهودُ
يومٌ جلت فيه الإمامة عزّها و لها الملائكة الكرامُ جنودُ

فالفقيه في هذه الأبيات يبيّن أنَّ الوحي ينطقُ على لسان الإمام الفاطمي بالحجج و البراهين القوية الدامغة، بحيث تعجز عن تفنيدها كلُّ حجة و برهانٍ. و أنَّ البيعة عهدٌ على عنق جميع الذين عاهدوا الإمام، و الملائكة هم جنود الإمامة. و هذه الأبيات تدلّ دلالة واضحة على مدى تأثير عُمارة بالعقائد و

---

١. ذكرنا القصيدة بتمامها ص ٧٤. الخطط المقريزية ١/ ٤٩٥.

بتأويل الفاطميين. فهو يقول:

ولاؤك دَينٌ في الرقـاب و دِيـنُ و وُدّك حِصنٌ في المعاد حـصينُ
و حبُّك مفروضٌ على كلّ مُسلمٍ يــقول بحبّ المـصطفى و يـدينُ

مكث الفقيه عمارة في مصر و هو عاكف عـلى مـدح و رثـاء المـلوك الفاطميين، و ينظم بكـلّ مـناسبة، إلى أن أنـقرضت الدولة الفـاطمية بمـوت العاضد. و خطب للمستضيء العباسي بمصر، و لكن المترجم مع نفر من أتباع الدولة الفاطمية نظموا قصائد حثُّوا الناس على القيام بمناوئة الدولة العباسية و إعادة مُلك الفاطميين بتولية ابن العاضد. و كاتبوا الفرنج و اسـتدعوا إلى مـا يريدونه. و كانوا قد أدخلوا معهم رجلاً من الأجناد ليس مـن أهـل مـصر؛ فحضر عند صلاح الدين و أخبره عن الحوادث التي ستجري على يد نفر من الأوفياء للفاطميين؛ فأحضرهم فلم ينكروا الأمر عليه و لم يروه منكراً؛ فأمر بصلبهم و صُلبوا يوم السَّبت في شهر رمضان سنة تسع و ستين و خمـسمائة (٥٦٩)، و قد قبض عليهم يوم الأحد في شهر شعبان[١].

و كان عمارة الفقيه يحمي الذِّمارَ بالذَّمارة، و يوفي بعهد من صـاحبه و نادمه، و يدافع عنه بصراحة اللّهجة. و له مـواقـف مشكـورة تـنمّ عـن أنـه ذوحفاظ و ذومحافظة. حضر يوماً هو و الرضيُّ أبو سالم يحيى الأحدب بن أبي حصيبة الشاعر في قصر اللؤلؤة بعد موت الخليفة العاضد، عـند نجـم الديـن أيوب بن شادي، فأنشد ابنُ أبي حصيبة نجمَ الدين أيوب، فقال:

يا مالكَ الأرض لا أرضى له طـرفا منها و ما كـان مـنها لم يكـن طـرفا
قد عجّل اللّه هـذي الدار تسكـنها و قــد أعـدّ لك الجـنات و الغـرفا

---

١. وفيات الأعيان ٣/ ٤٣٥.

تشرَّفت بك عمّن كان يسكنها فالْبسْ بها العزّ و لْتلبس بك الشرفا
كانوا بها صَدَفاً و الدار لؤلؤة و أنت لؤلؤة صارت لها الصّدفا

فقال الفقيه عمارة يردّ عليه:

أثمتَ يا من هجا الساداتِ و الخلفا و قلت ما قلته في ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفاً حلّوا بلؤلؤةٍ و العرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا
و إنما هي دارٌ حَلَّ جوهرهم فيها و شفّ فأسناها الّذي وصفا
فقال: «لؤلؤة» عُجْباً ببهجتها و كونها حوت الأشراف و الشرفا
فهم بسكناهم الآيات إذسكنوا فيها و من قبلها قد أسكنوا الصحفا
و الجوهرُ الفرد نورٌ ليس يعرفه من البريّة إلّاكلُّ من عرفا
لولا تجسّمهم فيه لكان على ضعف البصائر للأبصار مختطفا
فالكلبُ ـ يا كلبُ ـ أسنى منك مكرمة! لأنّ فيه حفاظاً دائماً و وفا

قال المقريزي بعد ذكره للأبيات: فللّه درُّ عمارة! لقد قام بحق الوفاء و وفى بحسن الحفاظ كما هي عادته. لاجرم أنّه قُتل في واجب من يهوى كما هي سنّة المحبّين. فاللّه يرحمه و يتجاوز عنه![1]

و قد صُلب مع الفقيه عمارة، من أكابر الشعراء و الفقهاء، منهم قاضي القضاة أبوالقاسم هبة اللّه بن الكامل، و ابن عبد القوي ـ داعي الدعاة ـ و كان يعلم بدفائن القصر؛ فعوقب ليدلَّ عليها فامتنع من ذلك فمات و اندرست. و ناظر الديوان العويرس، و كاتب السر شبريا، و عبد الصمد الكاتب، أحد أُمراء مصر، و نجاح الحمامي، و منجّمٌ نصرانيٌ كان قد بشَّرهم بأنَّ هذا الأمريتمّ لهم.

---

١. الخطط المقريزية ٤٦٩/١، الغدير ٤١٣/٤.

مصادر ترجمته

آداب اللغة العربية ٧٤/٣. الأعلام ١٩٣/٥. أعيان الشيعة ١٠٦/٣٦. إيضاح المكنون ٥٣/٢. البداية و النهاية ٢٧٥/١٢. خريدة القصر؛ قسم الشام ١٠١/٣. الخطط المقريزية ٤٦٩/١. الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢٩٤/٣ و ٣٠٤/٢٤. الروضتين ٥٧٢/٢. شذرات الذهب ٢٣٤/٤. صبح الأعشى ٥٢٦/٣. العبر في خبر من غبر ٢٠٨/٣. الغدير ٤٠٨/٤ ـ ٤١٩. الكامل في التاريخ ١٦٣/١١. كشف الظنون /١٧٧٧. مرآة الجنان ٣٩٠/٣. مرآة الزمان /٢٧٧. معجم المؤلفين ٢٦٨/٧. النجوم الزاهرة ٧٠/٦. نسمة السحر ٢ ق ١٧٨/١، خ. النكت العصرية /٧، ٦٩. وفيات الأعيان ٤٣١/٣ـ ٤٣٦. هَديَّة العارفين ٧٧٩/١.

الشّافي

(....)

الحــــمد للّـــه القــديم الأزلي	المــبدع العــالي مـعلّ العـللِ
باري البرايا الدائم الفرد الصمدْ	الجاعل الواحـد أصـلا للـعددْ
أبـــدعه بأمـــره المجـــيدِ	فأصــبح الأوّلَ في الوجــودِ
نــوراً بسـيطاً حـائطاً بـالدار	من سائر الجـهات و الأمـصارِ
سمّاه عـــقلاً سـابقاً فـعّالا	فـجَلَّ عـن إدراكـه تـعالى

إلى أن يقول :

و ســلَّم الحــكمة و التأويــلا	و مـوجز التـفسير و التـفصيلا
حــتى إذا مـا أُمـر الرسـول	بمـابه قـد جـاءه جـبريلُ
أول مـن بـايع تحت الشـجرهْ	محـمداً قـبل الرجـال العـشرهْ
و صار في «خمٍ» على «الغديرِ»	و نـصَّ بـالأمر عـلى الوزيـرِ
إلى عـــليٍّ أنـــزع البـطين	لأنَّـــه كــان أســاسَ الديـنِ
تنصيب مولانا الإمـامَ حـيدرهْ	أبـــا الأئمّـــة الِكــرامِ البررهْ
لمـــا أتى مـن حَـجّة الوداعِ	خـــاتمة الأعـمال و الأوضـاعِ
عــليٌّ المخـــصوص بـــالتطهير	مــن الإلـــه البـارئ القـديرِ [١]

الشاعر

من الأراجيز النادرة التي ظمّت العقائد الفاطمية و رسالتهم التشريعية، أُرجوزة تعرف بالقصيدة الشافية؛ و هي على غرار القصيدة الصّوريّة السـالفة الذكر (في ص ١٣٤)، من نظم الداعي الإسماعيلي الأجل الحافظ محمّد بن علي

---

١. القصيدة الشافية، خ.

الصوري المتوفّى سنة ٤٤١ هـ. و الذي تعرف من ثنايا القصيدة الشافية أنها جائت لتشرح الأُصول الفاطمية الواردة في القصيدة الصورية، و تبيان غوامضها؛ و لذلك نجد ناظمها في آخر الأُرجوزة يثني على الصوري و يعترف بعجزه و تقصيره.

تقع الأُرجوزة الشافية في ٦٥٢ بيتاً و أولها:

الحمد للّه القديم الأزلي　　المبدع العالي معلّ العللِ

و آخرها :

موازناً قول الأديب الصوري　　معترفاً بالعجز و التقصيرِ
إذ قال و القول شبيه قولي　　بمنة اللّه وليّ الحولِ
«الحمد للّه معلّ العلل　　و مبدع العقل القديم الأزلي»
فجُد له ربي بعفوٍ و رضى　　يا مَن عن العاصي بصَفح قد مضى!
و اغفِر له ما كان من ذنوبِ　　فما له سواك من مجيبِ!

و توجد من الأُرجوزة هذه، نسخةٌ خطية فريدة في «مكتبة العلامة عارف تامر» في سوريا، قد عثر عليها في بلدة مصياف الإسماعيلية، و لا توجد لها نسخة ثانية و الآن يعدّها الأُستاذ للطبع و التحقيق.

أمّا ناظمها فمجهول لايعرف عنه كلُّ شيء، سوى أنه من دعاة الفاطميين. عاصر خلافتهم و إمامتهم و أدركها و أنه كان يُعرف بالشافي؛ و لذلك تنسب القصيدة إلى الشافية، و ليس في أول الأُرجوزة و لا في آخرها ما يكشف لنا عن اسم الشاعر؛ و لم تكن ثَمَّة إشارة في كتب الإسماعيلية إلى القصيدة الشافية هذه.

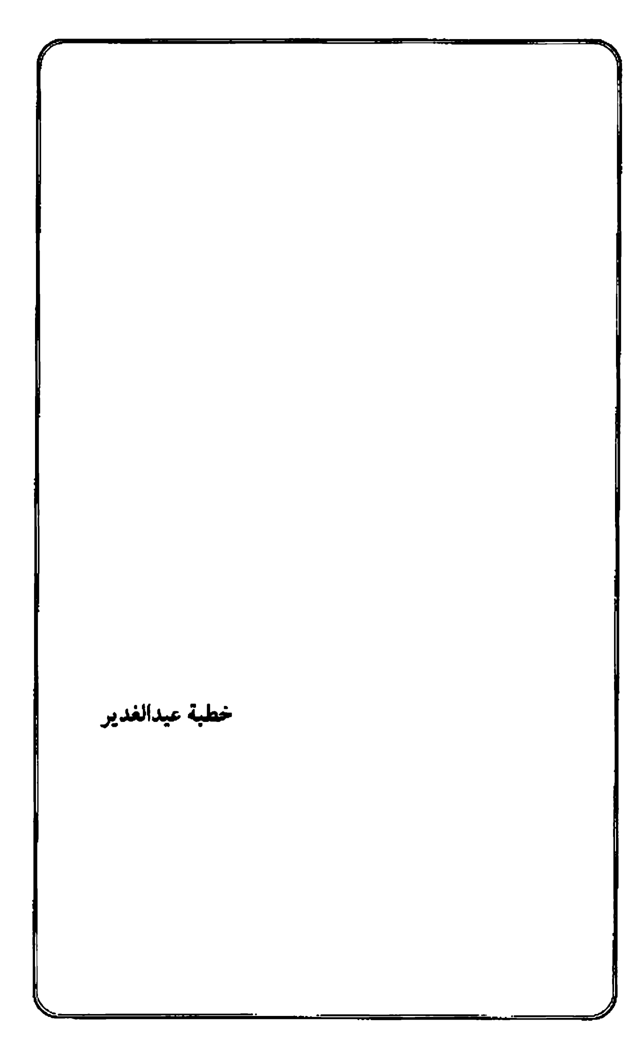
***

هذا ما تيسّر لي التوصّل إليه من دراسة قسم من شعراء مصر الذين عاصروا العهد الفاطمي، و تفيّؤوا بظلاله النعيم؛ و مدحوا الإمامة الفاطمية في قصائدهم، و نظموا هذه الإثارة ـ عيدالغدير ـ في شعرهم؛ مع العلم أنّ هناك عشرات من أمثال هؤلاء الشعراء، غير أن الظروف السياسية الظالمة التي اجتازت مصر الفاطمية بعد موت الإمام العاضد، و اقامة الخطبة للمستضيء العباسي، أبادت كلَّ تراث فكريٍّ يتعلَّق بالعهد الفاطمي؛ و مزّقته شرَّ ممزّق.

لقد كان الشعبُ المصري، أو الشعوب الخاضعة لحكم الفاطميين في مصر و اليمن و سوريا و العراق، مشتغلة في شؤونها الخاصة من زحمة العيش و تلمّس الرخاء و السقام و أمل الشفاء، و تنتظر بفارغ الصبر أيّام العيد. فتجد في ظلالها من بسمة الأمل و هشّة الرجاء و تطلُّق الوجه، فترى الجميعَ في بهجة و نجوى؛ و كأن الكلَّ يحسّون بدبيب الحركة و البسمة و الحبور يسري في نفوسهم؛ فلم يبصروا في الحياة غير البهجة و الجمال و الذكريات و الآمال الحلوة.

إنَّ الشعب في أيام العيد كان يرفل بأبراد المسرة و الهناء، و تشكل حلقات جميلة تخرج إلى التُّلول و الوِهاد؛ كما تجتمع أضغاثُ المنى على الثغر الحالم، و الكلّ في كِساء جديد و ثوب جديد. فالعيد كان الباعث الأساسي الذي أفرض عليهم تلكم المشاعر الخاصة.

غير أن تلك المشاعر الخاصة و الظاهرة الجميلة، ظاهرة الفرح و السرور و المصافحة و الابتسامات و القُبلة و الزيارة و العطاء و البذخ و غيرها من مراسيم الأعياد كانت سائرة بعد أداء صلاة العيد و الفرائض و السلام على الخليفة الفاطمي و تقبيل يده و استماع الخطبة و نشيد الشعراء و نظمهم. و ما أكثرَهم يومذاك! و قد أوقفناك على نماذج يسيره من شعرهم في الفصول السالفة.



خطبة عيدالغدير

خطبة عيدالغدير في مصر

أما الخطبة التي كانت تُتلى من قِبل الخليفة الفاطمي في كل حاضرة فاطمية، فهي تشتمل على بيان واقعة غديرخم؛ يُلقيها من يعيّنه الخليفة لهذا الغرض؛ تُتلى على رؤوس الأشهاد و تنبؤهم بالواقعة و كيفيتهاو أسبابها و ظروفها.

و لعلَّ أكبر أثر تركه المؤيدُ داعي الدعاة بهذا الشأن هو كتاب المجالس المؤيدية، و هو مجموعة محاضراته التي ألقاها في مجالس الدّعوة، و تجمع مذهب الفاطميين كلّه؛ إذ لم يترك المؤيد شيئاً عن هذا المذهب دون أن يتحدّث عنه في محاضراته هذه التي بلغت الثمانمائة محاضرة، و فيها نرى المجلس الرابع و الخامس عن الحج. و قال إنّه ألقاها في أيام الحج؛ و المجلس السادس عن «غدير خم» و هو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة[1].

و من المؤسف أنّ تاريخ الفاطمية لايزال غامضاً من جوانب عدّة؛ و لازالت الكتب و الآثار الفكرية التي تحتفظ بعقائد الفاطميّين مخطوطة؛ لذلك لم

---

١. ديوان المؤيد / ٦.

نتوصّل إلى ذكر خطبة الغدير التي كانت تُلق بمصر رغم الجهود التي بذلناها في هذا السبيل؛ و لكن...

هذا و يحدّثنا التاريخ عن خطبة كانت تلق في يوم الغدير في اليمن لدى القائم بأعمال الخليفة الفاطمي منذ سنة ٣٠٣ هـ. بعد أن لاقى دعاةَ الفاطمية فيها كثيراً من العنت و الاضطهاد على يد السنيّين، إلى أن زال نفوذ الفاطميين منها سنة ٥٦٩ هـ. على اثر حملة عسكرية أُرسلت بقيادة توران‌شاه إليها، للقضاء على دولة بني مهدي بزبيد، التي كانت تناصر الفاطميين بمصر[١].

غير أن الدعوة للفاطميين في اليمن بعد عودة توران‌شاه إلى مصر (سنة ٥٧١ هـ.) نشطت من جديد و لكن بصورة سرِّيَّةٍ. و ذهب الدعاة إلى مهامهم الرئيسيّة من نشر العقيدة الفاطمية و وضع الكتُب و كشفِ العقائد و إقامة المهرجانات و الحفلات المذهبية؛ و منهم: داعي الجزيرة اليمنية و أمين الدولة الفاطمية حسن بن نوح بن يوسف بن محمد بن آدم الهندي البهروجي المتوفّى سنة ٩٣٩ هـ.[٢] فقد وضع كتاباً في سبعة أجزاء بإسم «الأزهار و مجموع الأنوار الملقوطة من بساتين الأسرار و مجامع فواكه الروحانية و الثمار»[٣]؛ و ذلك في عهد الداعي الكبير و النائب الفاطمي، سليلِ الهداة الراشدين حسنِ بن إدريس

---

١. النجوم الزاهرة ٦ / ٦٩.

٢. من علماء الاسماعيلية الباطنية المتوفّى ٩٣٩هـ.

له: الأزهار و مجموع الأنوار، ثلاثة أجزاء منه، و هو في سبعة؛ تحدث في الجزء الأول من الثلاثة الموجودة عن دراسته و من أخذ عنهم، ثم سير بعض الأنبياء و الأئمة و الدعاة. و في الثاني عن دعاة اليمن بعد موت الآمر حتى عهد الداعي إدريس. و في الثالث عن أقوال الدعاة و تواريخهم.

الأعلام ٢/٢٣٩. أعيان الشيعة ٢٣/٣٥٤. معجم المؤلفين ٣/٢٩٩.

٣. نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن. رقم ٢٥٧٤٩.

ابن حسن[١].

و قد لخّص الكتاب هذا الدكتور عادل العوا، فأخرجه ضمن مجموعة فاطمية[٢] و أثبت فيه خطبة الغدير، و أمر الوصاية و الإمامة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام. فقد جاء بعد الحمد و الثناء و ذكر الأسماء المائة التي ذكرها الله للنّبيّ الأقدس صلى الله عليه و آله و سلّم في القرآن الكريم، ما نصّه بخصوص عيد الغدير.

---

١. هو الداعي العشرون، من سلسلة دعاة الإسماعيلية الطيبية في دور الستر. توفّي سنة ٩١٧ هـ. و هو ابن الداعي المؤرخ المشهور إدريس عماد الدين المتوفّى سنة ٧٨٢ هـ.

٢. منتخبات اسماعيلية، ط دمشق عام ١٩٥٨ م. ويقع في ٢٧٢ صحيفة.

خطبة عيدالغدير في اليمن

و آخِر ما حجّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حجّةُ الوداع، سنة عشر من الهجرة؛ بعد أن أعلم الناس من أهل الإسلام في النواحي، أنه يريد الحجَّ لتعرف الأُمَّة مناسك حجِّها، و ما افترض اللّٰه تعالى؛ فخرج صلّى الله عليه وآله من المدينة في شهر ذي القعدة الحرام، لخمس ليالٍ بقِين من الشهر؛ و تلك الحجّة تُسمّى «حَجّة الوداع» لأنَّها آخر حجّةٍ حجّها رسول اللّٰه صلّى الله عليه وآله، و «حجّة البلاغ» لما أوحى فيها إليه عليه السلام: ﴿ يا أيُّها الرَّسول ! بلِّغ ما أُنزل إليكَ مِن ربِّكَ [في عليّ] و إن لَم تَفعلْ فما بلَّغتَ رسالَتَه واللّٰهُ يَعصِمُك مِن النّاس[1] ﴾.

و أمر اللّٰه نبيّه محمداً أن ينصّ على عليّ بن أبي طالب صلّى الله عليه وآله، و على آله الطاهرين من آلها، و أن يبيّن ولايته لجميع من حضره من أُمّته. و كان ذلك بعد رجوعه صلّى الله عليه وآله من مكّةَ، بعد تمام تلك الحجة. فأبان صلّى الله عليه وآله و لاية وصيّه عليه السلام اليومَ الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام، قبل أن يفترق مَن حجّ من المسلمين؛ و كانوا ـ على ما أتت به الأخبار ـ

---

1. سورة المائدة: ٦٧.

نيِّفاً و سبعين ألفاً[١]. و صار صلى‌الله‌عليه‌وآله بغدير خم ـ و كان ذلك اليومُ أشدَّ الحرارة من الحر ـ فأمر منادياً ينادي بـ«الصلاةُ جامعةٌ»؛ و أمر بدوحات مجتمعة فَقُمِمَ ما تحتهن و استظلّ تحتهن. فاجتمع الناس إليه أجمع ما كانوا، لأنه قلَّ من المسلمين من لم يخرج معه في تلك الحجة؛ فلما اجتمعوا بُني له صلى‌الله‌عليه وآله مثل المنبر من الحجارة، ورقَى عليه فقام فيهم صلى‌الله‌عليه‌وآله خطيباً، بعد أن حمدالله و أثنى عليه :

أيُّها الناسُ! إنّ الله عز و جلّ لم يبعثْ نبياً إلّا عاش نصف ما عاش الذي قبله؛ و إني أُوشِك أن أُدعى فأُجيب. و إنّي تاركٌ فيكم الثَّقَلين بعدي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله و عترتي أهلَ بيتي؛ فإنّهما لن يفترقا حتّى يرِدا علَيّ الحوض كهاتين : ـ و ضَمّ إصبعيه المسبِّحتيْن من يديه ـ ولا أقول كهاتيْن: ـ و ضمّ إصبعَيه المسبّحةَ و الوُسطى من يده اليُمنى لأنّ أحدهما تسبق الأُخرى ـ ثم أخذ بيده عليه‌السلام و أقامه و رفع يده بيده حتى رؤي بياض إبطيهما، و قال: مَن أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: الله و رسوله أعلم. قال: ألَستُ أولى بذلك، لقول الله عزوجل: ﴿ النَّبِيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهم ﴾؟ قالوا: اللّهم نَعم. فكرَّر ذلك ثلاثا، و أخذ إقرارهم. ثم قال: فَمَن كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه. اللّهم! والِ مَن والاه و عادِ مَن عاداه! وانصرْ مَن نَصَره و اخذُل مَن خَذَله! و أدِرِ الحق معه حيثدار! هل سمعتم و أطعتم؟ قالوا: اللّهم نَعم. قال: اللّهم، أشهد على إقرارهم! كرّر عليه‌السلام هذا القول عليهم أيضاً ثلاث مرّات. ثم نزلت عليه الآيةُ و هي ﴿ اليومَ أكملتُ لَكُم دينَكم و أتممتُ علَيكم نعمتي و

---

١. يقال: خرج معه تسعون ألف. و قيل: مائة ألف و أربعة عشر ألفاً. و جاء: مائة ألف و عشرون ألفاً. و قيل : مائة ألف و أربعة و عشرون ألفاً. و هذه عدّة من خرج معه؛ أما الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة، و الّذين أتوا من اليمن مع أميرالمؤمنين عليه السلام و أبي موسى. الغدير ١ / ٩.

رَضيتُ لَكُم الإسلامَ دينا ﴾[١] لأنَّ الفرائض كانت ينزل منها شيءٌ بعد شيء، و تنزل الفريضة ثم تنزل الفريضة الأُخرى، فكانت الولاية آخر الفرائض فأنزل اللّه هذه الآية[٢].

ثم يدعم قوله هذا بالأحاديث و الروايات الواردة عن أميرالمؤمنين صلى الله عليه وآله في هذاالشأن و احتجاجاته يومَ الشّورى، و إقامة الحجة عليهم بصورة مفصّلة، و يختم مجلسه بذكر وفاة النَّبيِّ الأقدس صلى الله عليه وآله و البكاء عليه.

فما أروعَها من ذكرى! و ما أحلاه من مهرجان ! و كأنها كما قال الشاعر:

ثُمَّ انقضتْ تلكَ السّنونَ و أهلُها   فكأنَّهم و كأنّها أحلامُ

---

١. سورة المائدة: ٣.

٢. منتخبات إسماعيلية / ٢١٥. من غير تصرّف

خطبة عيدالغدير في بلاد الشام

أما خطبة يوم الغدير و مراسيمه و الاحتفال به خلال العهد الفاطمي في سوريا، فهناك عدّة خُطب مفصّلة وضعت في سنين مختلفة و بأساليب شتّى، و لكن كلّها متّحدة في المعنى و الهدف و الغاية. و قد تفرّد بذكر الخطب تلك، و جمعها أبوسعيد ميمون بن القاسم الطبراني في كتابه[1] و إليك نتفاً من خطبة أُنشِئت لهذا الغرض :

بسم اللّٰه الرّحمٰن الرّحيم

الحمد للّٰه الذي أظهر حكمته من قدرته، و أبدى اسمَه من نور ذاته مولاه و أظهره معناه؛ الّذي لا شريك له و لا مثيل و لا عديل و لا نظير؛ معنى قديم أزل و الإسم قديم أزلي محدث ظهوره عند بارئه و مكوّنه و منشئه؛

---

١. سبيل راحة الأرواح /٦٠ و ٦٣ و ٦٥ و ٦٨ و ٧٣.

أنطقه بعد السكونِ و الاختفاء و أبدى منه كلَّ حقٍّ و هدى. و صلوات السيد الكريم، على الباب المُشرق المنير، الَّذي بوّأه علم معرفته، و عرّفه مكنونَ باطن صفته، و على أيتام ملكه، و مراتب قدسه الكرام، و السادةِ البررة مصابيحِ كلِّ ظلام، و على من يليهم من أهل الصفاء، و من قرب منهم من خالصي أهل الوفاء، و سلّم تسليماً!

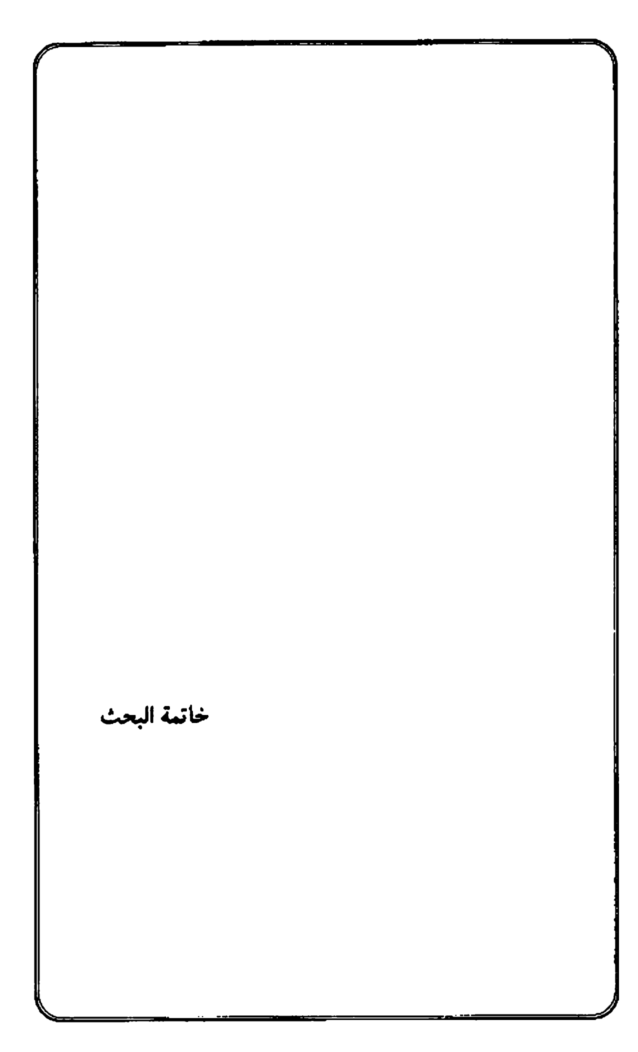
فأما ـ يا ولدي ! ـ فضل «يوم الغدير» و ما جعله اللّٰه تعالى فيه من التشريف، و ما يجب على المؤمنين من العمل فيه، فاعلم ـ هداك اللّٰه! ـ أنّه في شهر ذي الحجة، و هو اليوم الثامن عشر في كل سنة؛ و له فضل كبير، و شرف عظيم؛ و أن سيّدنا محمّد أعلى ذكره من مولاه السّلام دعا في هذا اليوم إلى مولاه و معناه، و هو يومٌ عظيم شرفه، كبير محلُّه؛ و في هذا اليومِ يقوم قائم آل بيت محمّد صلّى اللّٰه عليه و آله و هو اليوم المشهود الذي يظهر فيه المولى و يكشف الغطاء و يعظّم فيه الجزاء؛ و كان هذا اليوم بالجُحفة، و يقال: أرض الجُحف. فخرج سيّدنا الأجلُّ محمّد على ذكره السلام ضحى نهاره و أصلح منبراً من حجارة، و اجتمع العالَم فيه؛ و فيهم الأوّلُ و الثاني و الثالث؛ و كان يوم دعوة لانداء؛ لأن النداء كلام المعنى، و إشارته إلى نفسه، و الدّعوة كلام الاسم و دلالته على معناه جلّ و عزّ؛ فقال مسمعاً لجميع من حضر، و سمع كلامه من أهل السّماوات و الأرض، و العرب و العجم، و الملائكة و الأُمم، فأخذ بيد مولاه و غايته و معناه، و قال: إنّ اللّٰه تعالى قد أمرني أن أُقيم لكم علياً إماماً و عَلَماً، اللّهم مَن كنتُ مولاه فهذا مولاه، اللّهمَ والِ من والاه! و عادِ مَن عاداه، وانصر مَن نصره! و اخذلْ من خذله! فوصل هذا القول إلى كلّ أحد بقدر ما استحق؛ فأهل الكدر سمعوا القول بأن هذا علياً إمامٌ، و المؤمنون سمعوا أنّ هذا بارئكم فاعرفوه، و مولا كم فلا تنكروه! و هو يومٌ شريف القدر جليلُ الخَطب. فيجب ـ يا سيدي ـ أن تتحقق فضل هذا اليوم! و تغتسلَ بكرة، و تلبس أفخرَ ثيابِك؛

و تهرق ما أمكن من الدِّماء ممّا أحل الله لك؛ و تجمع فيه مَن حضر مِن المؤمنين و لا يحضرْهم مخالف و لاصبيٌّ و لاخادم و لا جارية! و قدّم الطعام و الشراب و البخور! و إن كان بينكم ضعيف فافتقدوه ببرّكم ممّا سهّل اللّـه، و أنفقوا فيه! فقد ضمن سيّدنا محمّد منه السلام، أن خلف الدرهم فيه بسبعمائة درهم؛ و جزيل الثواب أعظم، و احذروا من الهفوة و التفريط[١]!

ثمّ يعقّب كلامه بالمواعظ والدعاء و النصيحة و الدعوة إلى الصراط المستقيم، و التمسّك بحبل الله القويم؛ و أداء صلاة العيد، و تلاوة الدعاء الخاص لهذا العيد، و إظهار الفرح و السّرور، إلى أن تنقضي أيّامُ العيد السعيد، فينصرف كلٌّ إلى عمله و اشتغاله. و هكذا في كلّ سنة من يوم الثامن عشر في شهر ذي ـ الحجة لما لهذا اليوم من قدسيّة و أهميّة كبرى عند المولى القدير؛ و أنّ عليهم الاحتفال بهذا اليوم، رغم عدم استقرار الأُمور في بلاد الشام؛ حينذاك لضعف النفوذ الفاطمي أمامَ الغزو الصليبي و هجمات العباسية التي أخذت تعمل بكلّ قواها للقضاء على الخلافة الفاطمية، مع تأييد العالَم الإسلامي الكامل للفاطميين و احترامه لهم منذ بدء الدعوة.

---

١. سبيل راحة الأرواح /٦٣ـ ٦٤.



خاتمة البحث

هذه نهاية دراسة أدبيّة عن نفر من شعراء الدولة الفاطمية؛ و قد فصّلنا القول عنهم في الصّفحات الماضية، سواء كانوا مصريّو النشأة و المحتد، نظراء : ابن قادوس و القاضي الجليس و ابن جبر، أم أنّهم وفدوا عليها من الأنحـاء المعمورة أمثال: هبةِ اللّه بن عمران داعي الدعاة من شيراز و عُمارة اليمني من مرطان أتباع اليمن و ناصر خسرو علوي من ايران. و قرأنا صوراً مختلفة عن شعرهم في المناسبات الفاطميّة و الموضوعات المتنوّعة؛ عـرفنا مـدى تأثـير عقائد الفاطميين في شعر شعرائها، و أنّهم إلى أي حدّ تأثّروابها حتى أنّ بعضاً من هؤلاء الشعراء أسرفوا في المدح، و غالوا غلوّاً فاحشاً إلى حدّ يمكـننا أن نميز الشعر الفاطمي من غيره من شعر شعراء الأقطار الإسلامية الأخرى.

و لم يكن ذلك الغلوّ و الإسراف في المدح، إلّا من حيث تقدير الفاطميين الشعراء و تشجيعهم لهم من نواحي شتّى. و كان من جـراء ذلك أن ازدحمت

أبواب الخلفاء و الوزراء الفاطميين بهؤلاء الشُّعراء الذين كانوا يُعدّون بالمائات؛ و كلُّهم يترقّبون المناسبات بفارغ الصبر ليقولوا في ذلك شعراً و يأخذوا جاريهم و صلاتهم و بمالم ينعم به أيُّ شاعر في الدول الأُخرى. و لذا تجدهم يتبارون دائماً في إنشاد قصائدهم و يتنافسون في الإجادة و الإتقان. و لاغرابة بعد إذا كان اجتماع هؤلاء الشعراء في مصر و مزاحمة الواحد الآخر من دوافع ازدهار الشعر في العصر الفاطمي؛ حيث الخلفاء الفاطميون يسرفون في الإغداق عليهم بما يملكون من مال و متاع و رقيق، حتى ليخيَّل للقارئ أنّ حياة الشعراء كانت حياةَ لهو و قصف و سمر و ترف و غناء و سماع و ألحان؛ و كان ذلك كلّه مصدراً خصباً لكثير من الشعراء.

و لعلَّ السببَ الأوَّلَ في ذلك كما قلنا يرجع إلى أنَّ القائمين على شؤون البلاد كانوا قد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الأحزاب اليومَ الصُّحفَ و نشر الإعلانات. وسيلة تعبِّر عن اتّجاه مناهجها و أهدافها و آرائها. و الفاطميون ـ لمّا عرفوا قيمة الدّعاية و قدرها و أثرها الوافر في المجتمع و النفوس ـ اهتمّوا بها أيّما اهتمام و اصطنعوا كلَّ ما يفيدهم في سبيل دعوتهم من علماء و أدباء و شعراء؛ و عرفوا أيضاً أنَّ الشعر العربيَّ منذ العصر الجاهلي كان من أهمِّ وسائل الدعاية للقبيلة و للأحزاب السياسيّة و غيرها من الفرق الإسلامية إلى بعد ظهور الإسلام. فلم يشأ الفاطميون أن يغفلوا عن سلاح الشعر، و يحاربوا خصومهم به و يشهروه في وجوه أعدائهم؛ فلاغرو إذا وجدناهم يبذلون العطايا لشعراء دولتهم و يجعلون لبعض الشعراء رواتب شهريّة كموظَّفين في الدولة.

و قد روى المقريزي في خِططه: أنّه كان للشعراء رواتب شهرية تقدَّر من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير؛ غير ما كانوا يبذلون عليهم من الأموال في أيام الأعياد و المناسبات. و كلام المقريزي يدلُّ على اهتمام الفاطميين للشعراء؛

فقد قال في حديثه عن « المنظرة ببركة الحبش »: و كانت لهم منظرة تُشرف على بركة الحبش؛ قال الشريف أبو عبدالله محمّد الجواني في كتاب النقط على الخطط : إنّ الخليفة الآمر بأحكام الله بنى على المنظرة التي يقال لها بـبُردكة الخركة، منظرة من خشب مدهونة، فيها طاقات تُشرف عـلى خـضرة بـركة الحبش؛ و صوّر فيها الشعراءَ، كلَّ شاعر و بلده؛ و استدعى من كلّ واحد منهم قطعة من الشعر في المدح و ذكر الخركاة؛ و كتب ذلك عند رأس كلّ شاعر، و بجانب صورة كلّ منهم رفّ لطيف مذهّب.

فلمّا دخل الآمِرُ و قرأ الأشعار، أمر أن يحطَّ على كلّ رفّ صرّة مختومة فيها خمسون ديناراً؛ و أن يدخل كلُّ شاعر و يأخذ صرّته بيده؛ ففعلوا ذلك و أخذوا صررهم و كانوا عدّة شعراء[١].

و مهما يكن مـن شيء، فـإنّ التـاريخ لم يحـدّثنا عـن دولة مـن الدُّول الإسلامية أقامت الشعراء هذه المـنزلة السـامية، و هـذا التـمجيد و الحـفاوة، ولانكاد نقرأ مثلها أقامتهُ الفاطميون، من وضع صورة كلّ شاعر مع بيان اسمه و رسمه في طاقات، أو في منتزهات عامّة. و هي إن دلّت على شيء فإنما تـدّل دلالةً قاطعة على تمجيدهم و تقديرهم لفنّ الشعر و الشعراء؛ لأنّهم كانوا قـد عرفوا أن الشعراء لسانُ تمجيدهم، و أكبرُ عامل في رفع شأن دولتهم، و توطيد كيانهم؛ فكانوا كذلك حتّى في القسم الأخـير مـن العـصر الفـاطمي. و هـذا الإغداق بظنّي ممّا حدى بـالشعراء أن يـقصدوا الفـاطميين مـن كـلّ صـوب وحَدَب؛ و لهذا كثُر الشعراء في العصر الفاطمي و كثر إنتاجهم.

ثم لم يكن هذا التقدير و التشجيع من قِبل خلفاء الفاطميين فحسب؛ بل كانت سيّداتُ القصر الفاطمي، يغدقن الأموال و العطايا على الشعراء كلّما سمعن

---

١. الخطط المقريزية ١/٤٨٦ ـ ٤٨٧.

من وراء الحجاب منهم مدحاً في حقّ أئمّتهن، أو كان الشعر وفْقَ ذهن الفاطميين. وقد قلنا في ترجمة عُمارة أنّه بعد أن أنشد قصيدته الأُولى في مصر و التي مطلعها قوله :

اَلحمدُ للعيس بَعد العَزم و الهممِ   حمداً يقومُ بما أولتْ من النّعمِ

حازت القصيدة رضى الخلفاء، و أغدقوا عليه الأموال، و أخرجت له السيدةُ الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة ديناراً.

و مثله القاضي الرشيد الزبير،[١] فإنه عندما وفد على القاهرة بعد مقتل الخليفة الفاطمي الظافر، و حضر المآتم التي كانت قد أُقيمت له في الديار المصرية مع الشعراء، قام آخرَهم و أنشد قصيدته التي مطلعُها:

ما للرياض تميل سُكرا؟   هل أُسقيت بالمزن خَمرا؟

و عندما وصل إلى قوله :

أفكــــربلاءٌ بــــالعِراق   و كربلاءٌ بمصرَ أُخرى؟!،

---

١. القاضي الرشيد أبوالحسين أحمدُ ابن القاضي الرشيد أبي الحسن علي بن القاضي الرشيد أبي اسحاق إبراهيم بن محمّد بن الحسين ابن زبير الغساني المصري الأُسواني المقتول ٥٦١، ٥٢٦، ٥٦٣ هـ. كان من أهل الفضل و النباهة و الرياسة، كاتباً شاعراً فقيها نحويا لغوياً ناشئا عروضيا مؤرخاً منطقيا مهندساً، عارفا بالطب و الموسيقي و النجوم متفننا. و جاء أنه كان من أفراد الدهر فاضلاً في فنون كثيرة من العلوم؛ و هو من بيت كبير بالصعيد من المموّلين، و له تآليف. قتله شاور ظلماً لميله إلى أسد الدين شيركوه.

له: الرسالة الحُصيبية. جنان الجنان و رياض الأذهان. منية الألمعي و بلغة المدعي. المقامات. الهدايا و الطرف. شفاء الغلة في سمت القبلة. ديوان شعر.

الأعلام ١٦٨/١. أعيان الشيعة ٥٧/٩. إيضاح المكنون ٢٧٣/١. بغية الوعاة ١٤٦/. خريدة القصر (ق مصر) ٢٠٠/١. روضات الجنات ٢٧٩/١. الروضتين ١٤٧/١. شذرات الذهب ١٩٧/٤. الكامل في التاريخ ١٥٥/١١. مرآة الجنان ٣٦٧/٣. معجم الأُدباء ٥١/٤. المنتظم ٢٤٧/١٠. النجوم الزاهرة ٣٨٣/٥. نسمة السحر ١٦١/١. وفيات الأعيان ٥١/١.

ضجّ القصرُ بالبكاء و العويل، من قَبلِ الخلفاء و السيدات؛ فانثالت عليه العطايا، و من ثَمَّ بدأت صِلتُه بالقصر و الوزراء؛ حتى قيل: إنَّ هذه القصيدة وحدَها كانت سبب تقدّمه في الدولة[١].

فشعراء مصر الفاطمية بعد هذا كلّه، كانوا في غنى من أسباب الترف و الحياة الإجتماعية؛ و كان همُّهم نظم الشعر في المناسبات فحسب، والإتقان و الإجادة في الشعر؛ حتى أنَّ تطوُّراتٍ حصلت في الأدب العربي، و وجدت فيه خصايص لم تكن موجودة من قبل؛ و اشتغلوا في الزينة اللفظية و اتيان المعاني الدقيقة. و أنَّ المؤرخين و صَفوا الشعرَ الفاطميَّ بالرّقة و العذوبة و الجزالة و السلاسة إلى غير هذا من الصفات التي توصَف به الألفاظ الشعرية؛ فضلاً على أنّ هؤلاء الشعراء أخذوا على أنفسهم أن يكون شعرُهم حاوياً للخصايص التي ظهرت في الشعر العربي في كلّ عصوره و بيئاته منذ عُرف الشعر العربيُّ، و بعيد عن ألفاظ أعجمية. و لهذا نستطيع أن نقول لم يتمكّن باحثٌ في تاريخ الأدب الفاطمي أن يدّعيَ بذلك، و هو استعمال و وجود بعض الفاظ أعجمية فيه؛ أجل و لكنّنا نستطيع القول أن ذلك قليل جداً و هو ناشئٌ من أن بعض الشعراء حاول أن يتظرف في الشعر باستعماله بعضَ ألفاظ أعجمية فاستعملها.

و إنّ الناحيةَ التي تمتاز في الشعر الفاطمي، هي أنّ الشعراء الفاطمية صوّروا البيئة المصرية و الحياة المصرية في عهدهم أصدق تمثيل، و وفقوا في التعبير عن شخصيّة مصر؛ حتّى أن الشعر الفاطمي كاد يكون سجلّاً سياسيّاً للأحداث التي ألمت و جرت في ذلك العصر. و أن هؤلاء الشعراء عندما كانوا لسانَ الدولة في مثل هذه الأحداث السياسية، فلا مشاحة أن كان ما ينشد من الشعر السياسي هو صورة صادقة و « ريبورتاج سياسي » لحياة مصر

---

١. معجم الأدباء ٤/٥٧ـ٥٨.

السياسية، دون غيرها من الأقطار العالمية الأُخرى.

ولكنَّ الأسفَ كلَّه أنَّ الأحداث الطارئة على مصر ـ سيما في أيام المستنصر باللّٰه الفاطمي ـ إبَّانَ المحنة الكبرى و في الصراع الذي كان بين شاور وضرغام في أواخر العصر الفاطمي، كانت من أهمّ أسباب ضياع شعر الشعراء، و كُتب العلماء؛ فقد كانت هذه الأحداث و الاضطرابات مأساةً للعصر الفاطمي نفسه؛ إذ سبّبت زوال الدّولة الفاطمية. و أصبحت مأساةً للحياة الأدبيَّة و الفكرية أيضاً؛ فذهب ضحيّتها مئاتٌ من الدواوين للشعراء الذين كانت تزخر بهم مصر الفاطمية. و لو راجعنا التاريخ و دقَّقْنا النظر حول الشعر الفاطمي، لعرفنا مدَى هذه الخسارة التي لحقت بتاريخ الأدب المصري، لضياع هٰذه الثروة الأدبية المصرية، ولأثبتنا أنّ مصر الفاطميّة كانت غنيّةً بشعرائها، خَصِبةً في شِعرها[1].

قال عزّ الملك المختار محمّد بن عبيداللّٰه المسبِّحي الحراني المصري (٣٦٦ ـ ٤٢٠ هـ): و ذُكر عند العزيز باللّٰه، كتابُ «العين» للخليل بن أحمد، فأمر خزّان دفاتره فأخرجوا من خزانته نيّفاً و ثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل بن أحمد.

و حَمل إليه رجلٌ نسخةً من كتاب «تاريخ الطبري» اشتراها بمائة دينار؛ فأمر العزيزُ الخزّانَ، فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبري، منها نسخة بخطّه. و ذُكر عنده كتاب «الجَمهرة» لابن دُريد، فأخرج من الخزانة، مائة نسخة منها.

و قال في كتاب «الذخائر»[2] عدة الخزائن التي بِرَسْم الكتب في سائر

---

١. في أدب مصر الفاطمية /١٣٨ ـ ١٣٩.

٢. مؤلف كتاب «الذخائر و التحف» هوالأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي؛ و قد أشرنا إلى ترجمته ص ٦٣ و ٦٤ من الكتاب.

العلوم بالقصر أربعون خزانة، خزانة من جملتها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة؛ و انّ الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة في شدّة المستنصر، ألفان و أربعمائة ختمة قرآن، في ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن، محلّاة بذهب وفضّة و غيرهما، و أنّ جميع ذلك كلّه ذهب فيما أخذه الأتراك في واجباتهم ببعض قيمته؛ ولم يبقَ في خزائن القصر البرّانية منه شيء بالجملة، دون خزائن القصر الداخلة التي لايُتوصّل إليها.

و وُجدت صناديق مملوؤة أقلاماً مبرية من براية ابن مقلة و ابن البوّاب و غيرهما.

قال: و كنت بمصر في العشر الأوّل من محرم سنة إحدى و ستين و أربعمائة (٤٦١ هـ.) فرأيت فيها خمسة و عشرين جَملاً مُوقَرَةً كتباً محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمّد بن جعفر المغربي، فسألت عنها فعرفت أنّ الوزير أخذها من خزائن القصر، هو و الخطير ابن الموفق في الدين، بإيجاب وجبت لهما عمّا يستحقّاه و غلمانهما من ديوان الجبليين؛ و أنّ حصّة الوزير أبي الفرج منها قوّمت عليه من جارى مماليكه و غلمانه بخمسة آلاف دينار.

و ذَكر لي مَن له خُبرة بالكتب أنّها تبلُغ أكثر من مائة ألف دينار، و نُهب جميعها من داره يوم انهزام ناصر الدولة بن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة، مع غيرها ممّا نُهب من دُور من سارمعه من الوزير أبي الفرج و ابن أبي كدينة و غيرهما. هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة، و سوى ما صار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترق بالإسكندرية، ثم انتقل بعد مقتله إلى المغرب. و سوى ما ظفرت به لواتة محمولاً مع ما صار إليه بالابتياع و الغصب في بحر النيل إلى الإسكندرية، في سنة إحدى و ستّين و أربعمائة و ما بعدها من الكتب الجليلة المقدار، المعدومة المثل، في سائر الأمصار، صحّةً و حُسنَ خطٍّ و تجليدٍ و غرابةً التي أخذ جلودها عبيدهم و

إماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم؛ و أُحرق ورقها تأوُّلاً منهم أنَّها خرجت من قصر السلطان ـ أعزّ الله أنصاره ـ و أنّ فيها كلامُ المشارقة الذي يخالف مذهبهم، سوى ما غرق و تلف و حمل إلى سائر الأقطار. و بقي منها مالم يحرق، وسفت عليه الرياح التراب فصار تِلالاً باقية إلى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب. و قال ابن الطوير: خزانة كتب كانت في إحدى مجالس المارستان اليوم (يعني المارستان العتيق) فيجيء الخليفة راكباً و يترجَّل على الدكة المنصوبة و يجلس عليها، و يحضر إليه من يتولاها؛ و كان في ذلك الوقت الجليسُ بن عبد القوي، فيُحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة و غير ذلك ممّا يقترحه من الكتب، فإن عنّ له أخذُ شيء منها، أخذه ثم يعيده. و تحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم، و الرفوف مقطعة بحواجز، و على كلّ حاجز باب مُقفل بمفصلات و قفل؛ و فيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات و يسيرٌ من المجرَّدات ؛ فمنها: الفقه على سائر المذاهب و النحو و اللغة و كتب الحديث و التواريخ و سيرالملوك و النجامة و الرُّوحانيات و الكيمياء من كل صنف النُّسخ، و منها النواقص التي ما تممت كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كلّ باب خزانة و ما فيها من المصاحف الكريمة في مكان فوقها، و فيها من الدروج بخطّ ابن مقلة و نظائره كابن البوّاب و غيره؛ و تولّى بيعها ابنُ صورة في أيّام الملك الناصر صلاحالدين.

فإن أراد الخليفة الانفصال مشى فيها مشية لنظرها، و فيها ناسخان و فراشان، صاحب المرتبة، و آخر فيعطي الشاهد عشرين ديناراً و يخرج إلى غيرها.

و قال ابن أبي طيّ[1] بعد ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر ـ: و من جملة ما باعوه خزانة الكتب؛ و كانت من عجائب الدنيا. و يقال: إنّه لم يكن في جميع بلاد الإسلام، دارُ كتبٍ أعظمَ من الّتي كانت بالقاهرة في القصر؛ و من عجائبها أنه كان فيها ألف و مائتا نسخة من تاريخ الطَّبريّ، إلى غير ذلك؛ و يقال: إنّها كانت تشتمل على ألف و ستمائة ألف (١/٦٠٠/٠٠٠) كتاب. و كان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. انتهى.

و ممّا يؤيد ذلك أن القاضي الفاضل عبد الرحيم بن عليّ. لمّا أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة، جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد، و باع ابن صورة دلّال الكتب منها جملة في مدّة أعوام فلو كانت كلّها مائة ألف لما فضل عن القاضي الفاضل منها شيء.

و ذكر ابن أبي واصل[2] أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة و عشرين

---

١. أبو الفضل يحيى بن حميدة بن ظافر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن محمّد بن الحسن صالح بن عليّ بن سعيد بن أبي الخير الطائي البخاري الحلبي الشهير بابن أبي طيّ ٥٧٥ ـ ٦٣٠ هـ.

عالم مؤرخ مؤلف متتبع له تصانيف في أنواع العلوم، تأدب و تفقه على مذهب الإمامية، و كان شاعراً له مدائح كثيرة في أهل البيت عليهم السلام، ولد بحلب و نشأ و مات بها.

له: معادن الذهب في تاريخ حلب. كنز الموحّدين في سيرة صلاح الدين. المنتخب في شرح لامية العرب. سلك النظام في تاريخ الشام ١ ـ ٤. حوادث الزمان ١ ـ ٥. أخبار الشعراء السبعة.

الأعلام ١٧٥/٩. أعيان الشيعة ١٥/٥١. الأنوار الساطعة في المائة السابعة /٢٠٥. إيضاح المكنون ٥٦٨/٢. تأسيس الشيعة /١٢٨. الذريعة ٣٣٦/١ و ٢١٩/٣ و ١٧٧/٢١. كشف الظنون /٢٧، ٢٧٧، ٣٠٤، ٣٩٨، ٦٩٣. لسان الميزان ٢٦٣/٦. معجم المؤلفين ١٩٦/١٣. هدية العارفين ٥٢٣/٢.

٢. جمال الدين أبوعبدالله محمّد بن سالم بن نصرالله بن سالم بن أبي واصل المازني، التميمي، الحموي الشافعي ٦٠٤ ـ ٦٩٧ هـ.

فقيه، اصولي، متكلم، منطقي، حكيم، طبيب، مؤرخ، أديب، شاعر، عروضي، لغوي، نحوي، عالم بالمنطق و

←

ألف مجلّدٍ[١].

والذي ينبغي الإشادة به هنا هو أن شعراء الفاطميين بعد ما نالوه من حظّ وافر و مقام رفيع كلّ واحد في الدولة، لم يكونوا أوفياء للدولة بعد ضعف حكمها و انقراضها؛ فكم منهم خرج من مصر غاضباً يهجوها، و منهم من ألتحق بالدولة العباسية فمدحها بقصائد عدّة و هجا الفاطميّين. و انّ مصر و الفاطمية التي أكرمت هؤلاء الشعراء فمدحوها، كانت هي مصر و الفاطمية التي هجَوْها، بعد أن رحلوا عنها وانقرض حكمها؛ و كان شأنهم في ذلك شأنَ بقية الشعراء من ذوي الأطماع التي لاتقف عند حدّ. فإن كثيرين من الشعراء وفدوا على مصر فأغدق عليهم الخلفاء و الوزراء أموالاً و عطايا جمّة، و هم مدحوهم و كأنّهم لم يفِدوا على مصر إلّا لقصد النوال، و لكن سرعان ماتبدد الحكم الفاطمي، و لم يعرف الشعراء معروفهم و جميلَ صُنعهم! و ليعلم أن هذه الصفة لم تكن خاصة لهؤلاء، بل هي صفة يتحلّى بها جلّ الشعراء منذ وُجد الشعر في التأريخ و إليك على سبيل المثال:

←

الهندسة، من فقهاء الشافعية، مولده و وفاته في حماة (بسورية). أقام مدة طويلة في مصر، و اتّصل بالملك الظاهر بيبرس، فأرسله في سفارة عنه إلى ملك صِقلية الأنبرور مانفيرد. و لمّا عاد بعد مدّة لُقّب قاضي القضاة و شيخ الشيوخ بحماة و مات في شوال ٦٩٧ هـ.

من تآليفه: مُفرّج الكروب في أخبار بني أيّوب. التاريخ الصالحي. تجريد الأغاني. شرح ما استغلق من ألفاظ كتاب الجمل في المنطق. هداية الألباب في المنطق. شرح قصيدة ابن الحاجب. مختصر الأدوية. مختصر المجسطي.

الأعلام ٣/٧. آداب اللغة العربية ١٧٢/٣. إيضاح المكنون ٤٣٠/١. بغية الوعاة ٤٤/١. تاريخ أبي الفداء ٣٩/٤. شذرات الذهب ٤٣٨/٥. طبقات القاضي ابن شهبة ١٩٤/٢. معجم المؤلفين ١٧/١٠. نكت الهميان ٢٥٠/. هدية العارفين ١٣٨/٢.

١. الخطط المقريزية ٤٠٨/١ـ ٤٠٩.

أُميّةُ بن أبي الصَّلت[١]

لم يكن أُمية مصرياً إنما هو أندُلسيٌّ النشأة و المحتد؛ وفد على مصر في عهد الآمر بأحكام اللّه، و كان يخدم وزيره والخليفة بـالصناعتين : الطب، و النجوم. كما و قد التفّ حوله جمهور المثقّفين من المصريين يأخذون عنه العلم و الأدب؛ و بالرغم من اتصال أُميّة بالفاطميين و مدْحِه لهم واشتراكه للشعراء في الأعياد و المواسم و تنعّمه في مصر بطبيعتها و لهوها، وقد قـدّره المـصريون لعلمه و أدبه، ولكنه خرج من مصر غاضباً غيرَ راضٍ عنهم يهجو مـصر و المصريين؛ و ويل لشعب و أُمّة لم يصل بين ظهرانيهم شاعرٌ إلى مطامعه! فقال:

و كَـم تَمـنّيتُ أن ألقَ بهـا أحـداً   يسلي من الهمّ أويعدي على النُّـوَبِ!
فما وجدتُ سـوى قـومٍ إذا صـدقوا   كانت مواعيدُهم كالآل في الكذبِ[٢]

إلى غير هذا من الأبيات، وقد ألفّ كتاباً في وصف مصر جـغرافـيا و

---

١. أبو الصلت أُمية بن عبدالعزيز بن أبي الصَّلت الأندلسي الداني ٤٦٠ـ٥٢٩ هـ.

حكيم، أديب شاعر، عالم،و لد بدانية، بالأندلس و تعلّم و نشأبها،ثم رحـل إلى الإسكـندرية، أيـامَ الخـليفة الفاطمي المستنصر باللّه أبي تميم معد، و عاش ستون سنة، منها عشرون في بلدة اشبيلية، و عشرون في إفريقية عند ملوكها الصنهاجيين، و عشرون في مصر محبوساً في خزانة الكتب؛ و كان وجّهه صاحب المهديّة ألى ملك مصر فسُجن بهاطول تلك المدة في خزانة الكتب، فخرج في فنون العلم إماماً، و أمتنُ علومه الفلسفة و الطب و التلحين، و كان يكنّى بالأديب الحكيم، و مات سنة ٥٢٠، و قيل ٥٢٨ بالمهدية و دفن بها.

له: الحديقة (على نهج كتاب يتيمة الدهر)، رسـالة العـمل بـالاسطرلاب، الوجـيز في عـلم الهـيأة، الأدويـة المفردة، تقويم الذهن، ديوان شعر.

الأعلام ٣٦٣/١، إيضاح المكنون ١١١/١، شذرات الذهب ٨٣/٤، العبر في خـبر مـن غـبر ٤٣٢/٢، مـرآة الجـنان ٢٥٣/٣، مـعجم الأدبـاء ٥٢/٧، مـعجم المـؤلفين ٣/٣، نـفح الطـيب ٤٩٦/١ و ١٠٥/٢، وفـيات الأعيان ٢٤٣/١ـ٢٤٧، هديّة العارفين ٢٢٨/١.

٢. أخبار الحكماء /٥٧.

تحدث فيه عن النيل و منابعه و زيادته و نقصانه. و روى ما قيل فيه من الشعر، كما أنه حاوى لأشعار قيلت في المناسبات و عرف «بالرسالة المصرية» و هي أوسع بحث عن تاريخ مصر العلمي و الأدبي.

الفقيه عُمارةُ

ذكرنا في الصحائف السّالفة ترجمة الفقيه بإسهاب و مدحه الفاطميين و اشتراكه معهم في المناسبات و الأعياد و المواسم، و قصائده التي كانت تنبّئُ عن إخلاصه وحبّه للدولة الفاطمية؛ كيف و قد استشهد في سبيل الدعوة إليهم، غير أنه بعد ما قرضت الدولة وتولّى الحكم و الوزارة صلاح الدين الأيّوبي، أنشد عدّة قصائد يهنّئه فيها؛ و منها قصيدة يشبّه فيها جيوش صلاح الدين بأنصار النّبيّ صلى الله عليه و آله فيقول :

لَكَ الحسَبُ الباقي على عقب الدهرِ ... بـل الشرف الراقي إلى قمّة النسرِ
كذا فليكُن سعي الملوك إذا سمت ... بها الهمم العليا إلى شرف الذّكرِ
نَهَضتم بأعباء الوزارة نهضة ... أقلتم بها الأقدام من زلّة العثرِ
كشفتم عن الإقليم غُمّتَه كما ... كشفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقرِ
حميتم من الإفرنج سرب خلافة ... جريتم لها مجرى الأمان مِن الذعرِ
و لما استغاث ابنُ النبيّ بنصركم ... ـ و دائرةُ الأنصار أضيق مِن شبرٍ ـ
جـلبتم اليه النصرَ أوساً و خزرجاً ... و ماالشتقّت الأنصار إلّا من النصرِ
كتائبُ في جيرون منها أواخر ... و أولها بالنيل من شاطئ مصرِ
طـلعتم فأطلعتم كواكب نصرة ... أضاءت مكان الدين ليلاً بلا فجرِ
و آبت إليكم ـ يا ابن أيُّوبَ ـ دولةٌ ... تراسلكم في كل يوم مع السفرِ
حمى اللّه فيكم عزمة أسديّة ... فككتم بها الإسلامَ من رِبقة الأسْرِ
أخذتم على الإفرنج كلَّ ثنيّة ... و قُلتم لأيدي الخيل: مُرّي على «مرّي»!

إلى أن يقول :

يــدٌ لا يــقوم المسلمون بشكـرها	لكـم ـ آل أيُّـوبٍ ـ إلى آخـر الدهـرِ
بكـم آمـن الرحمـان أعـظُمَ يـثربٍ	و آمـن أركـان الثـنيّة و الحِجْرِ
و لو رجعت مصرٌ إلى الكفر لانـطوى	سباط الهدى مِن ساحة البرّ و البحرِ
و لكـن شـدَدْتم أزره بـوزارة	غـدا لفـظها يشـتقّ مـن شـدّة الأزرِ
فـهنّيتمُ فـتحاً تـقدَّم جـلّه	و بـشّر أنَّ الكـلّ يـتلو عـلى الإثـرِ
ومـا بـقيت في الشرك إلّا بـقية	تـتمَّتُها في ذمّـة البـيض و السمرِ
و عـند تمـام المـلك اتي مـهنّئا	ومـلتمساً أجـر الكـهانة و الزجـرِ
و لولا اعـتقادي أنَّ مـدحك قـربة	أُرجَّـى بهـا نـيل المثوبة و الأجـرِ،
لما قلت شـعراً بـعد إعـفاء خـاطري	ولي سـنوات مـنذ تـبتُّ مـن الشـعرِ
فأوْصِ بِيَ الأيـام خـيراً فـإنها	مـصرَّفةٌ بـالنهي مـنك و بـالأمرِ[1]
و جـائزتي تـسهيلُ إذني عـليكم	ومَـلقاكـمُ لي بـالطلاقة و البشرِ

غير أنَّ القصيدة هذه لم تقع موضع الرِّضَى من صلاح‌الدين و أمر بإبعاده و نفيه؛ فهنا عمد الفقيه إلى وضع مخطَّط يطيح بوزارة صلاح الدين.

ولامشاحة أن شعر الفقيه عمارة، لم يكن منبعثا عن أيمان و إخلاص صادق بالنسبة إلى صلاح‌الدين، غير أن التحولات السياسيه التي دفعت به أن يقع في مخالب صلاح‌الدين؛ فأرسل إليه القصيدة و استماله عسى أن يحظى بعفوه، و يذهب الشرُّعنه و يطلق سراحه و لايتطلبه لأنّه شعَر موته، و أنَّ حتفه سيكون على يدَيْ صلاح‌الدين.

قال ابن خلِّكان شمسُ الدين أحمد بن محمّد (٦٠٨ ـ ٦٨١ هـ.) : نُسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه يقول فيها:

---

١. الروضتين في أخبار الدولتين / ١٢ / ٤.

قد كان أوّل هذا الدين بن رجلٍ سعى إلى أن دَعَوه سيّدَ الأُممِ

و يجوز أن يكون البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، و حرّضوا السلطان على المُثلة بمثله[١].

و جاء أنه لايبعد أن يكون القاضي الفاضل سعى في هلاكه و حَرَّض عليه لأنَّ صلاح الدين لمّا استشاره في أمره، قال: يُنفى ! قال: يُرجى رجوعهُ. قال : يؤدَّب. قال: الكلب يسكتُ ثم ينبح. قال: يُقتل! قال: الملوک إذا أرادوا فعلوا. و قام من فوره، فأمر بصلبه[٢].

الشيزري مؤيد الدولة

الأمير الكبير سلالة الملوك و السلاطين، أبو الحارث، و أبو المظفر أُسامة ابن مرشد بن علي بن مقلّدبن نصربن منقذ، أحد الشعراء المشهورين في عهد الملك الصالح طلائع. بلغ من العمرستةً و تسعين سنة، و كان عمره يعدُّ تأريخاً مستقلاً وحده؛ و داره كانت تُعدّ معقلاً للفضلاء و منزلاً للعلماء؛ و له قصائد بديعة رائقة، ولديْه علم غزير وجود و فضل كثير. و للملك الصالح قصائدُ عدة في مدحه، و كان في عهده والياًلحصن شيزر، و أحدَ الأمراء الذين كانوا يساعدون نورَ الدين الزَّنكي في حروبه ضدّ الصَّليبيّين، وأحدَ أولاد ملوك شيزر؛ أقام بمصر مدة قليلة في أيام الفاطميين، و نال منهم مانال من العطايا و الهدايا و الأموال. ثم عاد إلى الشام و لما تولّى الوزارة صلاحالدين أنشده:

حمدتُ على طول عمري المَشيبا و إن كنتُ أكثرتُ فيه الذنوبا

---

١. النجوم الزاهرة ٦/٧٠. وفيات الأعيان ٣/٤٣٤.

٢. الغدير ٤/٤١٦.

لأنّي حـــــييت إلى أن لقـــــيـ ... ـتُ بعد العـدوّ صـديقاً حـبيبا[1]

و له ديوان شعر؛ و صلاح الدين كان يفضّله عـلى سـائر الدَّواويـن و مولده كان عام ثمان و ثمانين و أربعمائة، و وفاته سنةَ أربعٍ و ثمانين و خمسمائة و دفن شرقي جبل قاسيون.

و أمثال هؤُلاء الشعراء كثيرون إذ ماكادت تزول هذه الدّولة الفاطمية، و تشيَّد الدولة العباسية بوزارة صلاح الدين، حتى انبرى شعراء الفاطمية فضلاً على شعراء الأيوبيين؛ يمـدحون العباسيين و يـقدحون في الدولة الفـاطمية، و يهجونهم أقبحَ هَجاء. قال أحد الشعراء مخاطبا الدولةَ العباسية:

أَلستم مُزيلي دولةَ الكفر من بـني ... عبيد بمصر؟ إنّ هذا هـو الفـضلُ
زنـــــادقةٌ ـــــبعيَّةٌ بـاطنيةٌ ... مجوسٌ و ما في الصالحين لهم أصلُ
يُـسرّون كـفراً يـظهرون تشـيّعاً ... ليستّروا شيئاً و عـمّهم الجـهلُ[2]

و قال الحكيم عبد المنعم الجلياني[3]:

---

١. البداية و النهاية ١٢/١٣٣.

٢. الروضتين في أخبار الدولتين /١٦٤. البداية و النهاية ١٢/٢٦٨.

٣. أبوالفضل عبد المنعم بن عمر بن عـبدالله بـن أحـد بـن خـضربن مـالك بـن حـسان الجـلياني الغسـاني الأندلسي ٥٣١ـ٦٠٢هـ.

كان علّامةَ زمانه في صناعة الطب و الكحل، بارعاً في الأدب و صناعة الشعر، و عمّر طويلا ـ و كان صلاح ـ الدين يرى له و يحـترمه. و له فيه مدائحُ كثيرة، و صنّف له كتبا، وله: عـشرة دواويـن، قـال العـماد: و هـو صاحب البديع البعيد، و التوشيح و الترشيح، و الترصيع و التـصريع، و التـجنيس و التـطبيق، و التـوفيق و التلفيق، و التقريب و التقرير، و التعريف و التعريب. رحل إلى بغداد عام ٦٠١ هـ. و توفّي بدمشق.

له: تعاليقُ في الطب. صفات أدوية مركبة. ديوان الحكم و منثورالكلم. ديوان المشوقات إلى الملإالأعلى. أدب السلوك. ديوان نوادرالحي. تحرير النظر. سرّ البلاغة و صناعة البـديع. ديـوان المـبشرات. ديـوان الغـزل و

←

أبـو المـظفر مأوى كـلّ مـضطهدٍ بحـكمه و نـداه يـضرب المـثَلُ
مـهما يحِـلْ جـائراً عـاثت عـمايته فعند عدل صلاح الديـن يـعتدلُ
أحيَى به اللّه مصراً فـهي نـاشدة وافـتْكَها مـن عـدوّ مـا بـه قـبلُ
كـم للـفرنج بهـا ورداً و مـنتجعاً و نـارُهم حـولَهاتذكو و تشـتعلُ
فاطفأ الناصرُ المـنصور جـذوتَهم و أدبَروا بـقلوبٍ شهـمها و جـلُ
مَـلك تـقلد سـلك المـلك منتظماً و قال للـمال: هـذا مـنك لي بـدلُ
فـفرّق المـالَ جمـعاً للـقلوب بـه و حَسـبه فـيهم إدراك مـاسألوا
إنّ المـلوك الذيـن امـتدَّ أمـرهم لم يخزنوا المـال بل مهما حوَوْا بذلوا
كذا السياسَة فـالأخبار لوعـلموا نجل المليك وجاءت شدّة خذلوا[1]

و قال حسّان العرقلة[2]: و كان قد وفدَ مع صلاح الدين إلى مصر و أنشد

←

النسيب و الموشحات و الدوبيت. ديوان تشبيهـات و ألغاز و رموز و أحاجي و أوصاف و خمـريات. ديـوان ترسل و مخاطبات. منادح المادح و روضة المآثر.

الأعلام ٣١٧/٤. إيضاح المكنون ٣٥١/١. فوات الوفيات ٤٠٧/٢. معجم البلدان ٦١٤/٢. معجم المـؤلفين ١٩٥/٦. نفح الطيب ٦١٤/٢، ٦٣٥. وفيات الأعيان ١٢٣/٣. هدية العارفين ٦٢٩/١.

١. أخبار الروضتين /٢٠٢.

٢. أبو الندى حسّان بن نمير بن عجل الكلبي المـعروف بـعرقلة الأعـور، و بحـسان الأعـور الدّمشـقي ٤٨٦ ـ ٥٦٧ هـ.

شاعر أديب، من الندماء، كان من سكان دمشق، و اتّصل بصلاح الدين الأيوبي، فـدحه و نـادمه. و وعـده صلاح‌الدين بأن يُعطِيه ألفَ دينار إذا استولى على الديار المصرية، فلمّا احـتلّها أعـطاه ألفـين، فمـات فـجأة قبل أن ينتفع بفجأة الغنى.

له: ديوان شعر. و من شعره قولُه:

قل للصَّلاح مُعيني عـند إعـساري يا ألف مـولاي أيـن الألفُ ديـنارِ؟

←

شعراً في الحوادث التي جَرت في هذه الأوقات:

أصبحَ المـلكُ بعد آل عليٍّ مُشرقاً بالملوك من آل شادي

و غدا الشرقُ يَحسُد الغرب للقو م، و مصر تزهو على بغدادِ

ما حَووها إلّا بحزمٍ و عَزمٍ و صليل الفولاذ في الأكبادِ

لا كَفِرعَون و العزيز و مَن كان بها كالخطيب و الأُستادِ[1]

****

هٰكذا كان الشعراء و مازالوا عليه، إلى أن تقوم الساعة؛ فالشعراء الذين مدحوا الفاطميين في عهودهم، كانوا هم الذين هجوها بعدها؛ فشِعرهم يُرينا صوراً عن العصر الفاطمي، و صوراً عن العصر العباسيّ الثاني، و يمثّل شعرهم ناحيتين من حياة الشعب المصري في الواقع.

و فوق ذلك كلّه يرينا الشعراء في شعرهم مدى انجرافهم مع تيّار المادّة، و كيف شغلتْ أذهانهم بهاتين الدولتين ردحاً من الزمن؛ و بذلوا من جهود كثيرة في تسجيل الوقايع التي حدثت في خلال هذه القرون. و الخلاصة أن شعر شعراء الفاطمية في التاريخ العربي، يعدّ سجلّا تأريخياً حافلاً عن الدولة الفاطمية. و أحسن صورة تاريخية منتزَعةً من الحياة المصريّة الفاطميّة المتشعبة النواحي؛ و أصدقَ تمثيل لها.

←

أخشى من الأسر إن وافيت أرضكُمُ و ما تفي جنّة الفردوس بالنارِ

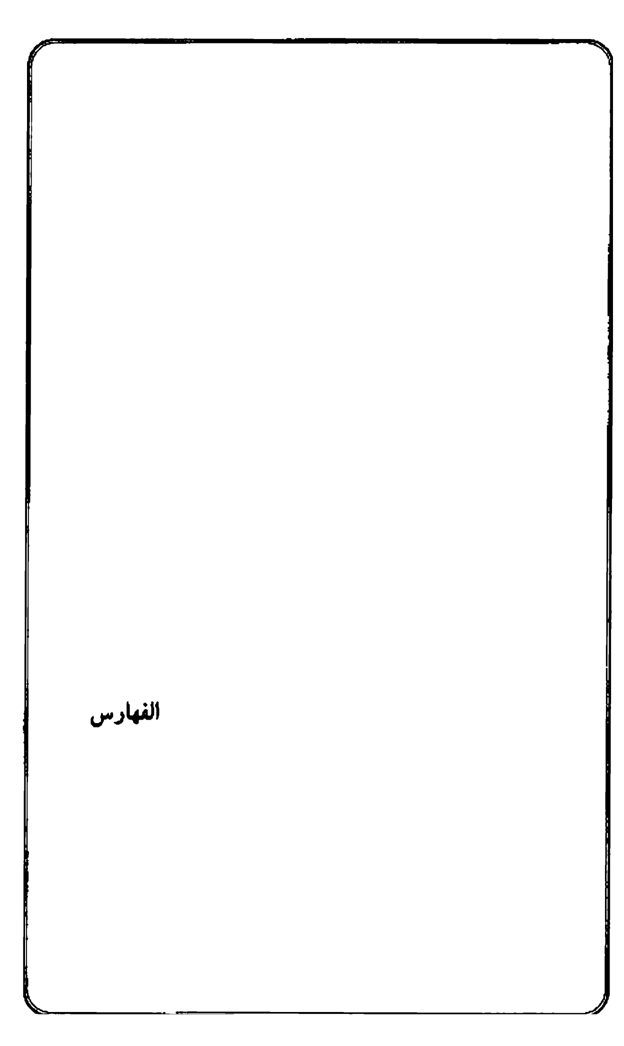
فجد بها عاضديّاتٍ موفرّة من بعض ما خلف الطاغي أخو العارِ

حُمراً كأسيافكم غراً كخيلكم عتقاً ثقالاً كأعدائي و أطماري

الأعلام ۱۹۱/۲. شذرات الذهب ۲۲۰/٤. فوات الوفيات ۳۱۲/۱ـ۳۱۸. مرآة الزمان ۲٦۸/۸. معجم المؤلفين ۱۹۲/۳. النجوم الزاهرة ٦٤/٦.

۱. الروضتين في أخبار الدولتين ۲۰۲/. البداية و النهاية ۲٦۸/۱۲.

... و هذا آخر ما أردنا بيانه مـن «عـيد الغـدير في عـهد الفـاطميّين» والحمدللّه ربّ العالَمين مِن البداية إلى النهاية.



الفهارس

التراجم الواردة في الهامش

أنصاف الأبيات

ثبت المصادر

إتّعاظُ الحنفا	تقي الدين المقريزي
أخبار مصر	ابن ميسر المصري
الأعلام	خيرالدين الزركلي
أعيان الشيعة	السيد محسن الأمين العاملي
أمل الآمل	الشيخ محمد الحرّ العاملي
إنباءُ الرواة	علي بن يوسف القفطي
إنباء الغمر بأبناء العمر	الحافظ ابن حجر العسقلاني
إيضاح المكنون	اسماعيل باشا البغدادي
البداية و النهاية	ابن كثير الدمشقي الشافعي
بغية الوعاة	جلال الدين السيوطي
تاريخ آداب اللغة العربية	جرجي زيدان
تاريخ أبي الفداء	عماد الدين اسماعيل
تاريخ بغداد	الخطيب أحمد بن علي البغدادي
تاريخ الخلفاء	جلال الدين السيوطي

تاريخ الخميس	حسين بن محمد الديار بكري
تاريخ الدولة الإسلامية	ابن طباطبا
تاريخ المساجد الأثرية	حسن عبد الوهّاب
تاريخ مصر	ابن اياس
تذكرة الحُفّاظ	شمس الدين الذهبي
تنقيح المقال	الشيخ عبدالله بن الشيخ حسن المامقاني
جامع الرواة	المولى محمد على الأردبيلي
الحاكم بأمر اللّه	محمد عبداللّه عنان
الحركة الفكرية في مصر	الدكتور عبد الطيف حمزة
حُسن المحاضرة	جلال الدين السيوطي
الحلّة السيراء	ابن الأبار
حياة الحيوان	الدميري
خريدة القصر	عماد الكاتب (قسم شعراء مصر)
الخِطط	تقي الدين المقريزي
خلاصة الأقوال	العلاّمة الحلّي (الرّجال)
دائرة المعارف	البستاني اللبناني
دائرة المعارف	محمد فريد وجدي المصري
دمية القصر	الباخرزي
دُوَل الإسلام	شمس الدين الذّهبي
ديوان طلايع	تنظيم الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني
ديوان	عبدالمحسن الصوري (مخطوط بمكتبتي)
ديوان	المؤيد داعي الدعاة الشيرازي
ديوان	ابن قلانس
ديوان	ابن هاني الأندلسي

ديوان	تميم بن المعزّ الفاطمي
ديوان	عُمارة الفقيه اليمني
الذريعة إلى تصانيف الشيعة	الشيخ آغا بزرگ الطهراني
الرجال	تقيُّ الدين الحسن بن على بن داود الحلّي
رجال	ابو العباس أحمد بن على بن أحمد النجاشي
رجال	الشيخ الطوسي محمد بن الحسن البغدادي
روضات الجنّات	السيد محمد باقر الموسويُّ الخوانساري
الروضتين	ابن شامة المقدسي
رياض العلماء	الميرزا عبدالله أفَنْدى
سبيل راحة الأرواح	ميمون بن القاسم الطبَراني
سيرة الأستاذ جوذر	
سيرة المؤيد داعي الدعاة الشيرازي	....
شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلي
صبح الأعشى	القلقشندي
الضوء اللامع	شمس الدين محمد السخاوي
طبقات الأطبّاء	أحمد بن القاسم بن أبي أُصَيبِعة
طبقات الحفّاظ	جلال الدين السيوطي
الطبقات الشافعية	ابن قاضى شُهبَة
الطبقات الشافعية	تاجُ الدين السُّبْكي الشافعي
العبر في خبر من غبر	شمس الدين الذهبي
عمدة الطالب	جمال الدين أحمد بن على الحسني
الغدير	الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي
الفاطميون في مصر	الدكتور حسن إبراهيم حسن
فوات الوفيات	ابن شاكر الكتبي

الفوائد الرضويّة	المحدّث الشيخ عباس القمّي
الفهرست	شيخ الطائفة الطوسي محمد بن الحسن
في أدب مصر الفاطمية	الدكتور محمد كامل حسن
القاموس المحيط	الفيروز آبادي
الكامل في التاريخ	عزّالدين ابن الأثير الجزري
كشف الظّنون	مصطفى بن عبدالله الخليفة
الكُنى و الألقاب	المحـدّث الشيخ عبّاس القمّي. تقديم الشيخ محـمد هادي الأميني
لسان الميزان	ابن حجر العسقلاني
مجالس المؤمنين	القاضي نور اللّه التستري
مجمع الرجال	المولى عناية اللّه القهبائي النجفي
مجموعة الوثائق الفاطمية	الدكتور جمال الدين الشيال
مرآة الجنان	عبداللّه بن أسعد اليافعي
مرآة الزمان	سبط ابن الجوزي
مروج الذهب	علي بن الحسين المسعودي
مساجد مصر	عبدالرحيم فودة
مستدرك الوسائل	الميرزا حسين النوري
المشتبه في أسماء الرجال	محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
مصر الإسلامية	زكي محمد حسن
معاهدالتنصيص	عبد الرحيم بن أحمد العباسي
معجم الأدباء	ياقوت الحمَوي
معجم البُلدان	ياقوت الحموي
معجم رجال الحديث	السيد أبوالقاسم الخوئي النجفي
معجم المطبوعات العربية	إلياس سركيس

معجم المؤلفين	عمر رضا كحّالة
المعزّ لدين اللّه	حسن إبراهيم حسن و طّه شرف
المناقب	ابن شهر آشوب المازندراني البغدادي
منتخبات إسماعيليّة	عادل العوا
المنتظم	ابوالفرج ابن الجوزي
ميزان الاعتدال	شمس الدين الذهبي
النجوم الزاهرة	ابن تغري بردي الظاهري القاهري
نسمة السحر	الصنعائي اليمني (مخطوط بمكتبتي)
نفح الطيب	الشيخ أحمد بن محمد المقري
النكت العصرية	عمارة الفقيه اليمني
نكت الهميان في نكت العميان	صلاح الدين الصفدي
نوابغ الرواة	الشيخ آغا بزرگ الطهراني صاحب الذريعة
نهاية الإرب	النويري
الوافي بالوفيات	الصفدي
وفيات الاعيان	شمس الدين ابن خلّكان
هَديّة الأحباب	المحدث الشيخ عباس القمي
هديَّة العارفين	إسماعيل باشا البغدادي
الهمّة في آداب أتباع الأئمة	القاضي نعمان
يتيمة الدهر	أبو منصور الثعالبي

محتويات البحث